

٢٨٢

هدية من دارالمعارف  
إدارة النشر  
غير مخصص للبيع

عبدالتواب يوسف

# دليل الآباء الأذكياء في تربية الأبناء

الطبعة الرابعة



دارالمعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

## أكبادنا

البيت . . . المدرسة . . . المجتمع . .

أطراف ثلاثة ، هي المسئولة بالكامل عن أكبادنا . . وكل منها في حاجة إلى كلمة ؛ فهي تتضافر من أجل هذا الإنسان الصغير الذي سوف يتلقف الراية ، ليحيا في زمان غير زماننا ؛ من أجل هذا كان لا بد أن تقوم الدراسات حول دور كل من هذه الأطراف .

\* \* \*

والدراسة التي نقدمها هنا نخدم الأطراف الثلاثة :

البيت : الذي لا نريده سجنًا للأبناء ، كما لا نود أن يكون مهد تدليل

للصغير ، فيشب غير سوى ، ولا متكامل !

المدرسة : التي غيرنا اللافطة التي تعلوها : من «ديوان المعارف» ، إلى

«نظارة المعارف» ، إلى «وزارة المعارف العمومية» ، وأخيرًا : «وزارة التربية والتعليم» . ولا ندري هل مفهومنا لها قد تبدل مع هذه التغييرات ؟ إذ ما زالت

قضية حشو أذهان أبنائنا بالمعرفة هي التي تشغلنا حتى اليوم !

والمجتمع : ترى ماذا يقدم لأبنائنا من خلال مؤسساته : اجتماعية ،

وإعلامية ، وثقافية ؟ هل يؤدي دوره الحق ؟

إن هذا الكتاب التربوي يستهدف الأسرة : أمًا وأبًا ؛ والمدرسة : معلمة

ومعلمًا ؛ والمجتمع : مؤسسات وأفرادًا ، لكي يستطيع الطفل أن يقول يومًا  
ما : أدبني - أبي ومعلمي ومجتمعي - فأحسنوا تأديبي .

إن المعلمين والمعلمات لا يدخلون حجرة الدراسة وفي خطتهم إتعاس  
تلاميذهم ، والآباء والأمهات لا يصبحون في الصباح ولدى كل منهم خطة  
مسيقة لجعل حياة أطفالهم مملوءة بالأسى والحزن ! إن المعلمة أو الأم لم تستيقظ  
قط قاتلة لنفسها :

- اليوم سأصرخ في تلميذي وابني كلما استطعت ، وسأضايقه بكل  
سبيل !

إن العكس هو الذي يحدث بالنسبة لنياتنا الطيبة ، فهي قد تحدث نفسها :  
- اليوم لا صراخ .. لا شجار ، لا حرب .. أريده يومًا هادئًا مع أبنائي  
وتلاميذي !

ومع ذلك تنشأ الحرب ، وتجد المعلمة أو الأم نفسها تقول كلمات لم تكن  
تريد أن تقولها ، ولا تعنى ما تقوله ، وبصوت لم تتوقعه ، بل ربما لم تعهده في  
نفسه .. وسؤال يطرح نفسه :

- لماذا تناقض النيات الطيبات والتصرفات الغريبة في هذا المجال ؟  
لماذا لا نحقق أمنياتنا ؟ ولماذا يحدث عكسها ؟

إن المعلمات والمعلمين والأمهات والآباء يريدون لأبنائهم السعادة والأمان  
والاستقرار ، وليس هناك من يبغي أن يكون مخيفًا بالنسبة لأولاده وبناته ،  
أيضًا ليس هناك من يريد لهم أن يشبوا خوافين ، خجولين ، مضطربين ، غير  
أسوياء !

غير أنهم في واقع الأمر يمتنون وهم يحملون بداخلهم أشياء وأعباء وعقداً ،  
ولا يكبرون وبين جنابهم الحب ، والاحترام لأنفسهم وللآخرين ؛ ونجد أنفسنا  
أمام صورتين متناقضتين :

- نحن نريد أبناءنا مهذبين ، مؤدبين . . .
- ونفاجأ بأنهم ليسوا كذلك ، بل هم غير هذا وعكسه !
- نحن نود أن يشب أطفالنا على النظام .
- وإذا بنا أمام فوضويين مرعيين !
- إننا نبغى أن يكونوا أقوياء الشخصية ، واثقين من أنفسهم والناس .
- ولكنهم ضعاف الشخصية ، لاثقة لهم في أنفسهم والناس .
- إننا نتمنى أن يكونوا سعداء مبهجين فرحين .
- ونراهم غير هذا ، نراهم يحملون على كواهلهم أعباء العصر  
ومشاكله !

اللهم إلا بعضهم في كل ما تقدم !

وبودنا أن نتفق مع المعلمين والوالدين على أهداف محددة نبغى ونريد  
ونسعى إلى تحقيقها في أبنائنا وتلاميدنا ، وأن نتفق على وسائل بذاتها لتحقيق  
هذه الأهداف وتلك الغايات !

إن الأمهات والآباء يواجهون في كل يوم ، وفي كل لحظة - مشاكل بعينها  
ومصاعب بذاتها ، وليس في استطاعتهم أن يذهبوا إلى « طيب » متخصص في  
التربية ، ليقول لهم أوليكتب تذكرة دواء ، قد يرد فيها مثلاً :

- أعطوا ابنكم ثلاث جرعات يومية من الحب !
- عليكم أن تبدوا الاهتمام بابنتكم ، هي في حاجة إلى دفء عاطفي !

- خصصوا للأولاد مزيداً من وقتكم كل ست ساعات .

- لا بد من إجراء عملية جراحية في المسالك الشخصية !

ليس هناك - مع الأسف - أطباء في هذا المجال الحيوى يلجأ إليهم المعلمون والمعلمات ، ليعرضوا عليهم حالات التلاميذ ، وهـ الحالات ، لا تعرض على الطبيب النفسى إلا حين يستفحل أمرها ، وتصبح مرضاً عضوياً أو نفسياً واضحاً . وفي الظروف العادية ، فكلنا يعرف مدى نأثر الأبناء بالمعلمين وبالوالدين !

وقد أصبح الطفل مرآة أسرته ومدرسته .

- إذا كان الأب من اللون العصبي يتحدث ابنه بسرعة فائقة وبصوت

مرتفع .

- والطفل السلبى تدرك منه أن أباه فى البيت قد يكون طاغية ومستبداً

وفردياً !

- وقد تنطوى فتاة على نفسها ، وتدرك من ذلك ما يدور بين الأبوين من

صراع !

- والكلمات التى ينطق بها الأبناء ، والألقاظ : تستمد أصلاً من

الأسرة !

- إن الأسرة هى التربة التى يشب فيها الأبناء ، وكذلك المدرسة . .

وهناك تربة لا تثبت زرعاً : قاحلة . . وتربة تصلح فيها الغابات . . وهكذا

الأسرة . . ونقل الأشجار من تربة لأخرى ممكن ، وتطعيمها ممكن أيضاً . .

وما نتحدث هنا إلا عن سُبل غرس الأشجار وتعهدها وتنميتها لتشب قوية ثابتة

الجدور وارقة الظلال ! .

ولا شك أن الآباء في حاجة إلى دراسة ، وفي حاجة إلى خبرة المتخصصين في هذا المجال ، وقد نسمع يوماً ما مثل هذا الحوار بين الأم أو الأب من جانب ، وبين المتخصصين أو المعلم من جانب آخر :

- أنت تبالغين في مراقبة ابنك والمحافظة عليه !

- إنه حيائي - أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض !

- أوضحُ شبيه لك - ياسيدتي - أنك تبدين كسائق سيارة يريد أن يرقب

«الموتور» أو الآلات وعملها خلال قيادته للسيارة ، لكي يطمئن إلى حسن

سيرها : هل يستقيم هذا ؟

- إن هذا لا يمكن أن يحدث أو يستقيم !

- ولكنه يحدث معك بالنسبة لابنك !

وتذهل الأم للتشبيه : أترقب (موتور) السيارة وهي تقودها ؟ ويفتح

المتخصص عينها على حقيقة مدهشة : إنها تتصرف فعلاً بهذا الأسلوب ،

ولكنها غير متنبهة له أو لخطورته ! . إنها بهذا قد تكون إنسانة مضطربة عاطفياً .

لكنها تثير اضطراباً اجتماعياً ! وهي تحتاج ولا شك إلى علاج ناجع لحالتها التي

تتمثل في رعاية مبالغ فيها ومرضبة لطفلها !

وتتمثل في عبارات كهذه :

- تعال أقيس لك الحرارة ! هل نمت نوماً جيداً يا حبيبي ؟ كل هذا

الطعام كله ، لا تقف في تيار الهواء ، احذر من الوقوف على هذا الدرج خشية

أن تسقط ، لا تستخدم السكين خوفاً من أن تجرحك !

إنها تبالغ في كل شيء ، حتى لتود أن يشب كما تود هي وتهوى ! وهي تريد

أن تقوم عنه بكل شيء ، بل تمنحني لو أنها هضمت له طعامه !

والطفل هنا يكبر ، ولا ينمو ، فهو يعتمد على الأم في كل شيء ، فلا يعرف رغباته ومشاعره ، وتنقصه المهارات الاجتماعية الأولية ، إنها تفكر له ، فلا يجد فرصة لكي يفكر بنفسه ، إنه لا يعرف ولا يتعرف إلى عالمه ، إنه لا يربط بين الأسباب والنتائج ، ويرضى بالحكايات الخيالية والتفسير الأسطورية للحياة ! وما أشق ما يستطيع هؤلاء أن يخرجوا من إسهاماتهم . وأن يمرروا أنفسهم وذواتهم من سيطرتها !

وقد نسمع أيضاً حواراً من لون آخر بين أب. أو أم من جانب ، وبين المتخصص من جانب آخر :

- أعرف أنك تحين طفلك وتداعينه .

- فعلاً ، لوقت طويل !

- يؤسفني أن أقول لك : إنك تعاملينه كلعبة أودمية !

- ماذا ؟

- والواقع أنك في حاجة إلى من يردك ! في حاجة إلى أم تبحين عندها عن الحنان والحب والدلال ! إن الطفل يشعر أنه لا يد أن يحمي أمه ويرعاها ويسليها ويقلق من أجلها ، إذا كانت تؤدي دور الأم . . . ولما كان ابنك غير قادر على تأدية هذه المهمة فإنه يظل شاعراً بالقلق والاضطراب !

إنه ينمو محروماً من طفولته ، شاعراً بالإثم ، دائم اللوم لنفسه ! أيعقل ياسيلق أن ترضى لطفلك بهذا ؟

إن الطفل ليس دمية ولا تسلية ، بل هو حياة كاملة ، حياة خاصة : وهو ليس عجينة يشكلها المعلمون والآباء. كيفما يشاءون ، بل هو كيان وإنسان ، وليس الآباء والمعلمون كل شيء في الأمر ، إن للطفل شخصيته ثم المجتمع ، ثم

القيم التربوية والأخلاقية التي تسود ، نحن في حاجة ماسة إلى الدراسة والبحث ، وهذا يقودنا ولاشك إلى ضرورة معرفة النظريات التربوية وتطبيقاتها . لكي ينمو الأبناء على أسس قومية !

بسم الله الرحمن الرحيم

## المدخل إلى الطفل

إدارة الحوار مع الطفل فن رائع ، له قواعده ومعانيه الخاصة . والأطفال ليسوا سذجاً كما يتصور البعض ، وبالذات في مجال اتصا­هم بغيرهم ، وحوارهم معهم . إن أسئلتهم وإجاباتهم عن الأسئلة تحتاج منا إلى تحليل ودراسة سوف تكشفان عن (لغة) خاصة بالأطفال في حوارهم مع الكبار .

° ° °

سمعت طفلاً يسأل :

الطفل : ما عدد الأطفال الذين بلا آباء في الوطن العربي ؟

الأب : هذا سؤال مهم لأنه يدل على اهتمامك بقضايا الوطن والقضايا الاجتماعية .

الطفل : ما عدد هؤلاء الأطفال ؟

الأب : ثم هو اهتمام إنساني كبير !

الطفل : وما عددهم في بلدنا وفي العالم ؟ كل الذين فقدوا آباءهم

و . . .

الأب : سأحدثك عن هؤلاء في إيجاز ، إن الأطفال . . .

ولم يكن هدف الطفل إنسانياً أو قومياً أو اجتماعياً في سؤاله هذا ، بل كان

شخصياً ذاتياً ، إنه كان قلقاً على نفسه يخاف أن يفقد والديه ، أو أباه

بالذات ، لذلك طرح هذا السؤال بشكل غير مباشر .  
وهناك طفلة زارت معرضاً فنياً لكبار الفنانين ، وفاجأت أمها بسؤال  
مخرج :

الطفلة : من رسم هذه الصورة القبيحة يا أمي ؟

الأم : قبيحة ؟ من يقول هذا ؟

الطفلة : أنا أقوله ! هيا : إنها قبيحة فعلاً !

الأم : ليس من اللائق أن تقولي هذا عن أعمال فنية رائعة !

الطفلة : إنها ليست رائعة على الإطلاق !

الأم : تعالي أوضح لك مواطن الجمال فيها !

الطفلة : لا ، لا أريد !

إن الأم لم تدرك حقيقة ما تريده الطفلة بسؤالها ، وقد نجح أحد الموجودين  
في الرد عليها ، فأخذها برقة من يدها ، وابتعد بها عن أمها ، وسار خطوات  
يشاهدان فيها (اللوحات) وهو يقول :

- ليس مطلوباً هنا أن يرسموا (لوحات) جميلة ، بل يستطيع الفنان أن  
يرسم (لوحة) قبيحة إذا أراد ، إنه يرسم ليؤثر في الناس .

وابتسمت الطفلة واستراحت ، إنها ليست مطالبة بأن ترسم (لوحات) رائعة  
كهنه ، إن مهمتها مجرد أن ترسم حتى لو لم يكن رسمها جميلاً .

لقد هاجمت (لوحات) المعرض وقالت : إنها قبيحة لأنها لا تستطيع أن  
ترسم مثلها ، إنها مثل الثعلب الذي لم تصل يده إلى العنب فرآه مرّاً !  
ودخل طفل مرة إلى متجر لعب ، فوفقت أنظاره على لعبة مكسورة ،  
فسأل في غضب :

الطفل : من كسر هذه اللعبة ؟

الأم : أى شيء يعينك فى هذا ؟

الطفل : لا بد أن أعرف من كسرها ، إنها غالية .

الأم : أنت لا تعرف أحداً هنا ، ماجدوى سؤالك ؟

كان الصغير يسأل لا يعرف اسم الذى كسر اللعبة ، بل ليعرف ماذا حدث له : هل عوقب ؟ وبأى صورة ؟ والرد البسيط هو أن هذا متجر يجرب فيه الناس اللعب التى صُنعت ليلعب بها الأطفال ، ويحدث أحياناً أن تكسر بالقضاء والقدر ، إن هذا الرد يجعل الطفل فى أعماقه يقول :

- إن هؤلاء الكبار أناس ظراف ! إنهم لا يغضبون بسرعة لو أننى رسمت صورة غير جميلة ، أو كسرت لعبة ، إنهم متسامحون محبون للأطفال ، ليس من الضرورى أن أخافهم ، بل إن الأمان يغمرنى ، والاطمئنان يسود حياتى بينهم !  
- ولستنا نظن أن عالم هؤلاء «الشياطين» (الجويين) سيضم طفلاً يقول نص هذه الكلمات ، بل ندرك تماماً السر وراء ابتسامة تغمر وجوههم أو نظرة تطل من أعينهم . ولقد دار حوار بين الطفلة التى شاهدت المعرض وبين أمها :

الطفلة : ابنة خالتى ستذهب لبيتها ؟

الأم : بالطبع .

الطفلة : وأبقى وحدى مرة أخرى ؟

الأم : ستجدين لك صديقة أخرى تلعبين معها !

الطفلة : إنى سأكون وحدى !

الأم : نئى أنك قادرة على التغلب على وحدتك !

الطفلة : لا ، أبداً ، وتنفجر الطفلة باكية ، وتسخر منها الأم قائلة :

أنت تبكين كالأطفال الرضيع !

كان هذا المشهد يمكن أن ينتهى نهاية حلوة : إن عواطف الأطفال يجب أن تتناول بشكل جدى : فالأم ترى أن فراق ابنة الحلالة أمر بسيط. حين لا يستحق دموعاً ، ولا يستحق من جانب الأم أن تبدى فهماً وإدراكاً لهذا الذى يزعجها ، فى حين كان يجب عليها فى واقع الأمر أن تتنبه للحدث ، وتؤكد أن الفراق لابنة خالتها مؤلم ، وأنها ستوحشها ، وأن البيت سيكون غير أنيس لهذا ، وردود كهذه ستخفف من وقع الحدث بدلاً من تحدى مشاعر ابنتها ، وتغييرها بأنها رضيع !

والأمهات والآباء يضيعون بالحوار والحديث مع الأطفال ، ويرون أنه بلا جدوى ، ولا نتيجة له !

الأم : إلى أين تذهب ؟

الطفل : إلى الخارج !

الأم : لماذا ؟ وأى شىء ستفعل ؟

الطفل : لا شىء !

والآباء والأمهات الذين يريدون أن يبدوا معقولين سرعان ما يكتشفون كم هو مرهق هذا ! وأنه يكلفهم شططاً ، حتى إن أمّاً من الأمهات قالت :  
- إننى أود أن أكون منطقية مع ابنى ، ولا يتالننى إلا أن رأسى يصاب بالصداع ، فى حين أنه لا يستمع لى ! إنه لا يصغى إلا إذا صرخت ، أو إذا كان راغباً فى الاستماع !

إن الأطفال فى واقع الأمر يقاومون الحوار مع آبائهم ، ويضيعون بالحديث

للبهم بالنصائح ولا يجبون النقد ، وهم يعتقدون أن آباءهم يتكلمون كثيراً ، حتى إن واحداً منهم عمره ثمانى سنوات قال لأمه :

- إننى عندما أسألك سؤالاً صغيراً لماذا تجيبين بكلام كثير؟

وقد أضاف هذا الصغير إلى قوله هذا تصريحاً لأصدقائه :

- إننى لا أقول شيئاً لأمى ! إذا بدأت أتحدث معها فلن أجد وقتاً كافياً

لكى ألعب !

والذى يتسمع لحوار يدور بين طفل وأبيه ينهله أن كلاً منهما لا يسمع الآخر جيداً ، بل لا يعطيه أذنيه تماماً ! إن كلاً منهما يقول منولوجاً خاصاً به : من جانب الأب مجموعة من الانتقادات والتعليمات ، ومن الجانب الآخر محاولة للإنكار ونفى التهم ! ومأساة مثل هذه الاتصالات لا تكمن فى أنه ينقصها الحب ، بل ينقصها الاحترام ، ولا تكمن فى قلة الذكاء بل فى ندرة المهارة ! لذلك نحن فى حاجة إلى لغة جديدة للتخاطب بين الآباء والأبناء من أجل مزيد من التفاهم بين الطرفين ، وفى حاجة إلى مواصفات خاصة للحوار الذى يدور بين طرفين يجب أن يكونا أكثر اتصالاً ، أكثر أخذاً ورداً ، أكثر عطاءً للجانبين !

## الحوار مع الطفل

حذرنا المعلمين والآباء من مراقبة أبنائهم ووضعهم في قوالب جامدة ،  
وطالبنا بأن يدور بين الطرفين حوار بناء تمر كلماته عبر العقل قبل أن تقفز على  
الأسنة ، ونواصل الحديث هنا عن الحوار مع الطفل .

• • •

أكبادنا : يجب أن تكون وسائل الاتصال بيننا وبينهم أوثق وأفضل مما هي  
الآن ، والحوار معهم يتطلب الاحترام والمهارة من الطرفين ، ذلك وحده الذي  
يقود إلى التفاهم وإلى خلق ثمرة حقيقية لما يدور بينهما ، والوصول إلى نتيجة  
محددة ، وذلك أجدى وأفضل من فيض النصائح والتعاليم والفرمانات  
السلطانية التي تصدر من الأعلى !

لقد عاد طفل يبكي بحماسة لأن رحلة المدرسة ألغيت بسبب المطر ، وقررت  
الأم أن تتناول الأمر بطريقة مختلفة ، إنها في كل مرة تقول واحدة من هذه  
ال عبارات :

- لا داعي للبكاء على رحلة ، هناك رحلات قادمة على الطريق .  
ولا تنسَ أني لست السبب في المطر ، فلا تغضب مني !  
لقد قالت الأم في نفسها هذه المرة كلمات جديدة ، قالت لنفسها :  
- إن ابني يتأثر كثيراً بسبب إلغاء الرحلات ، إنه يشعر بأسى وضيق ، لماذا

لا أحاول أن أشاركه في ذلك ؟ قد أستطيع بذلك أن أساعده على التغلب على مشاعره هذه !

- يا عزيزي ، يبدو أنك حزين .
  - طبعاً .
  - كنت ترغب كثيراً في الذهاب إلى الرحلة .
  - فعلاً .
  - أعددت كل شيء ، ثم أمطرت السماء بشكل تعذر معه الذهاب !
  - هذا هو بالضبط ما حدث ، شيء مؤسف ، لكن .. لكن ..
- لكن ..

- سوف تأتي رحلات كثيرة فيما بعد .  
ويطلق الطفل بالعبارة الأخيرة بلا أسف ، وقد كان يبدو أن غضبه يتبخر ، وكان متعاوناً ورفيقاً وظريفاً بقية اليوم ، وكان المعتاد غير ذلك حين يعود من المدرسة غاضباً ، وكان يسبب الكثير من المضايقات لكل أفراد الأسرة ، ولا يسود السلام والوئام إلا حين ينام .

والواقع أن الطفل حين يكون في قمة الانفعال لا يستمع إلى أحد ، لا يقبل النصيحة أو النقد أو الترضية ، وهو يريد أن نعرف ما يدور في نفسه في هذه اللحظة بالذات دون أن يكشف لنا هو عنه ، إنه يعطينا مؤشرات ، وعلينا أن نفهم وندرك الباقي ونستتجه ! وإذا ما قال لنا الطفل مثلاً :

- معلمتي ضرتني .  
فعلينا ألا نسأله عن أي تفاصيل أخرى أو إضافات ، ولا نحتاج أيضاً إلى

مساءلة عن السر في أنها ضربته ، لقد تعودنا دائماً أن نسمع من الأمهات في هذه اللحظة :

- لا بد أنك تستحق الضرب ! ماذا فعلت لتضربك مُدرستك ؟
- بل يجب على الأم أن تجامله وتقول له بهدوء مشوب بالحزن :
- إني آسفة لأن أسمع ذلك !

من الواجب أن يدرك أننا ندرِك آلامه ، وحرص موقفه ، ومشاعر الغضب والانتقام التي تتفجر بها نفسه ، ولا شك أن تساؤلاً يدور في النفس حول أحاسيسه ، إن علينا أن نتطلع إليه ونزقه باهتمام ونسمعه في إصغاء كامل ، ونعتمد بعد ذلك على خبراتنا معه ، ونحذر بنا أن يكون تعليقنا واحداً من هذه العبارات :

- لا بد أنك شعرت بالحرج و غضيت لما حدث ، لاشك أنك ضقت بالمعلمة في هذه اللحظة ، إنه يوم سخيف أتصور أنه جرح مشاعرك !
- إن مشاعر الطفل وانفعالاته القوية لا تزول حينما نقول له عبارة كهذه :
- ما كان يجب أن يكون هذا هو شعورك ، لم يكن هناك مبرر لهذه الأحاسيس !

إنها لا تنتهي بعبارة وكلمة ، بل تنتهي حدثها عندما يتقبلها المستمع في تعاطف وتفهم كاملين . وهذا ينطبق على الكبار والصغار أيضاً : لو أن زوجة بكى طفلها ودق جرس التلفزيون وانسكب اللبن الذي تغليه ، وغضب الزوج وقال عبارة قاسية عن سوء إدارتها للبيت : فهل تتقبلها الزوجة ؟ ماذا لو أنه قال :

الأب : إنه لصباح مزعج بالنسبة لك !

الأم : حقاً ، وشكراً لأنك لا تغضب بما يحدث ، لأنه خارج عن إرادتي !

إن الزوجة لم تتقد من جانب زوجها ، لأن اللبن انسكب فالتقطت أنفاسها ! إن زوجها معها وليس عليها ، لو أنه قال لها مثلاً :

الأب : دعيني أعلي اللبن وأعد الإفطار ما دمت غير قادرة على ذلك . إنه بهذا يشعرها بعجزها ، وهذا شيء سخيف !

وعندما نطبق هذا على الأطفال نجد أنفسنا نرتكب أخطاء كثيرة : قد نقول  
الأم :

- إنك كبرت إلى درجة تستطيع معها الاعتماد على نفسك .

- تعال يا عزيزي أعلمك كيف يمكنك أن تفعل هذا الشيء .

وتقول الأم أحياناً : أنت لا تصلح لشيء ! وكم يكره الطفل هذه العبارة وصاحبها ، بل إن صاحبة العبارة لا تحبها ولا تحب نفسها حين تقولها ! وموضوع اللبن الذي انسكب درس نتعلم منه ما نستطيع أن نقوله لطفلنا ، ولكي نجلب له الارتياح .

الأم : إني أفهمك يا عزيزي ولا أؤلمك أبداً .

الأب : إنك وحدك القادر على أن تؤدي هذا الأمر بشكل أفضل في مرة مقبلة .

الكلمات هنا : إما أن تسعد سامعها ، أو تمزقه ! إن استجاباتنا للكلمات والمشاعر هي التي تقرر جو بيوتنا : أهو الهدوء والحب أم الشجار والكراهية ؟ وكلمات الحوار مع أطفالنا تحتاج منا إلى دراسة متأنية لشروط وقوانين يجب أن نطبقها ، لكي يكون الحوار ناجحاً ومستمرًا ومحققاً لأهدافه . وأولى

هذه الشروط أننا إذا سألنا طفلنا عن حدث بذاته فعلينا أن نجيب ولا نروى الحدث ، بل نحكيه بشكل يتصل بطفلنا الذى يقول :

- إنى لا آخذ مصروفاً ، ولا أتلقى هدايا مثل شقيقى ! هذا ظلم !  
والأم هنا يجب ألا تستنكر الشكوى ، أو تنكر أنها صادقة ، ويجب ألا تشرح للصغير أن شقيقته كبيرة ، أكبر منه وتحتاج لأشياء أكثر ، وأيضاً يجب ألا تعد بالمساواة بينهما فى المصروف والهدايا ! إن الأم قد تضع ردها فى كلمات كهذه :

- أنت على يقين من أنى أحبك مثلما أحبها تماماً .

ولم تضيف الأم عبارة أخرى ؛ فإن الطفل ابتم فى مرح وفرح وانتهى الحوار عند هذا بلا امتداد . وعندما يروى الطفل حادثة يجب ألا تتجاوب معها ، بل تتجاوب مع مشاعره تجاهها ، مثلاً :

الطفل : زميلتى وقعت اليوم من على درجات السلم ، دفعوها فسقطت .

الأم : لا بد أنك تألمت كثيراً لهذا ، وتضايقت ممن فعل هذا معها !  
الطفل : (بفرح) فعلاً .

ولو أن الأم قالت : إن طفلها يخاف أن يتكرر هذا معه لتحدهم أن يفعلوا ، ولقال : إنه كان سيلقى بهم من حائق (مكان مرتفع) ! ويضحك للصورة الانتقامية ، وينتهى الحوار بالارتياح دون تفاصيل مؤلمة ومؤذية لحادثة قد تكون كبيرة الأثر . وهذا أفضل ؛ لأن فى تأكيد الحقائق وتوضيح الظروف مجالاً لتفريعات عدة نحن فى غنى عنها ، إن الطفل يعود بشكاوى كثيرة .  
- معلمتى أساءت لى ، وقالت لى غير صادق !

- لاشك أنك تأملت لهذا؛ إذ لا بد أنك أخرجت أمام زملائك وبينك وبين نفسك لم تكن راضياً عنها .
- فعلاً ، كيف عرفت يا أمي ؟
- كلنا كان يحدث معنا هذا في طفولتنا . . .
- ويستريح الطرفان ، الابن والأم بدلا من تبادل التشاكي والتباكي ، وبدلاً من حكايات طويلة ممتدة يكون تعليق الأم عليها مثيراً للانفعال للصغير ، الأمر الذي يجعله متعصباً لرأيه ولوقفه . ولقد ربطنا بين الحدث وعلاقته بالصغير والحدث ومشاعره ، وتتبقى شروط ومواصفات للحوار مع الطفل .

## فن إدارة الحوار

نستكمل هنا الحديث عن «الحوار مع الطفل» بعد أن قمنا لقضية الطفولة وعلاقتها بالبيئة والمدرسة والمجتمع ، وعرضنا للحوار مع الصغار على أنه أروع وسائل الاتصال بهم ، وإذا ما استكمل هذا الحوار شروطه أصبح في مقدورنا أن نفيد منه في بناء شخصية أبنائنا .

° ° °

أكبادنا : إذا ما سألونا عن حادثة ما فعلينا أن نجيبهم بروايتها من زاوية اهتمامهم بها ، وإذا ما رووا حادثة فعلينا أن نشاركهم في مشاعرهم تجاهه ، أما إذا ذكر الطفل عبارة ما عن نفسه فلا بد من الاستجابة لها لا بالموافقة ، مجرد الموافقة ، بل بتعقيب فيه تفاصيل تمنع الطفل بتفهمنا للأمر بشكل يفوق توقعه ، فإذا ما قال طفل :

- أنا لست متفوقاً في الحساب .

- فعلا . إنك تخطئ كثيراً في العمليات الحسابية .

- لأنني لا أحبه .

- ستحبه إذا استذكرته بشكل دائم ومستمر و... !

هذه النصيحة رخيصة ، ولا يفيد الطفل كثيراً أن نوافقه على حقيقة ما قاله عن نفسه بهذه الصورة ؛ والواجب أن يدور الحوار بيننا وبينه كما يلي :

- أنا لست متفوقاً في «الحساب» .
- الحساب ليس مادة سهلة على كل حال .
- فعلاً : كثير من مسائل الحساب معقدة وصعبة الحل .
- لا بد أن حصة الحساب طويلة بالنسبة لك .
- ما إن تنتهى حتى أتففس الصعداء !
- ولاشك أنك قلق لِمَا ينتظرك في امتحان الحساب ؟
- طبعاً .
- إننا نثق في ذكائك ، ونعتمد على قدرتك فلتكن عند حسن ظننا  
فيك !

على هذه الشاكلة يجب أن يدور الحوار ، وإذا عاد هذا الطفل بتقرير المدرسة الفترى إلى أمه ، وناقشته بهذا الأسلوب فسيعقب على ذلك بقوله :  
سوف أستमित لكي أحقق ثقة أمى وأبى فى !  
وربما يدور حوار من لون آخر بين طفل وأبيه حول درجة ذكاء الصغير ،  
وهذا الحوار التالى بين طفل وأبيه يحتاج منا إلى يقظة كاملة لنستوعب أبعاده :

- الطفل : إنى غبى ..
- الأب : لا ، لست غبياً !
- الطفل : بل أنا غبى ..
- الأب : أبدأ ، هذا غير صحيح ! عندما كنت فى النادى كان المشرف  
يقول : إنك من أذكى الأطفال .
- الطفل : ولكنه قال لى أكثر من مرة إنى غبى ..
- الأب : كان بداعبك !

الطفل : وماذا عن درجاتي في دروسى ؟ إنها تؤكد غبائى !  
الأب : لا ، إنها تطالب بمزيد من الجهد والدرس والتحصيل . .  
الطفل : لقد بذلت كل ما فى وسعى ، ولكننى كما قلت لك : غبى !  
الأب : ( بصوت مرتفع ) لا ، لست غيباً .

الطفل : بل أنا غبى !

الأب : قلت لك : أنت لست غيباً ، يا غبى !

إن أطفالنا حين يعلن الواحد منهم أنه غبى ، أو قبيح أو فاشل ، أو شىء من هذا القبيل - فإن أى كلام من جانبنا لن يغير من وجهة نظره فى نفسه على الفور ، بل هو يقاوم بحدة أى محاولة مباشرة ؛ لكى يبدل من رأيه ؛ بل إن هذه المحاولة قد تزيد تمسكاً بما يراه فى نفسه على أساس أنه أدرى بها ! ولو أن طفلنا الذى سمعناه يصف نفسه بالغباء دار بين أبيه وبينه حوار من لون آخر :  
الطفل : أنا غبى .

الأب : ( بجدية شديدة ) هل أنت مقتنع فعلاً بهذا ؟ هل أنت -  
بصدق - لا ترى نفسك ذكياً ؟

الطفل : لست بذكى على الإطلاق !

الأب : إذن لا بد أنك تعانى فى داخلك من الكثير .

الطفل : فعلاً .

الأب : لا بد أنك فى المدرسة تخاف أموراً كثيرة : تخاف الامتحان

والرسوب و . . لا بد أنك ترتبك حين يستدعيك المعلم لتجيب

عن سؤال ، وربما تعرف الإجابة ، وإذا بالارتباك يجعلك

لا تحسن الإجابة ، وتتصور أن المعلم ينتقدك بقسوة ، وأن

الأولاد يضحكون ؛ لذلك تفكر كثيراً في ألا تقول شيئاً !  
وهذا يجعلك تتصور نفسك غيباً ! أما فيما أرى فإنى أخالفك  
في وجهة نظرك !

مثل هذا الحوار لا يغير من وجهة نظر الطفل في نفسه ، ولكنه يزرع فيه  
بذرة شك فيما يتصوره وقد يقول في نفسه :

- إذا كان أبى يرانى غير غيبى فربما كنت فعلاً كما يرانى .

مثل هذا الحوار فيه الكثير من التعاطف ، وقد يدفع الطفل إلى أن يرتفع  
ليصبح محل الثقة من أبويه وموضعها : فإذا ما قال طفل - أنا لاحظت لى -  
يجب ألا تناقش وتعرض وتشرح لتغير من وجهة نظره ؛ لأن كل حكاية عن  
الحظ الحسن ستقابل بحكايتين من جانبه ، ولكن علينا أن نؤكد له أننا نقدر  
مشاعره التى تدفع به إلى مثل هذا الاعتقاد :

الطفل : أنا سيئ الطالع جداً !

الأب : إذن كلما لعبت مباراة فعلاً قلت لنفسك : « سأهزم ؛ لأنه  
لاحظت لى ! » .

الطفل : فعلاً هذا ما أقوله لنفسى .

الأب : وفى المدرسة إذا كنت مستذكراً دروسك تقول لنفسك : « لن  
يسألنى معلمى ! » .

الطفل : بالضبط هذا هو ما يحدث .

الأب : وإذا لم تستذكر يسألك معلمك !

الطفل : فعلاً .

الأب : إننى أرجو أن أسمع منك أمثلة أخرى على سوء الطالع ؛ لأنى

مهتم بفهم ما تراه سوء طالعك ، وفي كل مرة يحدث معك  
شيء احكه لي ودعنا نناقشه لتعرف : هل كان نتيجة حقيقية  
لسوء الطالع أولاً ؟

ويستمع الأب باهتمام إلى الحكايات ، ولا تتصور أن الحوار سيغير من  
وجهة نظر الابن الطفل ، لكنه قد يقنعه بأنه محظوظ أن يجد أماً يجرى معه مثل  
هذا الحوار ! إذ إن الأطفال لديهم إحساسان متباينان تجاهنا - آباء ومعلمين -  
وكل الذين لهم سلطة عليهم ، إنهم يحبونهم ويضيقون بهم ! وليس هذا  
انفصاماً في الشخصية ، لكنه طبيعي من الطفل تجاه أفراد أسرته . وحتى تنفادي  
من الصراع مع أنفسنا يجب أن يدرك الأطفال أن هذا طبيعي ، وسوف  
يضطرب الطفل لو أنه علم منا أن لديه مشاعر متضاربة ، قد تقول له الأم :  
- واضح أنك تحب مدرستك ولا تحبها ! إنك دائماً برأين : تريد أن  
تذهب للرحلة ، وتريد أن تبقى بالبيت ! تريد ، وتريد . . .

الطفل : لو فهمتني ، ما تصورت أن لي رأين لم أقرر أيهما أختار .  
الأم : بل إنك متردد ، أحياناً تحب صاحبك ، وأحياناً تقاطعه !  
وعلم النفس الحديث يقول : إن إعجابك بشخص يحمل معه مشاعر  
بالحسد . . . وتمتزج عواطف الحب بالكراهية ، والإيذاء بالعدوان ، وهذا كله  
طبيعي ، ولكنهم علمونا أن العواطف السلبية سيئة ، مع أن كل أمر من أمور  
الحياة قل أن يكون خيراً وشرّاً في الوقت نفسه ، وبالذات المعنويات . وبما  
لا شك فيه أن ذلك يؤثر تأثيراً سيئاً في الصحة العقلية والنفسية إذا ما حكّم  
الإنسان عواطفه . مع أن العواطف ميراثنا : التمسكة تعوم ، والطائر يطير ،  
ونحن نحسن ونشعر ، وأحياناً تمتزج مشاعرنا ، ولا اختيار لنا في قضية المشاعر .

أيهما يبرز؟ وما من شيء هنا أفضل من الصدق ! يجب أن يعرف أطفالنا حقيقة مشاعرهم ، معرفة ذلك أجدى من معرفة الأسباب حتى لا يناقض نفسه ، ويجب أن نكون مرآة لأبنائنا فيروا عندنا عواطفهم ، وكما تنعكس صورته في المرآة تنعكس صورة عواطفهم على مشاعرنا ووجوهنا وكلماتنا ، مرآة صادقة يجب أن نكون ، فتقول الأم لطفلها :

الأم : يبدو أنك غاضب جداً ! الظاهر أنك تكره كثيراً هذا الأمر !  
هذه العبارات تفيد الصغير في فهم وإدراك حقيقة مشاعره ؛ لأنها تعكس صورة ما عنده ؛ كما تعكس المرآة صورته . على أننا لا بد أن ندرك قيمة الحوار مع الطفل والحديث إليه : كل كلمة لها معناها وأثرها وتأثيرها ؛ وتبقى دائماً أبداً على صفحة حياة الطفل ، تبقى أبداً !

### امتداح الطفل

الحوار مع الطفل شكل من أشكال الفهم والتفاهم ، والحوار ليس سؤالاً وجواباً. فحسب ، بل يدور بين طرفين ، وقد يشكل صراعاً ، وقد يكون إضافة كبيرة للطفل الذي نستهدف بناءه ؛ لكي يمضي على الطريق إنساناً سويًا مكتملاً ، ولكي يشب قادراً على مواجهة الحياة ، والآن نناقش قضية امتداح الأطفال والثناء عليهم :

• • •

أكبادنا : هل نمتدحهم ؟ هل نثنى عليهم ؟ إن الكثيرين يعتقدون أن المدح يبنى شخصية الطفل ، وأن الثناء يجعله آمناً مطمئناً ، غير أنه قد لوحظ أن

المديح والثناء ينتج عنهما أثر عكسى ! لماذا؟ ربما كانت القصة التى روتها  
واحدة من الأمهات خير ما يوضح السبب ، قالت هذه الأم :

- كنا فى عطلة نهاية الأسبوع ننتقل بسيارتنا إلى نزهة ، أسرنا كلها ، كان  
ابننا الأكبر يجلس فى المقعد الخلفى من السيارة فى صمت وهدوء : يفكر ،  
ويتصرف كملك ، قلت لى نفسى : إنه يستحق كلمة مديح وثناء ! التفت إليه  
وقلت له : أنت ولد رائع . إننى فخورة بك . إنك تتصرف بشكل طيب  
جداً !

ولم تمر لحظة واحدة على كلماتى إلا « ومنفضة السجائر » نثر علينا الأعقاب  
والرماد حتى ما كاد أبوه يتبين الطريق ! ورحنا نسل ، ويدونا فى السيارة كأنما  
نزلت علينا السماء ! وتمنيت فى هذه اللحظة لو أننى أستطيع أن أضربه بكل  
ما أستطيع من قوة ! وكان أكثر ما يضايقنى كلمات المديح التى أسبغتها عليه  
منذ لحظات ! وكان أن خطر لى هذا السؤال :

- هل المديح ضار بالطفل؟

- بعد أسابيع اعترف ابنى بالسرف فيما فعله : لقد كان طيلة الوقت فى  
السيارة يفكر فى سبيل للتخلص من شقيقته الصغرى التى تجلس فى المقعد  
الأمامى بينى وبين أبيه ! وخطر له لو أن حادثاً وقع بالضبط فى وسط السيارة  
لاستراح من شقيقته وبقى ثلاثتنا ! وفى اللحظة نفسها امتدحته على هدوئه  
وتفكيره العميق الذى لم أكن أعلم عنه شيئاً ، وجعله المديح يشعر بالاثم ، وقرر  
أن يثبت لنا أنه لا يستحقه ، فما كان منه إلا أن قذف بمنفضة السجائر على النحو  
الذى رويته !

هذه القصة وغيرها تؤكد أن للأطفال - من حين إلى حين - أفكاراً هدامة

ورغبات مدمرة ، وبالذات تجاه أفراد الأسرة . وعندما يقول الأب :

- أنت ولد لطيف ظريف !

يخس الطفل أنه ليس كذلك ، ولا يتقبل المديح ؛ لأن صورته عن نفسه مختلفة تماماً ! إنه يرى في نفسه شريراً صغيراً ؛ فمذ لحظات تمنى لو أن فم أمه له «سوستة» أو «زرار» يفلقه بها ! وطلب أن يقضى شقيقه الأيام التالية في المستشفى ! وكان يأمل لو كسرت ساق عمته حتى لا تذهب معه للرحلة بأوامرها ونواهيها ! وكلما امتدح زاد في سوء التصرفات ؛ حتى يظهر نفسه على حقيقتها ! والآباء دائماً يقولون :

- إن امتداح الطفل على عمل من أعماله يقلبه على الفور إلى شيطان

رجيم ! فيصبح متوحشاً ويأتى من الأخطاء ما لا يقل لنا باحتماله !

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل امتداح الطفل والثناء عليه أصبح شيئاً بالياً ، تقليدياً ، قديماً ؟ الإجابة : لا ، أبداً ! المسألة : هى أن المديح مثل الدواء : يجب ألا يعطى كيفما اتفق ، بل بحساب ، وبحساب دقيق ! هناك محظورات فى إعطاء الدواء : جرعة أكبر قد تكون قاتلة ، أيضاً التوقيت ، وهناك حسابات من اللوم نفسه بالنسبة للمديح ؛ إذ يجب أن يكون المديح مقصوراً على شىء واحد ، هو : امتداح جهود الطفل وإنجازاته ، وليس شخصيته وصفاته : الأم تستطيع أن تقول :

- شكراً حبيبتى ، لقد أدبتِ عملك كما يجب .

أما أن تصف الأم ابنتها بأنها رائعة وعظيمة وقائمة الصفات المعروفة - فهذا يفسد الأطفال ! كلمات المديح يجب أن تكون مرآة عاكسة لإنجازات وجهود بناءة وحقيقية ، وليست صورة ملونة زاهية الألوان عن شخصية الطفلة

أو الطفل . وليس أفضل من أن نقدم صوراً للمديح الذى يستحقه صاحبه :  
قالت الأم لابنتها :

- كان المطبخ - عقب حفل العشاء - رهيباً ! ما كنت أصدق أنه سيتم  
تنظيفه فى أقل من أسبوع !

الطفلة : لقد بذلت بعض المجهود ، حاولت ..

الأم : كان جهداً ناجحاً ومحاولة رائعة : المطبخ نظيف أنيق الآن !  
شكراً لك ..

الطفلة : عفواً يا ماما ..

كانت ابتسامة الصغيرة عريضة ، وكانت سعيدة بما فعلت وأنجزت ،  
وأمامها المطبخ يشهد بما قامت به ، وبما أدته ؛ ولذلك فالمديح مقابل لعمل ،  
والثناء تستحقه لقاء ما قدمت ! أما كلمات المديح التى يجب ألا تقال فمن  
بينها :

- أنت ولد رائع ..

- أنت فتاة بديعة .. عظيمة .

- أنت ممتازة .. فذة ..

- أنت إنسان متفوق على نفسك ..

هذه عبارات تهدد الطفل ، وتجعله قلقاً ؛ فقد يشعر أنه ليس كما يوصف ،  
أو أنه لا يرتفع إلى هذا المستوى ، ولكى يتواءم هو ونفسه ويخفف عنها العبء  
يقدم فى أول فرصة على سلوك سيئ ردىء ؛ لذلك فإن المديح المباشر أشبه  
بضوء الشمس الساطع المباشر فى العينين : إنه مزعج ويسبب العمى ! ولا أشك  
أنه من المخرج أن نصف شخصاً بأنه رائع وكرام ومتواضع وملائكى ! إنه يشعر

بأن من الضروري أن يستنكر على الأقل جانباً من هذه الصفات ، ويأبى أن يوصف بها ! فإنه لا يستطيع أن يقف ليقول :

- شكراً سيداتي سادتي ؛ إنني أقبل عن طيب خاطر وصفكم لى بأني رائع . . لذلك هو مضطر لأن يتواضع ويتنى عن نفسه بعض هذه الصفات ؛ فإنه لا يمكنه أن يقول لنفسه :

- فعلاً . أنا رائع . قوى . كريم . متواضع . عظيم . . !

وهو لا يتنى المديح فحسب ، بل هو مضطر لأن يعيد النظر في هؤلاء الذين امتدحوه .

لو أنني كنت كذلك بالنسبة لهم فلا بد أنهم ليسوا أذكيا بدرجة كافية . وعلى هذا فيجب ألا يوجه المديح والثناء إلا للأعمال والإنجازات ، لا للصفات الشخصية ، وذلك يعطينا من الحرج ، لأنه ثمرة جهد ونتيجة عمل . . وهذا مثل طيب للمديح :

الأب : كان من الصعب جداً على نقل هذا المكتب الضخم .

الطفل : لقد شاركت في نقله (في فخر) .

الأب : إن ذلك يحتاج إلى قوى ضخمة .

الطفل : أنا قوى . .

لقد لقي الأب مشقة في نقل المكتب ، واعترف بذلك ، وأعطى الابن فرصة ؛ ليتبه ويفخر بقوته . وكان من الممكن لو أنه حاول أن يمتدح ابنه أن يقول له :

- أنت ولد قوى .

الطفل : لا . . أبداً . . هناك أولاد أقوى مني في الفصل . .

إن الأب في المثل الأول أشار إلى صعوبة العمل ، وكان الطفل هو الذي تنبه إلى قواه الذاتية ، أما امتداح الأب للابن فكان يجر إلى حوار طويل . . إن المديح له طرفان : كلماتنا وصددها عند الطفل . . كلماتنا يجب أن تمتدح جهد الطفل : عمله ، إنجازاه ، معاونته ، ابتكاره . . إن كلماتنا يجب أن تكون محددة حتى يستطيع الطفل أن يستنتج منها نتيجة حتمية واقعية عن شخصيته . . إن كلماتنا يجب أن تكون بسيطاً سحرانياً ، لا يسع الطفل نفسه أن يرسم فوقه صورة إيجابية عن نفسه . . فيها قدراته . . إنه يبني نفسه من خلال كلماتنا التي تثني عليه وتمتدحه . . فلا نقول له :

- أنت شاعر عظيم بالنسبة لسنك . .

بل نقول له ببساطة :

الأم : شعرك مسَّ قلبي . .

الطفل : إني سعيد ، لأنني استطعت أن أقول الشعر .

نقد اقتنع بشاعريته من خلال عبارة مديح وثناء بسيطة . . لا مبالغة فيها ولا إسراف . . ولا هي تقع من نفسه موقعاً سيئاً فيرد عليها بعمل سيئ رديء يعيد لنفسه به التوازن . .

## توجيه النقد للطفل

امتداح الأطفال والثناء عليهم ليس خيراً مطلقاً، كما أن انتقادهم وتوجيه نظرهم ليس أقوم السبل للإصلاح . . هذا الانتقاد هو موضوع حديثنا بعد أن ناقشنا قضية الحوار مع الأطفال ، وكيف نأخذ منه أقصى ما نستطيع ، ونفيد منه بقدر ما يمكننا .

\* \* \*

أكبادنا : أحبابنا ليسوا ملائكة . . ولا هم شياطين . . والسؤال الذي يطرح نفسه في مستهل هذا الموضوع الذي يدور حول انتقاداتنا للطفل . . السؤال هو . .

- متى يكون النقد للبناء ؟ ومتى يكون للهدم ؟

لدينا مقياس واضح ! . النقد البناء هو الذي يدعو الطفل إلى عمل يجب عليه أن يعملهُ مُغفِلين تماماً الملاحظات السلبية الخاصة بشخصية الطفل ذاته . . إذا كانت هذه العبارة غير واضحة تماماً فالأمثلة تكشفها لنا وتوضح أبعادها ! . إن طفلاً عمره عشر سنوات سكب على المائدة كوب اللبن في أثناء تناول الإفطار . . قالت له الأم :

- إنك كبرت إلى درجة تعرف فيها كيف تمسك بكوب اللبن ؟ . كم مرة قلت لك إنك يجب أن تكون يقظاً ؟ . . حذراً ؟ .

وقال الأب : إنه لا يمكنه أن يكون كذلك . . إنه مهمل ، وسيظل مهملاً !

إن الابن سكب بضع قطرات من اللبن ، وربما الكوب بأكمله ، لكن ما حدث بعد ذلك يكلف أكثر بالنسبة لفقدانه الثقة في نفسه . . وعندما تقع الأخطاء من الطفل ليس من المناسب تسليط الضوء على شخصيته وسلبياتها . . إذا وقع خطأ فعلياً بعلاج الخطأ ذاته فحسب ، وليس توجيه النقد - شاملاً كاملاً - إلى المخطئ . . وسؤال آخر يطرح نفسه هنا . .

- كيف نتصرف حين يخطئ الطفل ؟

لو أن أم الطفل الذي سكب اللبن على مائدة الإفطار صباحاً قالت :

- إني أرى اللبن قد سقط على المائدة . . هذا كوب لبن آخر . . وهذه

قطعة من القماش تنظف به اللبن المسكوب .

وتناول الأم ابناً قطعة القماش مع كوب اللبن الآخر - فلا شك أن الصغير

يخجل ، لكنها تتشله من الشعور بالإثم لما فعله ، وتعاتبه بالقماشة بمنتهى

الرفقة . . ولا شك أن رده عليها سيحمل شحنة كبيرة من الانفعال . . قد يقول

وهو ينظف المائدة :

- شكراً يا ماما . .

وقد لا تصيف الأم كثيراً إلى ما قيل . . اللهم إلا عبارة قصيرة قد تكون :

- أود أن تكون أكثر يقظة مستقبلاً .

- ولكنها غالباً لن تقول هذه العبارة ، لأنها تحس بامتنان طفلها لما فعلت

معه . .

إن الصراخ على كوب اللبن المسكوب من الممكن أن يفسد اليوم بأكمله . .

والمنازعات والمشاحنات بين الوالدين والأطفال تنشب بين حين وآخر ، وبشكل منتظم . . . ويتصرف الآباء بشكل مهين للصغار . . . وقد يجيب الطفل بكلمة نائية عن الذوق . . . ويتصاعد الخلاف ، الأمر الذى قد يضطر الأب إلى استخدام يده . . . والأمثلة كثيرة . . . ذلك الطفل ابن التاسعة الذى كان يلعب بفنجانة صغيرة !

- سنكسر هذه الفنجانة . . . اتركها ، إنك دائماً تكسر الأشياء !

- لا . . . لن تنكسر . . .

وتسقط الفنجانة لتتكسر فى اللحظة نفسها ، وتذكر كيف ضرب جحا ابنه حين طلب إليه أن ينقل إناءً من مكان إلى آخر . . . وسأله الطفل :

- لماذا تضربنى ولم ينكسر الإناء ؟

ورد جحا : ماذا يجدينى ضربك إذا انكسر الإناء ؟

أما الأم صاحبة الفنجانة فراحت تصرخ وتولول وتشم ابنها ، قائلة :

- يا للهى ! ما أعبالك ! إنك تكسر كل شىء فى البيت . !

- لست وحدى الغبي . . . أنت أيضاً كسرت الزهرية أمس !

- أنت ولد وقع . . . تشتم أمك ؟

- أنت التى قلت : إنى غبي . . . فى البداية !

- قم . . . انصرف . . . اذهب إلى غرفتك فوراً !

وقد يرفض الطفل الذهاب إلى غرفته ، وتحس الأم أنه يتحداها ، وتفقد صوابها ، فتجذبه وتضربه فى غضب . . . وقد يدافع عن نفسه ، ويدفعها فتصطدم بشىء ما ! ربما قطع الفنجانة المكسورة ، وتجرح الأم وتخرج ، وإذا بالدم يسيل يثير نائرتها ، فيجرى الطفل خارج البيت . . . لا ندرى : هل هناك

سيارة مندفعة في هذه اللحظة أو لا؟ .. وربما بقي الطفل خارج البيت لوقت متأخر! . وينقلب البيت رأساً على عقب .. ولا يغمض لواحد من الأسرة جفن في هذه الليلة! .

وهناك سؤال جديد لا بد أن نسأله :

- هل كانت هذه المعركة ضرورية ولا يمكن التفادي منها .. أو أنه من الممكن لنا أن نتناول مثل هذه الأمور العابرة بشكل أعقل وأكثر رزانة؟ كان في استطاعة الأم من البداية إبعاد الفنجانة من يد طفلها .. وكان في مقدورها بعد كسر الفنجانة أن تعاونه في جمع أجزائها المكسورة وتوجهه إلى شيء آخر يلعب به غير الفنجانات .. مع تنبيهه إلى عدم اللعب بالأشياء السهلة الكسر .. لأن في تدميرها خسارة كبيرة .. وقد يعتذر الطفل عن خطئه إذا غاب الصراخ والعيول والضرب . والحق أن الأطفال يمكن أن يتعلموا دروساً كبيرة من أحداث بسيطة وعابرة .. وهم يتعلمون من آباءهم الحدث البسيط ، والمزعج .. والحدث المؤسف والمفجع .. والتفرقة بين هذه كلها .. وكثير من الآباء ينزعجون لبيضه تكسر كما ينزعجون بساق تكسر .. والواجب أن تعلمهم «قيمة» الحدث .. فتقول الأم :

- آه ! . هانتذا قد فقدت كتابك للمرة الثانية ! . هذا شيء مقلق .. الكتب تكلفنا النقود .. وهذه تكلفنا جهداً ووقتاً .. شيء يؤسف له ما حدث ، ولكنه ليس مأساة ! ..

إن فقدت كتاب يجب ألا يفقدنا أعصابنا ! إن قطع قبيص يجب ألا يفلت معه زماننا حتى لا يتحول كل شيء إلى تراجيديا يونانية ! . إن التقد الهدام أشبه

بالسهام المسمومة يجب ألا تسدد إلا إلى الأعداء .. ومن ثم لا توجه إلى الأطفال .. فعندما يقول شخص ما :

- هذا مقعد غير نظيف .

لا شيء يحدث للمقعد في هذه الحالة .. لا هو أخرج ولا هو أحس بالإهانة .. يبقى المقعد كما هو .. أما إذا قيل للطفل : إنه غبي .. أو قبيح .. أو سخيف - فإن شيئاً كبيراً يحدث للطفل : ردود فعل داخلية نفسياً وجسدياً ، ويجرى الغضب والكراهية في دمه .. وتبدأ الرغبة في الانتقام .. وسلسلة من ردود الفعل تجعل من الطفل وأبويه حفنة من اليأس ، عندما يشتم طفل :

الأم : أنت أبله .. عبيط ! ..

الطفل : لست أبله .. ولا عبيطاً !

إنه يرد بأنه ليس كذلك .. وقد يصدق الطفل والديه ويلوذ بالصمت ، وعندما يضحك الطفل لسبب ما يستعيد ما قاله أبواه .. ويبدأ في التفادي من مواقف يتحتم عليه مواجهتها ، وتتم عملية الإحباط .. تماماً مثلما يقال له :

- أنت غبي !

ويسكت .. ويكف عن استخدام مهاراته العقلية ، ويهرب من المنافسة والامتحانات ، لأن الأمر عنده يتركز في «الأ يحاول» .. فيقول لنفسه :

- إذا لم أحاول ، لا يمكن أن أفضل ..

ومن ثم يتوقف عن كل محاولة ، ويصبح رمزاً حقيقياً للفشل والغضب ! ومما يؤسف له أننا لم نتدرب في طفولتنا على استيعاب الغضب ، فإنه حقيقة حياتية يجب أن نتعلمها ، لكنهم قالوا لنا : إنه يجب أن نشعر بالإثم إذا غضبنا ، ونحس بالخطيئة إذا عبرنا عن هذا الغضب ! قالوا لنا : إن الغضب

رذيلة . . ونحن نحاول أن نعبر مع أطفالنا ، لكننا لا بد أن نتفجر لحظة ما . . غير أننا نتصور غضبنا سيضر أطفالنا . . ولكن احتمالنا ضئيل للغضب ولكبحه . . الغضب كالبرد . . قد لا ينجيه . . ولكننا لا نتجاهله . . قد نصاب به ونحاول أن نكتمه ، لكننا لا نستطيع حجب مظاهره . . وقد يستغرق منا لحظة ، ولكنه يبدو أبدياً . . وفي لحظات الغضب قد نتصرف مع أطفالنا بما لا نقوله مع أعدائنا أنفسهم : نصرخ ، ونشتم ، ونضرب تحت الحزام كما يقولون في الملاكمة ! وعندما يتبدد الغضب نلوذ بالصمت شاعرين بالإثم . . إن قضية الغضب مطروحة ، ونحتاج إلى وقفة قد تطول !

### الطفل وغضب الآباء

عرضنا لقضية الطفولة والأسرة والمدرسة والمجتمع . . وتحدثنا عن الحوار مع الأطفال ، كيف يكون ؟ وما ثمرته ؟ وتطرقنا لامتناع الطفل والثناء عليه . وسليات هذا ، وإيجابياته - وناقشنا النقد الذي يوجه للصغير . . والآن نتكلم عن غضب الآباء والأبناء .

• • •

أكيادنا : نغضب منهم ونغضبهم ، وقضية الغضب ، « انظر وراءك في غضب » مطروحة على الساحة الإنسانية منذ سنوات ، منذ ظهرت حركة الغاضبين في أوروبا . وتتساءل دائماً :

- ماذا يفضيهم ؟ ومتى غضبوا ؟ ومتى يكفون عن الغضب ؟

إننا ندهش لبعض الناس يرفعون في متاجرهم لافتة تقول : لا تغضب .

كأنما صاحب المتجر على يقين من أنه سيفضب عميله ، ويطلبه بداية «ألا يغضب» تماماً كما يحدث من الآباء تجاه الأبناء ، والأبناء تجاه الآباء ! إذ كثيراً ما يسود جو الغضب البيت ، فإذا به قائم موحش ! والغضب كالعاصفة ، حقيقة من حقائق الحياة يجب إدراكها والاستعداد لها . والبيت العائلي لا يقوم على تغير مفاجئ في طبيعة الإنسان ، إنما يعتمد على مجموعة من الإجراءات التي تخفف التوتر قبل أن يؤدي إلى الانفجار . . وأن ننصح بعدم الغضب كأنما نلقى البترول في النار لإطفائها ! ولكي نعد أنفسنا لمواجهة الغضب ونحن هادئون علينا أن ندرك ثلاث حقائق :

- يجب أن نتقبل برحابة صدر حقيقة أن الأطفال سوف يثيرون غضبنا .
- إننا نستجيب للغضب وللحظات دون شعور بالإثم أو الخجل .
- من الممكن أن نعبر عن غضبنا بشرط ألا نتهاجم ذات الطفل أو شخصيته .

على أن الغضب درجات ، ويجب أن نعددها حتى ندركها ، ونعرف : هل كنا نتجاوز المعقول والمقبول منها أو لا ؟ فقد يأتي الطفل عملاً بسيطاً يكون صداه عندنا :

◦ الضيق !

إنه أول درجات الغضب ، ويأتي بعده نفاذ الصبر ، ثم يستيرنا ذلك الشيطان ، وتبدأ مظاهر الغضب تبدو ، ويقول الواحد منا :

- إنني أشعر بالغضب .

- إنني أشعر بأنى غاضب جداً . .

وتزداد حدة الغضب ، لتصبح جداً جداً جداً ، وتنتهي بأن يفقد المرء

صوابه غضباً ، وساعتها لاشيء يهدئ من ثأثرته . . وكل درجة من هذه الدرجات للغضب تعتبر صدئ لتصرفات من جانب الطفل تجاهنا ، وقد توقفه درجة منها عن التمدد في العيب . . والحقيقة أن الغضب عاطفة مكلفة ، وباهظة الثمن بالنسبة للآباء ، ولكي تستحق ثمنها يجب ألا تستخدم بدون فائدة ، على ألا تتجاوز حدوداً معينها في ممارسة الغضب . . العذر يجب ألا يكون أسوأ من الذنب ، والعلاج لا بد ألا يكون أسوأ من المرض ذاته . . الغضب يجب أن يتفجر ، ليخفف على الآباء معاناتهم ، ويوقف الأطفال عند حدودهم ، ودون أن يؤثر بشكل سيئ على الطرفين معاً ويدور الحوار .

الأم : ماذا بك ؟

الطفل : أبي غضب عليّ ، وانهاه شتمًا !

الأم : لم ؟

الطفل : كنت أستطيع أن أحتمل ذلك لولا أنه فعله أمام أصدقائي !

الأم : لا بد أنك استأثرته .

الطفل : دافعت عن نفسي ، فازداد غضباً ، وهكذا . .

والحق أننا لا نحتاج إلى موجات من الغضب واحدة إثر أخرى ، بل نود لو أننا استعدنا هدوءنا ، وبددنا الغيوم والسحب التي تعلق سماء علاقات الصغار بآبائهم . .

والحق أن الأطفال يأتون من الأفعال ما يجعل الآباء يخرجون عن طورهم ، وليس هناك أكثر من تلك الشكاوى التي تتصاعد من الأمهات والآباء عما يسببه أكبادنا من أشياء تدفع بنا إلى الثورة عليهم . . تقول أم من الأمهات :  
- عندما أرى الأحذية والجوارب والقمصان وبقية الملابس ملقاة على

الأرض بلا عناية أشعر بالغضب ، وأحياناً أغضب إلى درجة أريد معها أن أفتح  
النافذة وألقى منها بكل هذه الأشياء في الشارع !  
إن ذلك ليس نتيجة تصرف في لحظة بذاتها من الأطفال ، بل نتيجة  
تراكمات تأتي من اللامبالاة ، وعدم الاعتماد على النفس من جانب الطفل .  
وسناقش قريباً علاقة النظام وهذه اللامبالاة المتكررة التي تحيل بيوتنا إلى فوضى  
تثير الغضب بحق . . .

وأذكر أن أباً اضطر لأن يضع برميلاً يليق إليه بكل ما يجده في غير مكانه ،  
وعلى صاحب الشيء أن يقفز بداخله لكي يستعيده . . . وتحول الأمر إلى  
فكاهة . . . وليس كل الناس بقادرين على تحويل الغضب إلى فكاهة !  
وقد نسمع من واحد من الآباء :

- إنه لما يغضبني كثيراً أن أراك تضرب أخاك ! إن تربيته من مهمتنا أنا  
ووالدتك ، لذلك أدعوك إلى الكف عن ضربه بتاتاً . . . إذا أخطأ انقل إلينا  
الأمر ، وسنعاقه بالطريقة التي تترامى لنا ، أما أن تضربه فأغضب وأضربك !  
وهذه واحدة من الأمور التي تستثير الغضب ؛ فإن اعتداء أخ على أخيه  
الأصغر أو العكس تجعل الأب يقوم بدور الشرطي ، وتحاول الأم فض  
الاشتبك ، وكثيراً ما يفقد الأب أو الأم هدوءهما خلال هذه المهمة الثقيلة . .  
على أن قائمة ما يُغضب ما زالت طويلة ، وهي متجددة . . تقول واحدة من  
الأمهات :

- عندما أرى الجميع يندفعون من غرفة الطعام ليشاهدوا التلفزيون  
تاركين كل شيء في منتهى الفوضى والقدارة أحس أنني سأجن ، وأنى أحترق

من الداخل ، وأتصور أن أفضل ما أفعله أن أحمل هذه الأطباق لأقذف بها جهاز التلفزيون . . ليتحطم هذا وذاك !

إن ما تواجهه الأمهات من مشيرات يومية يجعلها مستثارة على طول الخط ، إذ إنها غالباً ما تلقى لا مبالاة قد تصيح جحوداً من جانب الشياطين الصغار من وجهة نظر الأم ، وهذا يدفع بها إلى الضيق والضجر والغضب . . إنها قد تقول :

- إنني أناديكم إلى الغداء منذ وقت طويل . . تكرر النداء ، وبدأت أغضب ! إنني طيلة الوقت الذى قضيته فى المطبخ أعد الطعام كنت أبنى نفسى ، وأقول لها : لقد طهوت طعاماً جيداً ولذيذاً . . يستمتع به الآباء والأبناء وإذا بى بدلاً من أن أنال المديح والثناء أصرخ وأصرخ لكى تمهؤا إلى الطعام ! فلا أجد منكم سوى عدم الاهتمام ! إنكم تتباطئون وتلكثون بصورة تجعلنى أفقد صوابى ، وأقذف بالطعام من النافذة ، أو أتمنى لو أنه احترق فوق النار !

إن هذه الأمور كلها تدفع ولا شك للغضب من جانب الآباء ، ولكننا نريد «تنظيم الغضب» إذا صح هذا التعبير ، تنظيمه وإخضاعه لقدرتنا على الإمساك بزمام الأمور ، بل لعل فى تصرف الآباء هذا درساً للأبناء يتعلمون منه كبح جماحهم . . إن الطفل يجب أن يدرك أن غضبه ليس كارثة تحل بالوجود . . ويجب أن يكون على يقين من أن هذا الغضب يجب أن ينتهى بدون تدمير . . وغضب الأطفال قضية أخرى تحتاج إلى بحث ودراسة ، لذلك نجيناها ، وآثرنا الحديث عن غضب الأبوين . . على أنه لابد لهما من أن يكشفوا للأطفال عن القنوات التى تندفق من خلالها عواطفهم وانفعالاتهم ، وأن يدربا الأبناء

على أساليب تحويل الغضب إلى عمل حقيقي ، وإلى إيجاد البدائل لمشاعرهم  
للمدرة .

### الطفل بين الترغيب والتهديد

من خلال الحوار مع الأطفال نصل أنفسنا بهم ، وقد نحتاج إلى امتداح  
الطفل والثناء عليه ، وقد نضطر إلى توجيه النقد له ، وربما يفلت زمام أعصابنا  
فنغضب عليه ، وخلال كل هذه المرحلة مع أبنائنا - نحن في حاجة ماسة إلى أن  
نكون يقظين لما يجرى بغية بناء الإنسان الجديد ، وهنا تقفز أهمية الترغيب  
والوعيد موضوع حديثنا .

\* \* \*

أكبادنا : في حاجة إلى أن نعرفهم جيداً ، كما أننا في حاجة إلى معرفة  
أساليب التعامل معهم ؛ لأننا في واقع الأمر نتصور أننا خلقنا تربيون ومربين  
بالسليقة والوراثية . وتتردد عبارة على ألسنة الآباء والأمهات تقول :

- لقد ربينا بدون علم نفس وبدون علم تربية ، بل بعضنا ربي على يد أم  
أمية لا تعرف القراءة والكتابة ومع ذلك نجحت !

وينسى هؤلاء العصر وسماته وصفاته ، ينسون أنه كان من الممكن أن تنجح  
هذه الأساليب التلقائية فيما مضى ! ثم من قال بنجاحها ؟ إنهم أصحاب  
مصلحة في تصور ذلك ! نحن نريد أن نربي أبنائنا على العلم في عصر العلم ،  
ويجب أن نتدارس تأثير التهديد مثلاً على الأطفال ، التهديد ، والرشوة ، ثم  
لوعود ! وأيضاً استخدام أسلحة السخرية ! ولا ننسى الكذب والسرقة ،

والكثير . . . ، بل لا ننسى بعض أساليبنا غير المهذبة وغير المؤدبة التي نريد بها أن نجعلهم مهذبين مؤدبين ! لنقف مثلاً عند التهديد . تقول الأم مهددة :

- إذا عملت هذا الشيء مرة أخرى . . .

ويُسقط الطفل كلمة (إذا) من العبارة ، لا يسمعها ؛ بقية العبارة التي تلتصق بذاكرتة - تدعوه إلى أن يعمل هذا الشيء مرة أخرى ! كأنما كنا ندعوه إلى تكراره لا إلى الامتناع عنه ! بل إن الطفل قد يقولها لنفسه بكل بساطة :

- إن أمي تتوقع مني ولا شك أن أفعل هذا الشيء مرة أخرى ! ويجب ألا أفسد عليها توقعاتها !

والحق أن مثل هذه التهديدات - تبدو للكبار معقولة ومقبولة ، ولكنها ليست بلا فائدة فحسب ، بل هي ضارة أيضاً ! إنها تأكيد على أن خطأ ما سيكرر !

إن التهديد في الواقع يصبح تحدياً للطفل : فإذا ما كان يحترم نفسه فإنه لا بد أن يفعل ما منعه عنه مراراً ، ليثبت لنفسه وللآخرين أنه ليس جباناً ولا دمية ! لقد قالت إحدى الأمهات لطفلها :

- إذا تكرر منك قذف النافذة بالكرة فإني سأضربك بشدة وعنف ، ولن أسامحك أبداً !

وبعد لحظات سُمع صوت زجاج النافذة وهو يتحطم دليلاً على أن تحذيرات الأم قد أجدت وأفادت ! وما هو ذا الطفل قد قذف الزجاج بالكرة لآخر مرة !

والمشهد التالي لهذا الذي حدث مشهد متصور ومعروف ومتوقع . إن أمّا

أخرى رأت ولدها يصوب قذائف مسدسه الصغير تجاه شقيقه ، فقالت له  
الأم :

- لا تصوب تجاه الصغير ، صوب على (اللوحه) .

لم تهدد الأم - ولم تتوعد ، لكن ما إن صوب الطفل مسدسه تجاه شقيقه  
حتى قامت الأم وانتزعت اللعبة من يده قائلة :

- قلنا : لا نحاول ذلك مع الصغير ومع الناس !

وانتهى الأمر عند هذا ، لقد تعلم الطفل درساً دون أن تثيره أمه نفسياً  
وداخلية ، عرف أنه إما أن يصوب إلى (اللوحه) أو يفقد لعبته ، وتبادت الأم  
هنا التهديدات المعروفة .

- كُف عن هذا اللعب ، إنك قد تصيب شقيقك ، أليس عندك  
(لوحه) أهداف تصوب عليها ؟ سأضربك إذا لم تكف ! إذا صوت إليه  
مسدسك مرة أخرى ، مرة واحدة فلن ترى لعبتك هذه مرة أخرى !  
الأم لم تقل كل هذا ، ولم تهدد به ، إنما قالت نصيحة لم يستجب الطفل  
لها !

لذا انتزعت اللعبة . والمشهد التالي سهل تصويره : عقاب من جنس  
العمل ! وينتهي الأمر بلا مأساة وبلا صرخ .

والذى يقال عن التهديد والوعيد - يقال عن الوعود : يجب أن نتعلم  
ألا نعد أطفالنا وألا نطلب منهم الوعود ! إن الوعود أصبحت «تايو» أو تيممة  
مسحورة بلا مبرر ! علاقاتنا بأبنائنا يجب أن تبنى على الثقة المتبادلة ، وعندما  
يعد الأب ليؤكد أنه يعنى ما يقوله فإن هذا معناه أنه إذا لم يشفع كلماته

بالوعد فهي مجرد كلمات ، الوعد تبنى توقعات غير واقعية لدى الأطفال !  
إن طفلاً يقول لأبيه مثلاً :

- عدنى أن تذهب بي إلى رحلة يوم الجمعة .  
- إذا وعدتكم بهذا فإنه يعنى أننى على يقين من أن السماء لن تمطر يوم  
الجمعة ، وأن السيارة ستكون سليمة ، وأنى وأنت لن تكون مرضى ! وأن ..  
وأن .. فهل بعد هذا تريد منى أن أعد ؟ .

هذا هو المنطق الذى لا بد أن يسود الوعد ! وطالما أن الحياة تحمل  
المفاجآت فإن الأطفال سوف يشعرون - إزاء عدم تنفيذ الوعد - أنهم  
خدعوا ، وأن آباءهم ليسوا موضع ثقة ! ونحن نسمع عبارة تقليدية من كل  
الأطفال ثمرة لهذا الخطأ الذى نرتكبه تلك هى :

- ولكنك وعدتني يا أبى ! أنت وعدتني يا أمى ! .  
وتكون نعمة العبارة مؤسفة محزنة تدل على مدى الإحباط الذى يعانیه  
الطفل بسبب عدم إنجاز الوعد له !  
وأيضاً يجب ألا تنتزع من الأطفال وعوداً مستقبلية بحسن السير والسلوك :  
إن الطفل فى واقع الأمر حين يعد - لا يفعل أكثر من كتابة شيك بلا رصيد !  
إن هذه الأمور يجب ألا تمارس ضد الأطفال ، وشبيه بها : الإغراء والرشوة !  
يقول الأب والأم :

- إذا ما كنت ظريفاً مع شقيقك الأصغر فساأصطحبك للسينما .  
- إذا ما كفتت عن بل فراشك فساأشترى لك (دراجة) فى عيد  
ميلادك !

- إذا حفظت قطعة الشعر هذه فساأعطيك بعض الحلوى ..

والحق أن (إذا) في التهديد ، (وسأفعل) في الإغراء قد تدفع الطفل إلى المطلوب مباشرة ، ولكنها لا تجعله أبداً متطلعاً مستثاراً إلى بذل جهود دائمة ومتكررة ، لكي يصبح هذا المطلوب منه عادة متأصلة في نفسه ، عبارتنا له : «إذا ، وسأفعل» تجعله يؤمن بأننا نشك في قدراته على التطور والتقدم إلى الأحسن ! قول الأب :

- إذا حفظت قطعة الشعر هذه ..

هذا يعني أننا نشك في قدرته على حفظها .. وقول الأم :

- إذا كففت عن بل فراشك ..

تعني هذه العبارة أنها تعتقد أنه لا يستطيع ذلك ! فضلاً على أن الجوائز أو الهدايا التي تقدم إنمأ هي في واقع الأمر رشوة ! ويقول أحد علماء النفس : إن طفلاً صارحه بالقول :

- إنني أحصل على كل ما أريد من أمي بطريقة بسيطة ، هي أن أجعل أمي على يقين من أنني سوف أكون سيئاً ! إنني مضطر لأن أتصرف بطريقة سخيفة ، ولأن أرتكب حماقات لكي أجعلها تقنع أنها تدفع ثمناً مناسباً لهدوئي المفضل ، وأدبي الذي هو تمثيل في تمثيل !

كانت العبارة مفاجأة ، لكنها تعني الكثير ! إن مثل هذه المواقف تقودنا إلى المساومة ، وإلى الحصول على ما نشاء بالتهديد والوعيد .. وإلى المطالبة بمزيد الهدايا والرشوة في مقابل أن نكون «طيبين» و«هادئين» و«مهذبين» ! بل إن بعض الأطفال أصبحوا يفرضون على آبائهم ألا يعودوا للبيت إلا وفي أيديهم «حاجة حلوة» ! إنهم لا ينجون من جانب الأطفال بعبارة : أهلاً وسهلاً ، بل ..

- ماذا اشتريت لنا يا بابا ؟ هل رجعتِ بالحلوى يا ماما ؟  
إن الهدايا حلوة حين تكون مفاجأة ، وليس معلناً عنها من قبل ! وليست  
ثمناً لأن يصبح الأبناء مهذبين ، وهم لا يصبحون كذلك بالوعيد والتهديد ،  
ولا بالوعود ، ولا بالرشوة ! إنها بالتربية والمعاناة ! هذه وحدها القادرة على  
خلق مواطن سوى .

## الطفل والكذب

تحدثنا عن امتداح الطفل والثناء عليه ، كما ناقشنا النقد الذي يوجه إليه ، وتكلمنا عن الطفل بين التهديد والوعيد من جانب ، وبين الإغراء والترغيب من جانب آخر ، ونحطو إلى واحدة من قضايا الطفولة البالغة الأهمية : ألا وهي «الكذب» ، وهو أمر يجب أن نناقشه في بقطة .

\* \* \*

أكبادنا : يكذبون ! هي حقيقة مؤكدة ، الآباء والأمهات يغضبون لهذا ، وخاصة إذا كانت الكذبة كبيرة وواضحة ! إنه ولا شك شيء مثير أن يكذب طفل ويصر على أنه لم يلمس الألوان ، ولم يأكل قطعة الشيكولاتة ، مع أن آثار الألوان والشيكولاتة واضحة على ملابسه ووجهه ! والسؤال الذي يطرح نفسه دائماً :

- لماذا يكذب الأطفال ؟

أحياناً يكذبون ، لأنه لا يسمح لهم بقول الصدق ! لنفرض أن طفلاً قال :

- أنا لا أحب أخي الصغير هذا !

من المتوقع أن تضرب الأم طفلها على قوله هذا ، قوله الصدق ! وإذا ما التفت هنا وهناك وأعلن هذه الكذبة المدوية :

- أنا أحب أخي الصغير هذا !

عندئذ قد تعطيه أمه قطعة حلوى مكافأة له ، وقد تقبله ! والسؤال هنا .  
- ما الذى يستنتجه الطفل من هذين الموقفين ؟ ومن هذه التجربة ؟  
إنه قد يستنتج أن الصدق يضر ، والكذب يفيد ! وقد يتصور أن أمه تحب  
هذه الأكاذيب الصغيرة ! فإذا كنا نريد أن نعلم أطفالنا « الأمانة » مع أنفسهم  
ومعنا - فإنه من الضروري أن ندرب أنفسنا على الاستماع إلى بعض الصدق  
المر !

إن الطفل الذى نريده أن يشب أميناً صادقاً يجب ألا يشجع على قول  
الكذب ، أو على قول ما يرضينا ، وبالذات بالنسبة لعواطفه ، إن انعكاس  
كلماته هذه علينا هو ما يقنعه بأن كل الخير فى الصدق ، إن الأطفال حين يعاقبون  
على قول الحق - يكذبون دفاعاً عن النفس ! وهناك أسباب أخرى لأكاذيب  
الأطفال : قد يقول أحدهم :

- لقد تلقيت فيلا حقيقياً هدية بمناسبة عيد ميلادى .

إن الطفل هنا يكذب ليحقق بالخيال ما يعجز عن تحقيقه فى الواقع ، إن  
الأكاذيب هنا تقول الصدق فيما يتعلق بالخاوف والآمال ، إنها تكشف ما يريد  
أن يكون أو يفعل ، بل إن الأكاذيب تكشف ما يريد الطفل أن يخفى ، وإن  
كل كذبة من الأطفال تحتاج منا إلى معرفة معناها وفهم أبعادها بدلاً من رفض  
محتواها ! ، إن المعلومات التى نحصل عليها من الكذبة قد تساعدنا على  
استخدامها فى تدريب الأطفال على أن يفرقوا ما بين الحقيقة والخيال ! الطفل  
قال :

- لقد تلقيت فيلا حقيقياً هدية بمناسبة عيد ميلادى .

- طبعاً ، قصدك أنك كنت ترجو وتتمنى لا أنك تلقيت فيلا حقيقياً  
بمناسبة عيد ميلادك ، إنها تكون هدية طريفة !

والآباء في واقع الأمر مطالبون بالألّا يسألوا أسئلة يضطر معها الطفل إلى أن يكذب دفاعاً عن نفسه ، وخاصة أن الأطفال يقاومون استجابات الآباء ، وبالذات عندما يعتقد الأطفال أن آباءهم يعرفون الرد من قبل ، ولا حاجة بهم للإجابة ، إن الأطفال يكرهون الأسئلة التي تشكل كميناً لهم ، تلك الأسئلة التي يرون أنفسهم فيها محيرين ، أو مضطرين إلى أن يختاروا بين كذبة محرّجة ، وبين اعتراف مخجل : كسر أحد الأطفال بندقيّة أهداها إليه أبوه وأخفى البندقيّة في مكان ما ، وحدث أن اكتشف أبوه ذلك ، وانفجر في مجموعة أسئلة :

الأب : أين بندقيتك الجديدة ؟  
 الطفل : لا أدري ! هي في .. هي في مكان ما ..  
 الأب : إنني لم أرك تلعب بها .  
 الطفل : لأنني لا أعرف أين هي ؟  
 الأب : ابحث عنها ، أريد أن أراها ..  
 الطفل : ربما سرقها بعضهم !  
 الأب : أنت كذاب ، كذاب ! لقد كسرت البندقيّة ، وإذا كان هناك في الوجود من أكرهه فهو الكذاب !

وضرب الأب طفله ضرباً شديداً موجعاً ، ضربه لكسر البندقيّة ، وإلخفاء قطعها ؛ وضربه أعنف بسبب كذبه ، وكانت هذه معركة لا مبرر لها ! وبدلاً من أن يتحول الأب إلى محقق ومستجوب وخصم وحكم - كان يجدر به أن يكون أكثر احتفاليةً بابنه ومساعدة له : كأن يقول له :

- إنني رأيت بندقيتك مكسورة ، إنها لم تعش طويلاً ، إنه لشيء يؤسف له ؛ فإنها غالية العنن !

ومن خلال هذه الكلمات الموجزة المركزة كان يمكن الطفل أن يتعلم بعض دروس قيمة أنه سيعترف بينه وبين نفسه بالكثير .

- أبن يفهم ، ويدرك ، ويقدر ! إننى أستطيع أن أصارحه بمشاكلى ، وبما بضايقتى ، وبجدري أن أحافظ على لعى .

إن موقفنا من الكذب واضح : يجب ألا نلعب دور المستجوب والمستنطق الذى يطلب من طفله اعترافات كاملة ، ويجب أيضاً أن نسمى الأشياء بأسمائها : فإذا وجدنا رف الكتب الخاص بابننا وقد علته كتب كثيرة فعلىنا أن نفكر قبل أن نسأله . .

- هل أعدت كل الكتب المستعارة إلى المكتبة ؟ هل أنت واثق ؟ إذن لماذا

امتلاً الرف بالكتب ؟

بدلاً من هذه العبارات التى تدفعه للكذب علينا أن نقول عبارة واحدة

كافية :

- لقد اكتظ الرف بالكتب ، إنه يحمل فوق طاقته !

وإذا ما عاد إلينا الطفل من المدرسة التى أبلغتنا أنه لم يوفق فى امتحان

الحساب فعلىنا ألا نسأله :

- هل نجحت فى امتحان الحساب ؟ هل أنت واثق ؟ إن الكذب لن

يفيدك فى هذه المرة ! لقد تحدثنا للمدرسة وعلمنا أنك رسبت فى الحساب !

بدلاً من هذا علينا أن نخبر الطفل مباشرة :

- إن معلم الحساب أخبرنا بأنك لم توفق فى الامتحان ! إننا قلقون وبودنا

أن نجد شيئاً لمساعدتك فى هذه المادة .

إننا بهذا لا نرهق الطفل ونستثيره للدفاع عن نفسه بالكذب ، ولا نفتتح له

الباب ، لكى لا يقول الصدق ! وعندما يكذب الطفل يجب ألا يكون رد

الفعل من جانبنا هستريًا وأخلاقياً ، بل واقعياً وحقيقياً ! إننا نريد من طفلنا أن يكون على ثقة من أنه لا حاجة به إلى أن يكذب !

مثلاً : عادةً يعود بعض الأطفال بأشياء لا يملكونها يأتون بها من المدرسة ، وعندما يكشف الأمر يجب ألا يتحول إلى مأساة مدهمة : بل علينا أن نقولها له في حسم :

- هذا القلم خاص بزميل لك ! أعده إليه فوراً !

- هذا القلم ليس لك ، أرجعه لصاحبه !

وإذا امتدت يد الطفل لقطعة حلوى من متجر ووضعها في جيبه فعلينا أن نقول في حسم :

الأب - هذه الحلوى ستبقى في مكانها ! أعدها .

ولا تشتتها أبداً أو تدفع ثمنها ! وإذا ما أنكرو وجودها نكرر عبارتنا ، وإذا لم يستجب فعلينا أن نخرجها من جيبه ونعيدها إلى مكانها ، وإذا ما حصل على نقود من البيت نتصرف بالطريقة نفسها :

- أعد النقود إلى مكانها ! حين تحتاج إلى نقود اطلبها !

وإذا ما أنكرو نستعيدها ، وإذا كان قد أنفقها نخصمها من مصروفه ، ولا نقول له : إنه كذاب . . . ولص وإن نهايته ستكون السجن ! ولا نضغط عليه بسؤاله : لماذا أخذتها ؟ وربما هو نفسه لا يعرف ! ونحن بهذا نفتح له الباب لكذبة جديدة بل نقول له :

- كان الأجدد بك أن تناقش معي احتياجاتك من النقود !

وإذا ما أكل الطفل قطعة من الكعك أو المرعي ، وظهرت آثارها (شارباً) تحت أنفه - يجب على الأم ألا تقول له :

- هل أخذ أحد كعكة ؟ هل رأيت من أخذها ؟ هل أكلت واحدة منها ؟ هذه الأسئلة تدفع الطفل دفعاً إلى الكذب والقاعدة هي :  
« إذا كنت تعرف الإجابة فلا تسأل عنها » .  
ومن الأفضل أن تقول بصراحة :  
- أنت أكلت الكعك . . طلبت إليك ألا تفعل ، إني غاضبة !  
هذه العقوبة كافية ، إنها تترك الطفل غير مرتاح ، وتحمله المسئولية بهذه الصورة ، وسوف يغير من سلوكه .

## التهديب بطريقة مهذبة

كلنا نريد أن يكون أبنائنا مهذبين ، غير أننا كثيراً ما نلجأ إلى أساليب غير مهذبة من أجل ذلك ، وننسى أن القدوة هي الأساس في هذا المجال .. وهي تحتاج منا إلى لباقة وقدرة على ابتكار الوسائل والأساليب التي تخلق من أبنائنا أطفالاً مهذبين .

• • •

أكبادنا في ميسر الحاجة إلى « التأديب والتهديب والإصلاح » وهذه العبارة ولاشك قد سبق أن صكت آذانكم من قبل مرارا ، لأنها تستخدم شعاراً لبعض السجون ! ولا نظن أننا نريد أن نجعل أحياءنا يعيشون وراء القضبان بلا ذنب ولا جريرة ! إن التأديب والتهديب في الواقع صفة شخصية وعلاقة اجتماعية ، سلوك فردي ومهارة مع المجتمع ! والطفل يحصل عليها من خلال أبيه ، وأسرته ومدرسته ، ومجتمعه ، ومن خلال القدوة التي نريد أن تكون حسنة ، ولكن الوالدين كثيراً ما يحاولون تعليم أولادهم الأدب بلا أدب ! ويحاولون تهذيبهم بطريقة غير مهذبة حين ينسى الطفل عبارة : شكراً . حين ينسى الطفل مثل هذه العبارة يشير إليهم الآباء أمام الآخرين : أن هذا « قلة أدب » . وهذه الإشارة في ذاتها ليست من الأدب في شيء ! إن الآباء

أحياناً يذكرون أبناءهم بعبارة عليكم السلام قبل أن يقولوا هم : السلام عليكم !

قدمت هدية لطفل صغير ملفوفة ، وبكل حب الاستطلاع راح يحاول انتزاع اللفافة من حولها ليرى ما فيها ! صاحت الأم :

- ما هذا الذى تفعله ؟ ستفسد الهدية ! ماذا يقول الإنسان المهذب حين يتلقى هدية ؟

ويرد الطفل بغضب شديد : شكراً .

وتهتف الأم : أنت ولد ظريف !

الواقع أن الأم كانت تستطيع أن تعلم الطفل هذا الدرس فى الأدب بطريقة أكثر أدباً ، وأقل عنفاً ، وأقوى تأثيراً ، كان فى استطاعة الأم أن تقول : - اشكر عمك على الهدية الجميلة التى يمكن أن نفتحها فى البيت ، ستجد فيها مفاجأة طريفة !

ولقد كان من الممكن أن يقول الطفل شكراً من تلقاء نفسه ، وإذا لم يقلها فإن فى استطاعة « ماما » أن تذكره بها ، أو أن تنبهه إلى خطئه فيما بعد ، إذ إن الهدية يمكن أن تشغله عن كلمة الشكر ، ومن الممكن أيضاً أن تقول الأم حين تخلو لطفلها :

- لقد كان ظريفاً لطيفاً من عمك أن تذكرك بهذه الهدية ، ماذا لو أننا بعثنا إليها ببطاقة جميلة نشكرها على الهدية ؟ إنها ستسعدنا كثيراً ، وتجعلها دائماً تفكر فيك ، وتعتقد أنك تستحق هذه الهدايا !

والذى يحدث كثيراً فى مثل هذا المجال تلك المقاطعات التى يقوم بها الأبناء حين يتحدث الكبار بعضهم إلى بعض ، والأطفال لا يراعون موضوع تسلسل

الأفكار لدى المتحدثين ، ولا يدركون سخافة تصرفهم إذا ما قطعوا الحديث !  
والنتيجة ورد الفعل الذي يحدث من بعض الآباء مزعج بحق : بعضهم يقولون  
في عنف وقسوة :

- لا تكن وقحًا ، إنه من سوء الأدب أن تقاطع !

ويخرج الصغير حرجًا بالغًا ، مع أنه من الواضح أن مقاطعته أيضا فيها سوء  
أدب ! والأدب لا يفرض سوء الأدب أو قلته ! إن الآباء يجب أن يلتزموا  
الأدب في عملية تعليم أبنائهم الأدب ! ومن الضروري أن يدرّب الآباء أنفسهم  
على مثل هذه الأمور ، وأن تكون لديهم عبارات رقيقة جاهزة لمثل هذه  
المواقف ، كأن يقول الأب :

- بودى يا عزيزى أن أكمل حديثي أولاً ، ثم نعطيك الكلمة ، ويأتى  
دورك .

إنه لمن الواضح أنه لا يفيدنا في شيء أبدًا أن نشتم الأطفال بكلمات نابية :  
كالوقاحة وقلة الأدب إن هذه الكلمات لا يمكن أن تجعله يدخل دائرة المهذّبين ،  
والمشكلة أن الطفل قد يتقبل هذا التقويم من جانب الأب ، ويصبح جزءًا من  
الصورة التي يرى عليها نفسه ! وإذا ما اقتنع الطفل بأنه سيئ الأدب وقع -  
فسوف يلازمه ذلك الاقتناع طويلا ، وسوف يكون من الصعب اقتناعه من  
نفسه ! بل قد يتأدى فيه فإنه من الطبيعي أن يتصرف الطفل الوقح بوقاحة :  
تقول الأم ضاحكة :

- تصرفاتك هذه تصرفات واحد وُلِدَ في غابة !

الطفل : ماذا تقصدين ؟ هل أنا واحد ممن يسكنونها ؟

الأم : ربما ! على كل أنا أتحدث عن تصرفاتك فقط .

هذا التناول المرح لتصرفات الطفل سيكون معاونًا للأم على منح طفلها التوجيه بروح حلوة مقبولة ، وخاصة في الزيارات العائلية التي تشكل بالنسبة لبعضنا عبئًا ، إنها عبء على صاحبة البيت بسبب عبث الصغار ، وعبء على الأم لحجلها من تصرفات طفلها في حين يجب أن تكون هذه الزيارة ممتعة وبهيجة وحلوة للجميع ، للزائرين ، وللأسرة التي يزورونها ! ومن الممكن أن يترك الأمر في هذه الزيارة لمسئولية ربة البيت . وللطفل ذاته :

الأم : كف عن الضجيج .

الطفل : إتنا نلعب .

الأم : لن آتي بك معي مرة أخرى !

هذا هو الحوار التقليدي الذي يحدث بين الأم وطفلها حين يزوران صديقة أو قريبة . وكثيرا ما يتبادل الطفل وأمه عبارات بعضها حاد ، وبعضها قاس ! وتفسد الزيارة في حين أنها أسلوب رائع للتربية ولتحميل الطفل جانبًا من المسئولية وتدريبه على خلق الصداقات واللعب مع الآخرين ! ويستوى الأطفال في الزيارات اختيار مكان للعب غريب ! وليس للضييفة أن تعترض . إنما هذه مهمة المضييفة أن تختار للصغير المكان المناسب ، وتضع له القواعد التي عليه أن يسير عليها بدون تدخل من جانب الأم .

الأم : كف عن القفز على المقاعد ، إنك ستكسر المصباح ، تعال هنا .

الطفل : لماذا لم تتركيني في البيت أفضل ؟

الواجب هنا أن ندع للضييفة ما هو مسموح وما هو ممنوع . إنها أقدر على ذلك من الأم التي يجب ألا تنسى أن الزيارة فرصة انطلاق لصغيرها يحقق فيها ذاته وخاصة أن الأطفال يستجيبون أكثر حين توجه إليهم التعليمات من الآخرين

وليس من الأم والأب ! إن الأم قد تحدد الأمور بشكل قاطع قائلة :

- هذه هي التعليمات هنا ، هذه قوانين ، أفهم ؟

الطفل : نعم أفهم .

الأم : القانون لا بد أن يسود !

إن هذا قد يحدث حين تتفق الضيفة والمضيفة على الحدود المرسومة سلفاً. إن المضيفة أحق بوضع التعليمات والحدود . إنها صاحبة البيت . إنها ربة في هذه اللحظة . ويجب على الضيفة ألا تعطي نفسها حقوقاً أكبر داخل بيت مضيفتها حتى بالنسبة لطفلها . ولكن لا بد للأم أن توضح لطفلها حقيقة الموقف بالكامل . على أن تقول هذا في رقة وأدب شديدين .

ولن أنسى ذلك الأب الذي راح يلقى لابنه محاضرة طويلة حول : ( أن

الحلم سيد الأخلاق ) .

الأب : الحلم هو كبح جماح الغضب . يجب ألا يعت الزمام منك !

الطفل : لماذا تغضب أنت إذن يا أبي ؟

ويرد الأب بغضب شديد : أنت طفل وقع غير مهذب !

ترى . بالله عليكم كيف يمكن الأب أن يتصور أنه يعطي ابنه درساً في الحلم

بالكلمات . في حين أنه كقدوة يفقد أعصابه . ويسب ويشتم لأقل عارض ؟

إن الأدب يجب أن يتعلم بالأدب ! إن التهذيب يجب أن يقدم بطريقة

مهذبة . وإلا ..

## تعلم المسؤولية

أكبادنا : في حاجة ماسة إلى تعلم المسؤولية ، والأمهات والآباء يبحثون في دأب شديد عن أفضل السبل لتدريب الصغار على تحمل المسؤولية ، وفي كل البيوت ترتفع أصوات تقترح الحلول لهذه المشكلة .

\* \* \*

إننا بين حين وآخر نستدعيهم من أجل أعمال بسيطة صغيرة ، فتقول الأم :  
- أرجوك : من فضلك قم بتسوية فراشك .

وقد نطلب من الأبناء أموراً أخرى ربما يضيقون بها ، وخاصة أنهم لا يرون في الآباء قدوة لهم في هذا المجال ، كأن تناشدهم الأم في رقة :  
- يودى أن تساعدني يا عزيزي في المطبخ ! وتقوم عنى بغسل الأكواب ،  
والصحون !

على أن البعض يتصور أن تكليف الأبناء بهذه الأمور تدريب من أجل إرساء بعض الأسس لتحمل المسؤوليات ، غير أن ذلك مع الأسف ليست له آثار إيجابية لخلق روح الإحساس بالواجب ، بل قد تحدث في بعض البيوت بعض المعارك اليومية نتيجة القيام بهذه الأعمال التي لا غنى عنها في المنزل ، وهي ربما تجلب الضيق والشجر والغضب للطرفين : الآباء والأبناء ! إن الفراش سيتم ترتيبه والأطباق ستغسل إذا أطاع الأبناء ، لكن شيئاً من الضيق والمرارة ربما علق بنفسية الأبناء ! والشئ الواضح هو أن « المسؤولية » لا تفرض من الخارج ، إنما تنمو من الداخل ، ويتم ترشيدها بالقيم التي بالبيت والمجتمع ،

وليس أيسر لدى الأبناء من تبرير أخطائهم حتى يفلتوا من العقاب ! يقول الأطفال :

١ - ليست مسئوليتي أن كُسر الكوب ! لقد انزلق من يدي !  
٢ - الكرة ضاعت ، لم تكن غلظتي أن ركلتها بقدمي ، ف وقعت في سيارة نقل منطلقة بسرعة !

٣ - ما ذنبي ؟ الأمر لا يتعلق بي ، إنه خطأ شقيقى !  
وتحمل المسئولية إذا لم يكن قيماً إيجابية وأخلاقيات سليمة سوية - قد يثمر مخربين وأعداء للمجتمع ، فليس أقدر من رجال العصابات على تحمل المسئوليات ! بل أن بعضهم مثل عصابات ( المافيا ) يتحملون المسئولية ولو ضحوا بحياتهم في سبيل ذلك ! وهم يطيعون الأوامر ببساطة وتلقائية . ويعينون أسرزملائهم المسجونين ، على حين أننا نريد لأبنائنا أن يكونوا أشخاصا مسئولين عن الخير والحق والجمال !

إن المسئولية يجب أن تكون تجاه الحياة والحرية وسعادة البشر : قال عضو في جماعة الكشافة :

- إنى مسئول عن أداء واجب فيه الخير يومياً ؛ كما تقضى تعاليم الكشافة ، وقد نجحت وزميلان لى فى الأخذ بذراع رجل أعمى ليعبر الشارع .

- ثلاثة يساعدون شخصاً واحداً على عبور الشارع !  
- نعم ، إنه لم يكن يريد أن يعبره . أجبرناه على أن يتلقى المساعدة !  
إن بعضاً يتصورون أن المسئولية وتحملها يكون على هذا النحو المرح الفكه ، كما أن بعضاً يراها فى سوء ترتيب غرفة الأبناء ، وعدم أداء الواجبات الدراسية المنزلية ، والانقطاع عن ممارسة فن يستهوى الصغير كالموسيقى ، بجانب الحصول

على درجات ضعيفة في الاختبارات المدرسية ، ولكن الطفل قد يحتفظ بفرقة مرتبة ، ويؤدي واجباته المدرسية بإتقان ، لكنه يتخذ برغم ذلك - قرارات غير سليمة ! وهؤلاء هم الأطفال الذين يتلقون دائماً أوامراً !

- عليك أن ترتب غرفتك وتنهي واجباتك وإلا فلن تذهب للسينما ! إن هؤلاء الأطفال محرومون من ممارسة الحكم على الأمور ، ومحرومون من الاختيار ، ومن ثم محرومون من خلق الإحساس الداخلى بمسئولياتهم ! نحن نعطي الأبناء تعاليم وأوامر كثيرة .

والواقع أن رد الفعل الناتج عن هذه الأوامر غاية في الأهمية ، وعليه يتوقف ما نريد أن يتعلمه الأبناء منا من خلال هذه الأوامر ، فالقيم لا ترسخ بطريق مباشر ، إنها تستوعب ، تمتص ، تنمو ، لتصبح جزءاً من شخصية الطفل ، ويتأني هذا من خلال تعرفه للقيم بالقدوة ، يقول الطفل :

- سأكون شجاعاً مثل أبي ..

- لن أكذب أبداً ، سأكون صادقة كأُمي .

وعلى ذلك فالقيم ، ومشكلة المسئولية - ترجع للآباء ، وإلى قيمهم وأخلاقياتهم من خلال ممارسات الطفل . على أن سؤالاً هنا لابد أن يطرح نفسه :

- هل هناك ميول معينة وممارسات بذاتها يمكنها أن تخلق لدى الطفل الإحساس بالمسئولية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال هي موضوع حديثنا المقبل ، وغرس المسئولية في نفوس الأطفال تبدأ من منطلق ميول الآباء ورغباتهم ومهاراتهم ، ومن المهم في هذا المجال أن نسأل أنفسنا هذا السؤال :

- هل نسمح لأبنائنا أن يعيشوا مشاعرهم الحقيقية وأن يعبروا عنها ؟ إن على الآباء أن يقدموا لأبنائهم طرقاً وأساليب مقبولة تتفق مع مشاعرهم ، والواقع أن جيل الآباء فيما مضى كان يريد أن يتحكم في كل شيء حتى المشاعر ! لانهم أنفسهم لم يكن في استطاعتهم أن يجاروا مشاعرهم العارمة : فإذا ما واجهتهم مشاعر الأبناء العنيفة بذلوا كل جهد لكتبها ، أو إنكارها أو تجميلها ؛ وهم يستخدمون كلمات وعبارات ناعمة لا يمكن أن تعين أو تساعد على حل هذا الموقف ، إنه مثلاً يستنكر قول الطفل : إنه يكره أخاه . فيقول :  
 - لا أظنك تعنى ما تقول ! مما لاشك فيه أنك تحب أخاك كل الحب !  
 وقد يحاول الأب أو الأم نفي الأمر ، كأنما لا يصدقانه ، يقول الواحد منها :  
 - لا ، لا لست أنت الذى يتحدث ؛ إنما هو الشيطان الذى يتقمصك ،  
 ويضع على لسانك هذه الكلمات !

وربما يبذلان جهداً خارقاً لكتب الشاعر ، كأن يقول الواحد منها في عنف :

- إذا كنت تعنى كلمة « الكراهية » فسوف أذيقك ضرباً لم يحدث من قبل ! إن الولد المهذب لا يمكن أبداً أن يحس بمثل هذه المشاعر البغيضة !  
 وقد يحاول الأب أو الأم تخفيف الأمر ، فيهمس في ثقة العالم :  
 - أنت فى الواقع لانكره أخاك . ربما ضقت بتصرف له ، إنك يجب أن ترتفع وتعلو على هذه المشاعر والأحاسيس !

ومثل هذه العبارات تتجاهل فى واقع الأمر حقيقة المشاعر الإنسانية ، إنها كالنهر لا يمكن إلا أن يظل دافقاً جارياً لا يتوقف ! كل ما هناك أنه من الممكن تحويل مجراه ! إن المشاعر العنيفة أشبه بنهر يفيض ، ولا يمكن إنكارها أو

التخفيف من عنفها بالكلمات ، أو اعتبارها كأنها لم تكن أولاً وجود لها ! لأن ذلك يعنى كارثة محققة ، ولا بد لنا من تقدير حجمها الحقيقي لمواجهةها بكل الاهتمام ، وترويض الأبناء والأنهار يثرى حياتنا ، ويضيف إليها الخير والضياء ، لكن مازال السؤال قائماً :

- ما الخطوات التي يمكن أن نتخذها ، لنضيق الهوة بين الأهداف المرغوب فيها والممارسات الحياتية اليومية ؟ وأين نبدأ ؟ .

تكن الإجابة عن هذا السؤال في ضرورة عمل جدول ، وبرنامج زمني قصير المدى ، وآخر طويل المدى للجهود المبذولة ، ولا بد أن ندرك إدراكاً كاملاً واضحاً أن تكوين شخصية الأبناء يعتمد إلى حد كبير على العلاقة بين الآباء والأبناء ، وهذا التكوين للشخصية لا يتم بالكلمات ، بل لابد من إصرار في البرامج الطويلة المدى - على الاهتمام بتفكير الأطفال وأحاسيسهم الداخلية ، وليس بمجرد مظاهر التفكير وذلك الإحساس ، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحالة :

- كيف نتيقظ ونتنبه إلى ما يفكر فيه الأطفال ، وما يشعرون به حقيقة ؟ إن الأطفال يعطوننا مفاتيح لهذا ، وإن مشاعرهم تنكشف من خلال الكلمات التي ينطقون بها ، وطريقة ونغمة نطقهم لها ، كما تتضح من إشاراتهم وملاحظتهم ، وكل ما نحتاج إليه هو أن نفتح عيوننا وآذاننا جيداً ! بل أن نفتح قلوبنا ؛ لنحس بهم ونشعر بحقيقة ما يعتدل بداخلهم من فكر وإحساس !

يجب أن يكون هدفنا وشعارنا ودافعنا - أن نحاول الفهم ، وأن نعبر عن هذا الفهم دون أن تسرع في الحكم أو التقدي ، مثلاً : لو عاد طفل من المدرسة

مكتئبًا صامتًا بطيئًا - نستطيع أن نستنتج لأول وهلة أن شيئًا ما قد حدث ،  
فعلينا ألا نبدأ بعبارات نقدية مثل :

- مالك متجهم الوجه ؟

- ماذا بك ؟ ماذا فعلت هذه المرة ؟

- ما المشاكل التي تسببت فيها اليوم ؟

- هل تشاجرت كالمعتاد وصديقك ، وتبادلتما اللكمات ؟

إذا كنا مهتمين بردود الفعل الداخلية لدى الطفل فلا بد أن نستبعد مثل هذه  
العبارات التي تثير في نفس الطفل الكراهية والبغضاء التي تجعله يتمنى لو أن  
العالم كله يسقط ميتًا مدمرًا !

فعلى الآباء بدلًا من هذا أن يقولوا عبارات أخرى مثل :

- يبدو أن شيئًا سخيفًا قد وقع اليوم !

- من الواضح أن يومك لم يكن نظيفًا .

- أكان يومًا قاسيًا ؟

- الظاهر أنك قابلت في يومك بعض المضايقات !

هذه العبارات أفضل بكثير من أخرى تتساءل في لطفة وجزع وقلق :

- ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

إن الأسئلة تعنى حب الاستطلاع ، أما العبارات ففي مضمونها العطف  
والمشاركة ، وما من شك في أن الطفل يعرف ويتعلم من « الحياة » أنه إذا أدرك  
أن ما يوجه إليه انتقاد له - فلن يتعلم تحمل المسؤولية ! إنه ينطوى ساعتئذ على  
نفسه ، ويحمل الآخرين الأخطاء ، ويبدأ يشك في سلامة تصرفاته وفي  
قدراته ، كما يشك في نيات الآخرين ، ويتعود أن يعيش في انتظار دائم

للاحباط والمبطلات وكل ما يحول بينه الانطلاق للتدرب على تحمل  
المسئولية !

## كيف تكسب طفلك

أكبادنا : قد تثار بيننا وبينهم حروب معلنة أو غير معلنة حول قضية  
المسئولية ، ويجب أن يكون الآباء على ثقة من أنهم لن ينتصروا أبدًا في مثل هذا  
اللون من الحروب مع أبنائهم !  
إن الأطفال لديهم وقت أطول ، وطاقة أكبر لمقاومتنا مما لدينا نحن الآباء  
والأمهات ! وحتى لو أننا كسبنا معركة ونجحنا في فرض إزادتنا - فإن رد الفعل  
لهذا أن يصبح أبنائنا مخربين ومنحرفين وغاضبين دائمًا ، لكن هناك سببًا واحدًا  
للفوز ذلك هو .

- على الآباء والأمهات أن يفوزوا بأطفالهم ويكسبهم إلى جانبهم .  
وقد تبدو هذه المهمة مستحيلة أو من الصعوبة بمكان ، لكن الواقع أنها  
ممكنة ومقدور عليها ، ونستطيع فعلاً النهوض بها ، حتى لو لم يكن لدينا في  
الوقت الحاضر علاقات من صداقة وود مع الأطفال - فإنه من الممكن أن نبني  
مثل هذه العلاقة في المستقبل القريب ، ويستطيع الآباء أن يحددوا تغييرات  
عميقة وجذرية وإيجابية في أطفالهم إذا هم تحملوا مسئولية أوليه هي :  
- أن يسمع الآباء للأبناء في انتباه ويقظة وحساسية .

ما أشد ما يتمزق الأطفال عندما لا يبدى الآباء اهتمامًا كافيًا بالاستماع إلى  
أبنائهم ، وإلى أفكارهم وخواتمهم ، وأحاسيسهم ومشاعرهم ! ونتيجة لهذا

فإنهم يتصورون أن أفكارهم غبية تافهة ولا تستحق الاستماع إليها ولا تستأهل الاهتمام بها ، وإلا كان الآباء قد أعاروهم آذانهم ؟ وقد يتطور الأمر إلى الشعور بأنهم هم أنفسهم مرفوضون وغير محبوبين ، ولا ينتظر أن يحبهم آباؤهم ! والأب الذى يصغى لطفله يشعره بأهميته وبقيمة أفكاره ومقترحاته وأنها تلقى منه الاحترام ، وذلك يقدر أفكاره ذاتها ويحترمها ويمعن فيها ، ويزداد ثقة فى نفسه ، وهذا بدوره يجعله أكثر قدرة على التعامل مع العالم والأحداث من حوله .

هذا ما نحتاج إليه أولاً : أن نستمع للأبناء .. أما الأمر الثانى فهو :

- تجنب ما نسميه « العنب المر » المتمثل فى التقذ والتعنيف والتجريح ! إن الآباء يجب أن يتفادوا من الكلمات والعبارات التى تخلق الشحنة والبغضاء مثل هذه الشتائم :

- أنت إهانة لمدرستك ولأسرتك ! ولا أريد أن أتصور أنك تنتمى لها ! ومثل هذه الشتائم جارحة ومفزعة ، ويضاف إليها النداءات بالكلمات التى تمس الأبناء ، وترسب فى أعماقهم بشكل يصعب محوه !

- أنت برغم رأسك الكبير أبه عبيط ! هذا رأس يصلح لـ .. لـ .. ثور !! وربما يتأذى البعض ، فيقدم بعض تصوراته للمستقبل بالنسبة للأبناء فيروح يقول :

- سوف تنهى بك الأمور إلى السجن ! أؤكد لك أن هذه ستكون نهايتك ! وقد يلجأ بعض الآباء إلى الوعيد والتهديد دون أن يدركوا أثر ذلك !

- إذا لم تهدأ وتستقر فسوف أمتع عنك مصروفك لمدة أسبوع !

وكثيرون يتجهون إلى إلقاء التهم إلى الأبناء دون تحييص ولا روية .

- إنك دائماً البادئ بإثارة المشاكل ، أنا أعرفك جيداً ..

وأحياناً يصرخ الأب ، أو الأم ، فى الطفل :

- اخرس ؟ واسمعى ، عندى أمر لابد أن أقوله لك ..

هذه المواقف التى هى إهانات وشتائم ووعيد وتهديد وصرخات وتعنيفات -

« عنب مر » يترك طعماً مرّاً على لسان الأطفال ! وإذا كنا قد ركزنا على ضرورة

أن يستمع الآباء للأبناء ، وألا يوجهوا إليهم هذه الكلمات والعبارات - فإننا

يجب أن نشير إلى الأمر الثالث الهام الذى نحتاج إليه فى تعاملنا مع الأطفال ،

وذلك هو :

- إننا يجب أن نعبّر عن مشاعرنا وأفكارنا دون هجوم وانتقاد .

فى المواقف المثيرة الصعبة يكون الآباء أكثر تأثيراً عندما يعبرون عن

أفكارهم ومشاعرهم دون أن يهاجموا الطفل وشخصيته وكرامته ويجب ألا

نعتبر - كما قلت فيما مضى - الغضب كحقيقة ثابتة فى الحياة ! وعندما يستمع

الآباء إلى أبنائهم باهتمام ، ويتجنبون المقاطعة والتعليق على كل عبارة ، ويعبرون

عن آرائهم بلا إهانات - فإننا لابد أن نتوقع من الطفل تغييراً ملحوظاً ؛ إن جو

التعاطف يجتذب الأطفال ويقربهم إلى آبائهم . وسيزيد ذلك من ميلهم إلى

التعقل والهدوء ! ولكن ذلك لن يحدث فجأة وبين عشية وضحاها ؛ وإنما

يحدث تدريجاً ، ويطء ، ولكنه يحدث حتماً ، ولاشك أن الأب فى تربيته

الاتجاهات وممارسته لها سوف يخلق لدى طفله الشعور بالمسئولية .

على أننا لا يمكن أن نفعل أن هذا الشعور يخلقه الطفل بنفسه ومن خلال

مجهوده الخاص ، ويبقى الآباء قدوة ومساعدين ، لكنى تكون المسئولية جزءاً من

شخصية الطفل ، ومن أجل هذا من الضرورى أن نقرر على وجه التحديد : أى

مسئوليات محددة نعطها الأطفال في مراحل نموهم ونفصّلهم المختلفة ؟ فهم لا يولدون وقد تشكل لديهم الإحساس بالمسئولية ، ولا يكتسبونه تلقائياً .. إنه مثل تعلم العزف على « البيانو » يأتي تدريجاً ، وعلى مدى سنوات طويلة ، ولكننا نفاجأ بأننا أمام عازف. ماهر نتيجة التدريب المستمر على الممارسة وعلى الاختيار والانتقاء خلال سنى العمر مرحلة بعد مرحلة ، كل مرحلة بما يناسبها .

إن تدريب الأطفال على تحمل المسئولية يمكن أن يبدأ في سن مبكرة جداً ، والسبيل إلى ذلك أن نسمح للأطفال أن يقولوا كلمتهم وأن يدعوا اختيارهم في الأمور التي تمهم .

وهناك أمور ولاشك يجب أن يتحمل الطفل مسئوليتها بالكامل ، وأخرى يستطيع أن يعبر عن رأيه فيها ، فإننا نرفض أن يكون الطفل مهملاً وبمجرد « دمية » في يد الآباء والحد الفاصل بين ما يتحمّله الآباء وما يتحمّله الأبناء - يجب أن يكون واضحاً ، وألا يعبره أى طرف ، وما أصعب تحديد المسئوليات ! والفكاهة العالمية تقول :

- إني لا أخلف أنا وزوجتي أبداً ، هي تهتمّ بالمسائل البسيطة العادية !  
- ما هذه المسائل ؟

- أن أستقبل من عملي ! أن نغير البيت والأثاث ! أشياء من هذا القبيل !

- إذن : ما مسئولياتك أنت ؟

- المشاكل الكبرى : الشرق الأوسط ، الغذاء العالمى !  
ولسنا نريد أن تكون المسائل بهذه الطريقة ، فلا مسئولية على طرف ، على

حين أن كل المسؤوليات الأسرية المترتبة على الطرف الآخر ! بل لابد من توزيع عادل للمسئوليات ، في تقاسمها الآباء والأبناء فيما يختص بهذه الأجيال التي لا تريد أن تحمل عنها كل العبء ، فثقب وهي غير مدربة على تحمل المسؤولية ، ولا نريد لها أن تنوء بالعبء قبل الأوان ! والدراسة المتأنية للمجالات المشتركة في المسؤولية بين الأب والابن ستثمر خطوطاً واضحة محددة . والسؤال المطروح :

- ما مجالات المسؤولية وغرسها لدى الصغار منذ نعومة أظفارهم ؟ وما الفاصل ما بين مسؤولية الكبار وواجب الصغار في كل مجال من هذه المجالات ؟ ليس أيسر من الرد على هذا السؤال إذا ما راجعنا تلك الاحتياجات الأساسية للأطفال ، وهي تتركز بداية في الطعام والملابس ، ثم تندرج تحت الاحتياجات أمور المدرسة والتعليم والتربية في سن تالية ، وتأتي من بعدها أمور الهوايات . ولا يفوتنا اللعب ولا اللعب . ولا بد أن نهتم بموضوع مصروف الجيب للطفل وحجمه ، وأسلوب إنفاقه ! وهناك كذلك اختيار الأصدقاء بجانب التعامل مع الآخرين ، وتربية الحيوانات ، إلى آخر هذه الأمور ، إلى أن نصل إلى ساعات الخروج وحدهم ، وأمور من هذا القبيل ، ولا يتصور أحد أن هذه القضايا بسيطة ، فهي في منتهى الأهمية والحيوية ، وعليها يتوقف الكثير في مجال غرس المسؤولية لدى الطفل حتى تنتهي كلمات ( اللامبالاة ) ، و ( الأناملية ) و ( الهروية ) من حياة الأجيال الجديدة !

## الشعور بالمسئولية

أكبادنا : في حاجة لكي نغرس فيهم الشعور بالمسئولية - إلى تحديد واضح لواجبهم ، والواجب تجاههم في مجالات بذاتها ، وأمور يتعين علينا أن نستمع إلى وجهة نظرهم فيها فحسب ، على أن نشاركهم فيها بالرأى إقناعاً وافتناعاً .

\* \* \*

- حتى الطفل الذي يبلغ من العمر عامين فقط علينا أن نسأله :
- عزيزي ، هل تريد الكوب مملوءاً اكله باللبن أو تريد فقط كوباً صغيراً ؟
  - والطفل الذي لا يتجاوز أربع سنوات من الضروري أن نسأله :
  - هل تريد يا عزيزي البيض مسلوقاً أو تريده مقلباً في الزبد ؟
  - والطفل وهو في السادسة يجب أن نسأله :
  - هل تفضل يا عزيزي البطاطس أو الفاصوليا في غداء اليوم ؟
- إن الأطفال يجب أن يوضعوا في مواقف عليهم من خلالها أن يتدربوا على الاختيار ، فإنه ينبنى عليه معرفتهم لأذواقهم ولأنفسهم ثم على الآباء أن يخلقوا ويختاروا « الموقف » وعلى الأطفال أن يحكموا فكرهم ليختاروا ويتحملوا مسئولية ما اختاروه ، ولكن علينا أن نتنبه أنه يجب علينا ألا نسأل الصغير :
- ماذا تريد لطعام إفطارك ؟
  - بل يجب أن نساعدته بطرح السؤال بشكل آخر هو :
  - هل تريد البيض مسلوقاً ، أو مقلباً ؟ هل تريد « كاكأوا أو شايا باللبن » ؟ هل ترغب في كوب من العصير أو اللبن ؟

إن الصغير ليس في مقدوره أن يقرر لنفسه إفطاره بالكامل ، يجب أن تقدم له من المقترحات ما يختار بينها تيسيراً وتسهيلاً له ، ولتتحمل مسؤوليات أبسط ، وعلى قدر ما أمحنا له من حق ، من الضروري ألا يكون الطفل متلقياً للأوامر فحسب ، بل مشاركاً في القرارات التي تشكل حياته !

ولابد أن يتلقى الطفل من الآباء وسائل واضحة كل الوضوح ، فيقال له :  
- إننا نقدم الشاي والحنان ، كما تقدم اللبن والكعك ، والاختيار مسئوليتك ! إن الكثير من مشاكل التغذية تخلفها الأمهات اللاتي يبدن اهتماماً زائداً بمزاج أبنائهن ، ويتدخلن في ذوقهم ، ويفرضن عليهم ألواناً بذاتها من الطعام والخضروات ، بل يحددن أى الخضروات بالضبط تفيد جهازاً بذاته ! ومن المفيد للطفل ألا يكون لأمه وجهة نظر محددة في الطعام ! إن عليها أن تقدمه فحسب لطفلها ، وعليه أن يختار من بينه ، ويأكل الكمية المناسبة لشهيته والتي يحتاج إليها ، وهذا لا يناقض الطب والعلم ؛ فالطفل يختار وفق احتياجاته ولاضير من تركه يتحمل المسؤولية ! على الأم أن تقول بحزم :

- هذا هو الغداء ، كُلْ .. وكن يقظاً إلى أنه لن يُقدّم لك سواه حتى يحين

وقت العشاء ؟

إن بعض الأبناء يأكلون وجباتهم على مدى اليوم كله ، ويحفظون بعض ألوان الطعام في فترة ما بين الوجبات ، فإذا حان وقتها انصرفوا عنها ، وبعد قليل ترتفع أصواتهم مطالبة بالأكل ! وهنا نستطيع أن ندرّب الأبناء على تحمل مسؤولية خطئهم ، قد يقرصهم الجوع ، لكنه سيكون أستاذاً لهم ، وعلى يديه يلتقون درساً رائعاً في التنظيم والمسئولية ! ونحن نواجه من أبنائنا بنفور من ألوان معينة من الطعام فبعضنا يقصرهم ويفرض عليهم تناولها ، وبعضنا يدعن للصغار

فلا يقدمها لهم ، وكل من الموقفين غير سليم : فلا القسر مفيد ، كما أن الإذعان للأطفال ضار ! وعلينا أن نسعى جهدنا لمعرفة سر النفور لإزالته .. قالت طفلة لاتبج اللحوم لأمها :

- أكلنا ليس حلواً ، طعام خالتي أفضل !

وكانت الطفلة قد بقيت عند خالتها لفترة امتدت بعض الوقت لسفر الأسرة ، وعندما سألت الأم شقيقتها عن سر إعجاب الابنة بطعامها قالت الخالة :

- لاحظت أن ابنتك لا تميل لأكل اللحوم ، لذلك وضعنا « مفرومة »

في الخضر !

ولم تنتبه الصغيرة لذلك ، وأكلت اللحم - الذي تضيق به - أكلته

« مفروما » بكل الرضا !

والتحليل هنا مطلوب وميسور ، ومحل الكثير مما يواجهنا في قضية الطعام !

ونحن نناقشه هنا في إطار تحميل الصغير المسؤولية وليس لذاته ؛ فالطعام بالنسبة

للأطفال ليس كل شيء ، وليس بالخيز وحده يعيشون !

ويأتى موضوع الملابس تابعاً للطعام في تدريب الأطفال على المسؤولية

وتحملها !

ففي شراء الملابس للصغار ، نحن الكبار نتحمل مسؤولية أي شيء يحتاجون

إليه ، والميزانية التي نستطيع أن نخصصها لهذا الاحتياج ، وفي المتجر نختار الكثير

من العينات تدخل في إطار الاحتياج والميزانية . وللطفل أن يختار ما يريد أن

يلبس من بين هذه العينات .. تقول الأم :

- انتق يا عزيزي ألوان القمصان التي تريدها من هذا المعروض عليك !

هذه العبارة من الممكن توجيهها لطفل عمره ست سنوات ، إنه يستطيع أن ينتقى جوربه وقصانه وغير ذلك من الملابس ! وهناك مجتمعات لاتمنح الصغير هذا الحق ، وتفرض عليه ذوقها ، وهو بذلك لا يتدرب أبدًا على اختيار ملابسه ، وقد يكبر معه هذا الأمر ، فبرى نفسه دائمًا معتمدًا على آخرين ! وما أكثر ما يصطحب الرجال معهم أمهاتهم ، أو زوجاتهم ليخترن لهم ! والحق أن موضوع الملابس يجب أن يستوقفنا بعض الوقت ، لأنها أضحت كرنفالًا ! والعصرية تأتي فيها كل يوم بجديد من (الموضة) ، والسؤال :

- ماموقفنا - نحن الأمهات - من هذا الذي يجري في أسواق الملابس عالميًا ؟ لا فارق كبير بين ملابس الأولاد والبنات ، ولا الرجال والنساء ! الألوان صاحبة مجنونة ، ولا مقياس لما يجب أن يلبس أو لا يلبس ! المقياس الوحيد هو (الموضة) ! وهى تتجدد بسرعة لا تكاد نلحق بها !  
نقولها بكل بساطة ووضوح : « تراثنا خير دليل لنا ، يجب ألا ننسى عمر بن الخطاب حين وزع على كل واحد من المسلمين مترين من القماش ، وصعد المنبر يومًا يرتدى جلبابًا كاملا ، قال له أحدهم :

- من أين لك هذا ؟ أنت أطول منا وتلبس ثوبًا كاملا .. كيف تأتي

هذا ؟

ويقول عمر : اترك هذه .. ويصر الرجل ، فينادى عمر بن الخطاب ابنه عبد الله ، ويقول له : قل لهم يا عبد الله : من أين أتيت بثوبى ؟ ويقول الابن : ( تنازلت ) يا قوم لأبي عن ثوبى ! هذا هو أمير المؤمنين ولباس أمير المؤمنين ! فلا نسرف في تكديس بيوتنا بالثياب ، ولا نحول أطفالنا إلى مسخ وكرنفالات ، ومضحكين في سيرك بملابسهم الطاووسية ! ونلقى بها بعد أن يلبسها الصغير مرة

أو مرتين ، إنه بذلك يتدرب على الإصراف ! إن تدريب الصغير على المسئولية يطالبنا بأن يكون اختيار الثياب جزءاً من هذا المران ، وذلك التدريب واختياره لثيابه خلال رحلة أو زيارة أو لأية مناسبة علينا أن نعرض عليه ما لديه من ثياب :

- اختر ما تلبسه لتخرج به إلى السينما .

- انتق ما تريد ؛ لتستقبل به عمك حين تزورنا .

ويجب أن نرفض منه عبارة تقول :

- ألبس أى شيء ! اختارى لى أنت يا أمى ، كله يستوى ..

إن عبارة كهذه قد تكون سبباً فى التشنعة التى تقول : «كله عند العرب ..» إن الاختيار ذوق ، ومسئولية وفن ! وعلينا أن ندرّب عليه أكبادنا ، وهو مسألة ليست هينة ولا بسيطة : تدلنا على ذلك تلك الحكاية الشعبية القديمة التى يحكون فيها عن رجل طلب منه أن يقطع بضع شجرات فى غابة ، ومنحوه أسبوعاً ، وقطعها فى يوم واحد ، وفى المرة التالية طلبوا إليه أن يقطع مجموعة أشجار فى أربعة أيام فقطعها فى نصف يوم ، وقالوا له :

- أنت رائع ! سنعطيك فرصة لكى تستريح ونعطيك عملاً سهلاً ، هذه الكمية من الثمر : راجعها واختر منها الجيد : ضعه فى سلة ، والباقي فى سلة أخرى .. ستنتهى من هذا فى ساعتين .

ورجعوا إليه بعد يوم ليجدوا السلة أمامه ، ولم يفرز أكثر من ربعها ! سألوه : ما هذا ؟ أجابهم : إن لدى مشكلة أن أختار بين الجيد وبين ما ليس جيداً ، وهذه مسألة صعبة ، قطع الأشجار مسألة جهد لا يحتاج إلى اختيار وحكم ! ومن هنا نرى صعوبة تدريب الأبناء على الاختيار وتحميلهم هذه

المسئولية ! إنها أصعب من قطع أشجار الغابة ، ولتكن البداية مع الطعام  
والثياب ، وتتلو ذلك أمور أخرى أكبر إلى أن نتمى عند الصغير حاسة الحكم  
على الأمور ومواجهة المسئولية ، وتحملها والمضى بها قدماً نحو النجاح . وليصبح  
كل منهم فى مستقبل حياته « مسئولاً » وهى كلمة نطلقها دائماً على هؤلاء الذين  
ينجحون فى حياتهم ، ويتصدون لمهام الأمور !

## الواجبات المدرسية

أكبادنا في ميسس الحاجة للتدرب على تحمل المسؤولية صغارًا ، حتى لا يهربوا منها كبارًا وحتى يواجهوها في كل نواحي حياتهم حاضرًا ومستقبلًا .  
وعرضنا للطعام والملابس كوسيلتين ، فمن خلال اختيار الطفل لها في مقدورنا أن نعلمه الاختيار : فثًا ، وذوقًا ومسئولية . ومنذ اليوم الأول الذي يذهب فيه الطفل للمدرسة يجب علينا أن نفهمه أن واجباته المدرسية مسئوليته وحده مع معلمه !

\* \* \*

ولست أنسى الطفل الذي قال للفتاة التي تساعد في أعمال البيت ، قال :  
- أنا سأنام ، اعملى الواجب : اكتبى الكلمات بخط واضح ، ولا تنسى الحساب !

وانفجرت الأسرة ضاحكة ، وبعد الضحكة تكتشف حقيقة مرة : أن الطفل يهرب من مسئولياته ! . ونحن نرى أنه يجب أن تنفض الأم والأب أيديهما من مسئولية الواجب المدرسى الذى على الطفل أن يقوم به في البيت ، عليها ألا يراجعا الصغير ، وألا يساعدها فيه مساعدة تهدم الهدف منه ! نعرف أن المعلمين يخالفون هذا الرأى ! يقول واحد منهم :  
- إن الأسرة يجب أن تشرف على الواجبات المنزلية بالمدرسة ، إنها

مدرسية ومنتزلة في الوقت ذاته ، إنها رمز للتعاون بين البيت والمدرسة !  
ولكننا نرى أنه يجب ألاّ تتدخل الأسرة في الأمر اللهم إلا إذا طلب إليها  
الطفل المساعدة والمعاونة لا أكثر ولا أقل ! وإذا ما أخذت الأم أو الأب على  
عاقته القيام بأعباء الواجبات والدروس المنتزلة - فإنها ستصبح قيّدًا لا يمكن  
الفكاك منه ! إن الواجبات المنتزلة قد تصبح سلاحًا في يد الصغير يعاقبنا به . أو  
يهددنا أو يستغلنا عن طريقه ! ومثل هذه المأساة يجب أن نتفادى منها ، وإننا  
لنضيف للبيت متعة غالية لو أن الآباء لم يبدوا اهتمامًا كبيرًا بالتفاصيل الخاصة  
بالواجبات المدرسية ، بل إنهم يؤكدونها باستمرار ، فيقول الأب :  
- الواجبات المنتزلة مسئوليتك وحدك يا عزيزي ، إن مثل مسئوليتك عنها  
كمسئوليتنا عن عملنا !

يجب عدم المبالغة في قيمة الواجبات المنتزلة المدرسية في السنوات الأولى  
وهناك مدارس كثيرة لاتنقل أبنائها بالواجبات ، ويبدو أن الأطفال الذين  
ينطلقون بعد الظهر أحراراً يفكرون - يحصلون القدر نفسه من الثقافة والخبرة  
الذي يحصله هؤلاء الذين تنقل كاهلهم بالواجبات المنتزلة وهم في السادسة أو  
السابعة من العمر !

على أنه يجب أن يكون واضحًا أن الواجبات المدرسية تعطى من أجل شيء  
واحد ، هو تدريب الأطفال على تحمل المسئولية وحدهم ! والأسرة يجب أن  
تساهم في حصول الأطفال على هذا التدريب : ولهذا يجب أن يكون الواجب  
المنتزلى على قدر طاقة الطفل ، ليعمل فيه مستقلا معتمدا على نفسه ، بمساعدة  
يسيرة متواضعة من الآخرين إذا طلب الصغير ، لأن المساعدة الكاملة تشعره  
بأنه ليس بالكفاية الكافية للقيام بهذه المسئولية ؟ ولتكن مساعدتنا كالتالى :

- أعتقدك اليوم واجبات مدرسية يا عزيزي ؟
  - حفظ قرآن كريم ، وخمس مسائل في الحساب وإملاء .
  - بأي شيء ستبدأ ؟ فكر وعندما تحتاج إلى لأمل عليك قطعة الإملاء
- تعال .

ويجب أن نسمح له في البيت ببعض الانطلاق واللعب بعد فترات الجلوس الطويلة على مقاعد حجرات الدراسة ، لا بد أن نوزع معه الوقت ما بين الواجبات واللعب ، ونوزع الوقت بين الواجبات ذاتها ؛ كما يجب ألا يفوتنا أن نمنح الإذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما جانبًا من وقت الصغير ، وبعض الأطفال يحبون أن يكونوا بجانب الكبار في أثناء قيامهم بعمل واجبه المترق المدرسي ، ولا مانع من ذلك بشرط ألا يكثر الكبار من الملاحظات حول طريقة جلوسه أو نظافة الطفل أو أناقته مظهره ؛ فالتظاهر بالإنهاك في شيء آخر في هذه الحالة أفضل ! إن بعض الأطفال يستوعبون أكثر لو أنهم داعبوا شعرهم أو هزوا مقاعدهم في أثناء الجلوس ! وتعليقاتنا عليهم وملاحظاتنا تضييهم بمزيد من التشتت والفرق والتعب ! وكذلك علينا ألا نقاطعهم بأسئلة أو استفسارات يمكن تأجيلها ، بل إننا نظل موجودين - غير موجودين لمجرد المساندة أو المساعدة إذا طلبت ، ويجب ذلك بدون تعليقات أو أوامر إليهم ! قد نشرح لهم كلمة أو عبارة ، ونفادى من عبارة مثل :

- لولا أنك شخص مشته ، لعي - لأمكنك أن تتذكر دروسك !  
وعليتنا ألا نبادره بقولنا :

- لو أنك استمعت إلى مدرسك جيدًا لاستطعت أن تؤدي واجباتك  
المتزلية بسهولة !

إن مساعدتنا للطفل يجب أن تكون بلا تشكيك في قدراته ، وبلا تأنيب ،  
بل بركة وحنان !

يجب أن نسمعهم ولا نحاضرهم : أى لا نلقى عليهم المحاضرات ! إن علينا  
أن نريهم الطريق ، وعلى الرحالة أن يمضى إلى هدفه معتمداً على نفسه ! وموقف  
الآباء من المدرسة والمعلم ينعكس ويؤثر في موقف الطفل من دروسه المنزلية ،  
فإذا امتدح الأب المدرسة ، وأعلن عن رضائه عن المعلم - ساعد هذا في تبني  
الطفل لواجباته المدرسية المنزلية ، وساعد على أن يهتم بها ! فإذا كان المعلم  
صارماً فعلى الأب أن يكون حنوناً عطوفاً ، فيقول للابن :

- يبدو أنه عام دراسي محتشد : المواد كثيرة ، البرنامج طويل ، لا بد أن  
معلمكم يطلب منكم الكثير ويطلبه بحزم ! يجب أن ترضيه مهما كانت  
الواجبات التي يعطيك إياها كثيرة وطويلة ! على كل فائدتها لك ، وليست له !  
وفي استطاعتنا مساعدة الأبناء بالحزم إذا كان المعلم متساهلاً ، ولا يعنى  
الحزم تلك الأوامر والنواهي التي نلقى بها للأبناء كلما رأيناهم :

- استذكر ، لن نسمح بفتح التلفزيون أبداً ولو يوم الخميس والجمعة !  
عليك في كل يوم أن تستذكر ، رتّب ساعات بعد الظهر وفق جدول خاص  
للاستذكار وإلا فلن تنجح !

هذا أسلوب في واقع الأمر مرهق ومنفر للصغار ، ويدفعهم بعيداً عن  
دروسهم وعن واجباتهم !

إن الواجبات المدرسية المنزلية كثيراً ما تسبب نزاعات أسرية يمكن التفادي  
منها ؛ إذ إن تطويرها قد يصل بهم إلى أسوأ العواقب ! : ولدنا أمثلة لما تقوله  
بعض الأمهات أو الآباء :

- يا عزيزي ، أنا تعبت .. لا أستطيع أن أمضى في تذكيرك يوميًا  
 بواجباتك المدرسية ، هات كل كتبك وكراساتك لأعرف مدى خيبتك في  
 دروسك إننا لن نسمح أبدًا بولد خائب فاشل في الأسرة يفضحنا !  
 إن التهديدات اليومية المستمرة ، وتذكير الأبناء بالواجبات المدرسية المنزلية  
 كثيرة في مجتمعنا وعادية ، والآباء والأمهات يشكون لضيوفهم من الأبناء  
 ويبادلهم هؤلاء الشكوى ! وواقع الأمر أن هذا كله لا جدوى منه ولا فائدة !  
 بل هو يسيء ويضر ! هو يخلق جرحًا من النكد والشد والجذب ! ويخلق آباء  
 متوترين وأبناء غضابًا يهربون من المسؤولية ، في حين أن هذه الواجبات المنزلية  
 المدرسية وجدت للتدريب على تحمل المسؤولية !

### الاستدكار

أكبادنا في حاجة للتدريب على ممارسة المسؤولية ، والواجبات الدراسية التي  
 يعطونها لإنجازها في البيت تدريب رائع على هذه الممارسة ، إلا إذا عرقلناها نحن  
 عن طريق الأسرة ! إن كثيرين من الأطفال الممتازين نجدهم - كنتيجة جتمية  
 لطموح الآباء والأمهات وثمره لضغطهم المستمر - أقل مستوى مما نتوقع ! بل  
 قد يفشلون بسبب إحساس داخلي عميق بهذا الإرهاب الواقع عليهم !

\* \* \*

يقول الأب :

- نابليون عندما كان في عمرك - كان يسبقك بستين أو ثلاث سنوات !  
 موزار وهو في السابعة من عمره وضع سيمفونية ! علي بن أبي طالب نام في

فراش سيدنا محمد في شجاعة وهو في سن أصغر من سنك يا خائب !  
وينسى الأب أن نابليون في سنه هو كان قائدًا لفرنسا ، وأنه شخصيًا - أى  
الأب - لم يضع سيمفونية لا وهو في السابعة ، ولا وهو في السابعة والعشرين  
أو الثلاثين ! كما أنه لم يقف عمره كله موقفًا شجاعًا كذلك الذى وقفه على بن  
أبى طالب ! وإنما لسقطه أن « نعاير » أبناءنا « ونقارن » بينهم وبين هؤلاء أو  
بينهم وبين أنفسنا نحن الآباء والأمهات ! ويجب ألا يقول الأب للابنة :  
- انظري ! يجب أن تكوفى مثل ماما !

وعلى الأم ألا تطالب ابنها بأن يكون مثل ( بابا ! ) إنه - أى هذا الصغير -  
يجب أن يشب وهناك قدر كاف من الاستقلال والذاتية عن الأب والأم ! إنه  
ليس صنفًا ولا ضرورة لصبه في قالب معين .. وعندما تبدى الأسرة اهتمامًا مبالغًا  
فيه بالشهادة الدراسية النظرية - نصف السنة وغيرها - فهى بذلك تسبب  
للصغير تمزقًا كبيرًا ، إنه إذا لاحظ أن الدرجات التى يحصل عليها ماهى إلا  
جواهر وأحجار كريمة توضع على جبين الأبوين - ساعتئذ يفضل الطفل أن يعود  
بأحجار وغطيان زجاجات هى على الأقل خاصة به ! إن الطفل يفشل في تحقيق  
رغبة أبويه كرد فعل ، وثورة عليهما وكرغبة في فرض استقلاليته ! يقول الأب :

- هذه الدرجات من أسوأ ما حصلت عليه في عمرك !

- ذلك كل جهدى !

- لا أبدًا ! كان في مقدورك أن تحصل على أكثر

- لو كان في مقدورى لفعلت !

- لن أوقع عليها ، قل لهم في المدرسة : إنى رفضت ذلك !

وينفجر الصغير باكياً ، وقد يرجو أمه ، وربما تقبل التدخل ، ويستمر

النقاش الذى ينتهى دائماً بأثر نفسى غائر عميق فى نفس الصغير ! وهكذا فإن الحاجة للاستقلال قد تدفع الصغير للفشل معها بلغ ضغط الآباء وتهديدهم له ! وقد قالها صغير فى وضوح :

- إنهم قد يستطيعون أن يمنعوني من مشاهدة التلفزيون ، وقد يمنعون عني مصروفي ! ولكن لن يمنعوني من الحصول على درجات سيئة فى الامتحانات ! ولن يمنعوني من الرسوب فى الحساب الذى لا أطيعه .

هذه هى النتيجة ، وهى فى واقع الأمر كارثة محققة ! ومن الواضح أن مقاومة التعليم ورفض الدروس ليس مشكلة يسيرة الحل ، بل هما أمر بالغ التعقيد إن زيادة الضغط يمكن أن تقابل بزيادة فى المقاومة من جانب الأطفال ؛ كما أن الحرية المطلقة للطفل قد تعنى قبول التهرب من المسئولية وعدم مواجهة الواقع ! والحل ليس سهلاً ولا هو سريع ! إنما هو معاناة طويلة ، ولكنها من أجل شيء يستحق ، وأمر له خطورته ! بعض الأطفال قد يحتاجون إلى « علاج » نفسى لحل مشكلة صراعهم مع آبائهم ! ولكي يكسبوا القدرة على الإنجاز وليس العكس ، وذلك لا يتأتى إلا إذا اقتنعنا واقتنع الطفل بأنه شخصية مستقلة لها كيانه الخاص بها وذاتيتها المتفردة ! إن عبارة كهذه يجب أن تقال للصغير :

- أنت يا عزيزى مسئول عن نجاحك وفشلك ، لن ينسب لى نجاحك ، إنه خاص بك ! وكذلك فشلك إنه خطؤك أنت ، ولكنك تملأ البيت فرحة بنجاحك ، وتملأ قلبى بهجة بتفوقك ! هل تضن علينا بهذا ؟

إن الطفل إذا ترك يمارس حرياته ويمارس مسئولياته - استطاع أن يؤديها أفضل مما لو أننا سلبناه إياها ، إنه سوف يقدر هذه المسئوليات ، وسوف تعمق

فى نفسه القدرة على تحمل الواجبات من أجل نفسه ، وأسرته ووطنه ! بل  
المسئولة الموضوعية تجاه البشر والحياة !  
وليس أيسر من أن يقول الطفل :  
- تعبت !

ومن واجبنا أن ندعه يستريح ولا نلاحقه بسوط عذاب اسمه : استذكر.  
وربما تطرقنا هنا للحديث عن الدروس الخصوصية التى تراها شيئاً يدفع  
الأبناء إلى مزيد من عدم الاعتماد على النفس ، الأمر الذى يشكل خطورة على  
شخصية الطفل ، وعلى قدرته على الاستيعاب ! ومجعله دائماً شجرة لبلاب  
لا بد أن تبحث لها دائماً عما تعتمد عليه ، لكى تنمو ! إن جانب الاعتماد على  
النفس هو أخطر أهداف الواجبات المنزلية الدراسية ، إنها ليست للتحصيل  
فحسب ، ولن أنسى كلمة ذلك الأستاذ الجامعى الذى قال :  
- إن التعليم والتثقيف الذاتى هو الوسيلة الوحيدة للإنسان لبنى نفسه ،  
ولا سبيل للتدريب على هذا اللون من التعليم المستمر والتثقيف الذاتى إلا الاعتماد  
على النفس فى أداء واجبات المعلمين المنزلية ، بلا مساعدة من أحد ، وبلا  
معوونة من الأسرة !

ولقد طرقتنا حتى الآن قضايا الاختيار فى الطعام والملبس ، وتحدثنا عن  
الواجبات والدروس المنزلية وبقى لنا كثير من المجالات التى يتدرب عليها الطفل  
على تحمل المسئولية : أولها ممارسة الهوايات ، وخاصة إذا لم يكن بين أفراد  
الأسرة من له هذه الهواية : كالموسيقى ، أو الرسم ، أو التمثيل ، وتقول أم :  
- ابنى خجول ! لم يمكنه قط أن يواجه الناس !

والتمثيل ، والحوار ، وسيلة لعلاج الخجل ، لأن الخجل مرحلة من مراحل

الهروب من المسئولية وصورة واضحة لها ، والهوايات قادرة ولاشك على علاج الكثير !

وهناك أيضاً قضية « مصروف الجيب » وهو من أمور عدة يمكن من خلالها تدريب الأبناء على التصرف فيما يملكون ، وهذه مسئولية هامة يجب أن نوجه إليها أنظار أبائنا ، فلا نجعل الابن يقل يديه إلى عنقه ، ولا ندعه يبسطها كل البسط ! ومن المفيد أن نقف عند هواية ما . كالموسيقى نناقشها كقضية من قضايا التدريب على حمل مسئولية ممارسة هذه الهواية ، ومن الضروري أن نناقش قضية الأبناء والمال ، فهي أيضاً من جملة قضايا محاسبة النفس ومحاولة الاعتماد عليها !

## الطفل والموسيقى

أكبادنا : في حاجة للتدرب على تحمل المسئوليات ، وعلى جهة عريضة تبدأ من الطعام والثياب ، والواجبات المنزلية التعليمية ، ومصروف الجيب ، وممارسة الهوايات - تقوم بإعدادهم للاعتماد على النفس ، ودروس الموسيقى لون طيب من الهوايات التي من خلالها يتم التدرب على مواجهة المسئوليات وتحملها .

\* \* \*

ونحن كثيرا ما نسمع الطفل الذى يمارس هواية العزف على آلة ما يقول :

- كفى ، لا رغبة لى فى مواصلة العزف !

وتقبل الوالدين لمثل هذه العبارة ليس بسهولة ولا بهيسر : بعضهم يغضب ويثور ، وبعضهم الآخر يتذكر أن كل محاولات تفرض على الصغار مصيرها الفشل ! وهؤلاء يدركون أن ممارسة الطفل للموسيقى مسألة خاصة به . هو وحده الذى يقرر : هل سيعزف أو لا يعزف ؟ إنه يتدرب عندما يشاء ويكف عندما يريد ! إن ممارسة الموسيقى واجدة من مسئوليات الطفل الخاصة به !  
وتقول إحدى الأمهات :

- إني أعددت هذا البيانو من أجل أن تتعلم عليه ابنتى .

- ابنتك ؟ أين هى ؟

- عندما تولد !

- ربما اختارت آلة أخرى .

- لا ، لا ، البيانو هو أفضل الآلات الموسيقية للفتيات .

إن الأم هنا لا تعنيها مواهب طفلتها التي لم تولد بعد ، كل الذى يعنىها أن تعوض ما فاتها حين فشلت هى فى العزف ، أو حرمتها ! وهى لا تهتم كثيراً بالدموع التي تذرفها ابتها أو الرقص الذى يبديه الابن حين تصر من جانبها على أن تفرح بها وبمواهبها فى العزف ! وهى تعلن بلا تحفظ وبلا أدنى تردد :

- الإنسان العصرى يجب أن يتذوق الموسيقى ويعزفها ، وقد اشترينا

الآلات وندفع للمدرس والمعلم لتدريب البنات والولد ! ولا مجال أبداً لقبول أعدارهما السخيفة لتخلفهما فى ميدان نرفض أن يسبقنا فيه أبناء أوربا إننا ندفع الكثير من المال ، والأبناء أنفسهم عليهم أن يراعوا هذا ويشنفوا آذاننا بعزفهم ! وتحت وطأة مثل هذه الكلمات لن تتعلم الطفلة ولن يتدرب الطفل على عزف الموسيقى ، ولن يحرزوا أبداً أى تقدم فى هذا المجال ! ومهما دفع الأبوان من مال ، ومهما كلفها الأمر - فإن الخوف أن تكون النتيجة الفريدة لذلك هو إفساد العلاقة بين الآباء والأطفال !

إن ممارسة الأطفال للموسيقى لا يعدو الهدف منها أن تكون متنفساً للانفعالات والمشاعر ، حياة الطفل مملوءة بالنواهي والأوامر ، والتعليمات ، والقواعد التي يطلب منه السير عليها ، والتمزقات الكثيرة ، ومن الضروري إزاء كل هذا أن تكون هناك لحظات هدوء واسترخاء ، والموسيقى تمنح الأبناء هذه اللحظات بشكل رائع : هى تعطى معنى للغضب ، وتمنح شكلاً للبهجة ، وهى خير مهدئ للتوتر ، ولكن الأم ترى غير هذا !

- يا عزيزى ، أريده أن يعزف .

- هل تريدته « محمد عبد الوهاب » آخر؟ هل سيكون ملحنًا؟  
- لا ، لا ، انظر إلى الطفل في أوروبا ! ما من ابن إلا يعرف العزف والغناء .

- هذا ثمرة أجيال متوالية من الاهتمام بالموسيقى .  
- نحن لا نستطيع أن نصبر أجيالا ! بل لابد لأبنائنا من أن يتذوقوا ويتدربوا على عزف الموسيقى والاستماع إليها .

والواقع أن تناول الآباء للموسيقى على هذه الصورة لا ينجم عنه إلا مزيد للتمزق للصغار ! والنتيجة دائما مؤسفة ، ومعروفة سلفاً : الطفل لن يتدرب على العزف ، بل سيكره الآلة الموسيقية ومعلمها والأم ، وينهى من هذه اللحظة علاقته بالموسيقى ! ودائماً نجد في بيوتنا بيانو مهجوراً يعلوه التراب ! أو (فلوت) لا ينبعث منه نغم ! أو (كمنجة) مقطوعة الأوتار ! وكلها تذكرنا بالفشل الكبير الذى أحرزناه خلال رحلة معاناة حاولنا خلالها أن نخلق من ابننا عازفا جيدا ، وتذكرنا بالأمال الضائعة في مجالات بذلنا فيها جهودا ضائعة !  
وتساءل الأم :

- ماذا فعل؟ ماذا كان على أن أفعل لكى أنجح؟

نقول : إن مهمة الأسرة أن تجد معلمة موسيقى ممتازة للابنة ، ومدرسا متفوقا للابن ، وذلك بعد أن تتكشف ميول هذا الابن الموسيقية وعلى المدرس أن يمسك بيده مفتاح اهتمام الطفل بالموسيقى ، وهى وهو - وحدهما - قادران على تفجير الطاقات والمواهب الكامنة ، إن مهمة المعلمة والمدرس أن يكسبا ثقة الصغار واحترامهم ، وإذا لم ينجح فى ذلك فشل فى دروس الموسيقى ذاتها ، الطفل لن يحب الموسيقى على يد معلم لا يحبه ! إن صوت المعلم له وقع أهم من

وقع الموسيقى ذاتها ، وهناك قواعد لا بد من الاتفاق عليها في هذا المجال ، مثل :

- هل يمكنني أن أختار له الآلة التي يعزف عليها !

- لا يمكن !

- ليس من حق أن أختار مواعيد دروس الموسيقى ، وأن ألغيا إذا لم

تسمح الظروف ؟

- لا ، وهذه أمور يتفق عليها بين الطفل ومعلمه ، ولا إلغاء للدرس إلا

باتفاق مسبق .

- هل أتصل بالمعلم وألغى الموعد ؟

- لا ، هذه مهمة الصغير صاحب الشأن !

- وماذا عن مدة الدرس !

- مدته مسألة بين الطفل ومعلمه !

كل هذه الأمور تجعل من الموسيقى دروساً في تحمل المسؤولية .. وفي الاعتماد

على النفس .. وهي تخلق لدى الطفل شعوراً بأننا نهتم بمشاعره وأفكاره أكثر مما

نهتم بالموسيقى والعزف ، ومن الضروري ألا يعنف الطفل أو يؤنب بسبب تدريبه

على العزف ، إننا كثيراً ما نسمع الأم تقول لابنها :

- ألا تعرف كم دفعنا ثمناً لهذا البيانو؟ إن أباك يشقى ويتعب من أجل

النقود التي تدفعها لمعلم الموسيقى بلا فائدة ترتجى ويدون عائداً !

مثل هذه الكلمات منفرة للطفل ، وتخلق لديه شعوراً بالذنب ، وهي لاثير

حماسته للموسيقى أو الاهتمام بها ! والحق أن الكثير من تعليقاتنا حول « أذن

الطفل الموسيقية » أو « براعته في العزف المنقطعة النظير » كثيراً ما تكون مشبعة

للهمم ! وإننا لئرى أنه قد بات من الضروري أن تتبعد عن عبارات مثل هذه :

- إنك يا عزيزي موهوب! لو أنك استثمرت مواهبك لأصبحت  
«موزار»!

وتنتفخ أوداج الطفل ، ويتباه الغرور وقد يحدث رد فعل آخر معاكس  
فيقول الطفل لنفسه .

- ماذا سيحدث لو أنني لم استثمر هذه المواهب ؟

إن الكثير من عبارات التشجيع قد لا يأتي بالنتيجة المرجوة ، بل قد يخلق  
إحباطات لدى الطفل ، فقد يقول المعلم للصغير :

-جرب هذه النغمات ، مأسهلها ! اعزف كما أعزف أنا (عزف على بيانو) .

وعندما لا ينجح الصغير في تقليد معلمه لن يكون ذلك في مصلحة العازف  
الناشيء ، فسرعان ما ينصرف عن التدرب ، في حين أننا لو عرفنا مفتاح  
استئارة اهتمام الطفل لأمكننا أن نجعل محاولاته دائبة وناجحة ومستمرة بعد  
درس الموسيقى . إن الطفل يتشجع عن طريق التفاهم والتعاطف والمشاركة  
الوجدانية والتعرف على حقيقة مشكلاته والصعوبات التي تعترض سبيله ،  
ولا يثمر التشجيع بمجرد النصائح والمدح والحلول الجاهزة السريعة للمشكلات  
العارضة ! فهل لنا أن نعلم أكبادنا الموسيقى كفن رفيع المستوى بفن تروى رفيع  
المستوى ؟ نرجو ..

## مصروف الجيب

أكبادنا : مسئوليتنا ، ومن مسئوليتنا لهم أن ندرهم على المسئولية ، وفي  
بيوتنا نعطي أطفالنا مصروف الجيب ، كالثياب والطعام ، كواجب نلتزم به ،

لأن الطفل فرد في الأسرة . والواقع أن مصروف الجيب ليس مكافأة للصغير على سلوكه الطيب ، والحرمان منه ليس عقوبه توقع عليه إذا أساء ! إن مصروف الجيب في واقع الأمر درس في السلوك له أهدافه المحددة ، إنه يبغي تدريب الطفل على حسن استخدام النقود بممارسة الاختيار في إنفاقها ، وتحمل مسئوليات التصرف فيها ، لذلك فإن الإشراف الكامل على إنفاقها يفسد الغرض منها .

• • •

وتسأل أم :

- هل أترك ابني ينفق كل مصروفه بلا تدخل من جانبي على الإطلاق ؟
- التدخل في شأن خاص كهذا يثير مشكلات ، فلا تسمحى لنفسك به .
- ماذا أفعل إذن حتى لا يبدد ماله ، أو ينفقه في أمور تضره ؟
- يجب أن تحدد ببساطة قنوات إنفاق مصروف الجيب قبل أن يحصل عليه الطفل ، بمعنى أن نذكر للصغير ما يجب أن يغطيه من هذا المصروف الخاص : شراء الحلوى ، والملحمة الخاصة به ، ولعب معينة .. إلخ .
- ولابد كلما كبر الطفل ونما من أن يكبر مصروفه وينمو ؛ ليغطي مطالبه الإضافية ومسئولياته مثل تذكرة دخول السينما أو المسرح ، ووسيلة المواصلات ، وغير ذلك .

وقبل أن نستمر في الحديث عن أسلوب إنفاق مصروف الجيب - يجدر بنا أن نبحث في السن التي يجب علينا فيها أن نعطي الصغير ذلك المصروف : إن بعضاً يعترض عليه ، ويود لو اكتفى الصغير بما يمنح من حلوى ، ومأكولات ! وقد سئلت معلمة في رياض الأطفال :

- أفلا بد من منح الصغير النقود؟

- هذه من الضرورات القصوى ! عندي طفل في الثالثة من عمره اكتشفت أنه يبيع « السندوتش » ويشتري بئنه الحلوى مع أن معه حلوى من البيت !

إن الصغير تفتنه مسأله الشراء في ذاتها ، بل إننا نسمعه أحياناً يطلب قطعة صغيرة من النقود ، وعندما نسأله عما يريد ، قد تفاجأ بقوله :

- أريد أن اشترى ؟

- ماذا تشتري ؟

- أريد أن « اشترى » فقط ، أشترى أى شىء !

إن عملية الشراء في ذاتها أصبحت لدى الصغير هدفاً يسعى إليه ! إن مبدأ منح الطفل مصروفًا خاصًا به أصبح شيئًا مقررًا ، ونحن نتوقع أن يسئء الصغير إنفاق نقوده ، وكثيرون منهم يبدون نقودهم فيما لا طائل منه في ثوان ! ومن الضروري مناقشة ذلك مع الصغير في هدوء وروية ( من التروى ) للوصول إلى نتائج محققة ! وإذا لم تتحقق رغبتنا في حسن توجيهه فعليًا أن نكتفى بقطع نقدية صغيرة يومية أو كل يومين ، وعلينا ألا ننسى أن المسألة في واقعها تدريب للصغير على المسئولية والتصرف ، ومن ثم فكلما أسرعنا في منحه المصروف أسبوعيًا كان ذلك أفضل إلى أن يتحمل مسئوليته شهريًا بشرط ألا يتحول مصروف الجيب إلى سيف مسلط على الصغير ، فيمنع إياه ، ويمنع عنه ممارسة للضغط ، ولكى يطيع ، ويجب ألا يوقف في لحظات الغضب على الصغير ، كما يجب ألا يزداد في فترات الرضا عنه ! وسؤال يطرح نفسه :

- ما قيمة المصروف المعقول الذى يجب أن نعطيه إياه ؟

- ليست هناك إجابة واحدة عن هذا السؤال : إنه - أى المصروف - لا بد أن يناسب دائماً ميزانية الأسرة دون النظر إلى مستوى الجيران أو الأقارب أو الأصدقاء !

.. ويجب ألا تُدفع إلى دفع مصروف أكبر من قدراتنا معها كان السبب - وماذا لو احتج ، أو اعترض الصغير؟  
- علينا أن نقول له : إننا نود لو أعطيناك أكثر ، لكن ميزانيتنا محدودة ! إن هذا أفضل بكثير من محاولة إقناعه بأنه ليس في حاجة إلى مزيد من النقود ! إن النقود ، مثل السلطة ، ليس أيسر من سوء استغلالها بسبب قلة الخبرة ! ومصروف الطفل يجب ألا يكون أكبر من قدرة الطفل على التصرف فيه ، ولنبداً بمصروف قليل متواضع يسهل عليه إنفاقه بدون أن يتشتت بين أشياء كثيرة ! النقود القليلة تجعله محصوراً في أشياء محدودة محددة .. فلا يتيه بين ما يعرض عليه ! ونكرر أنه من واجبنا أن ندرك أن مصروف الجيب ليس منحة ، وليس مكافأة !

- ستحصلين يا عزيزتي على مبلغ كبير لو ساعدت ماما في غسل الأطباق ، وأنت لو رويت أشجار الحديقة يا عزيزي لك مصروف أكبر !  
إننا بمثل هذه الأمور نعد أطفالنا لأن يعملوا الخير. ويعاونوا ، ويمدوا أيديهم بعد ذلك يريدون أن يحصلوا على الثمن ! ويكون الرد : كم تدفعون ؟ ومرفوض أن يرفع الصغير مثل هذا الشعار إزاء ما يطلب منه ! إننا نربيه على حب الوطن والأرض ، على حب الأهل والإنسان ! . وقد يسألنا مقابلاً لمثل هذه الأمور الحياتية ، ونفزع إذا بدرت من الصغير عبارة في موقف كهذا ! على أننا قد نجد في مصروف الجيب فرصة تعليمية طريفة : إنه قد يعطينا مجالاً

لتدريب الصغير على العد والحساب ، ومن أجل هذا من الأفضل أن تبدأ في إعطاء الصغير مصروفه مع بداية التحاقه بالمدرسة ، ليتعلم عن طريقه المبادلة والطرح والجمع ! وقد يجد البعض في مصروف الجيب وسيلة لتعليم الصغير القدرة على الادخار .

- إنفاقك يجب أن يكون أقل دائما من مصروفك !

وسيطرح الصغير سؤالا : والباقي ماذا أفعل به ؟

إن علاقة الناس بالنقود تبدأ منذ الصغر ، إننا قد نحولهم إلى مكتسبين . وإلى بخلاء إذا نحن رحنا نزرع في نفوسهم حب « الدينار » كما أننا قد ندفع بهم إلى أن يكونوا مسرفين إذا لم ندرهم على الإنفاق كمسئولية ، وعلى الادخار كواجب ! هناك من يقول ، كفكاهة :

- تُصنع النقود الفضية مستديرة ، لتجرى وتختفي !

ومطلوب منا أن نعلم الطفل أن النقود وسيلة ، وليست غاية في ذاتها وأن السبيل إلى جلب النقود هو العمل والعرق ، ويجب أن نربي الأبناء على أن النقود ليست كل شيء في الحياة ! إن هناك الكثير لا تستطيع النقود أن تشتريه : هناك أشياء لا تباع ، ولا تقدر بمال : مثل الفضيلة والشرف والصدق ! وهناك أيضًا المسئولية ونحملها ، إننا لا نشترى « كمية » من المسئولية ، بل نتعلمها في متابعة خلال تعاملنا مع النقود والمال . ما من مسئولية أثقل من تدريب الصغار على معرفة الحجم الحقيقي « للنقود » في حياتنا وقيمتها في مواجهة قيم أروع كحب الوطن والعلم والإنسان .

## اختيار الأصدقاء

أكبادنا : في حاجة إلى « الصحة » ، فمن غير الممكن أن يكتفوا بصحبتنا نحن الكبار ، إنه من الضروري أن يكون لهم أصدقاؤهم الذين يختارونهم بأنفسهم ، وتسعدهم صحبتهم ويجدون فيها إشباعاً وإمتاعاً لعواطفهم ؟ ونحن - نظرياً - نريد لأبنائنا أن ينتقوا ويتخبوا هؤلاء الأصدقاء ، لأننا نؤمن بالحرية ، ونرفض منطق فرض الأصدقاء . والسؤال الذي يطرح نفسه :

- إلى أي حد نسمح للأطفال باختيار أصحابهم ؟

إننا غالباً ما نرتضى لهم أبناء أصدقائنا أو أقاربنا أو جيراننا أصحاباً لهم ، فنتصور دائماً أن أبناءنا أبرياء ، وملائكة أطهار ! على حين أن الآخرين شياطين ! ونفرض على الصغار أصدقاء بذاتهم وأصحاباً يعينهم عن طريق التضييق على من لانرغب فيهم ، وسؤال آخر :

- ما المقياس الذي نتخذه تقويماً لقدرة أطفالنا على اختيار الأصدقاء ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال : نود أن نقدم مشهداً من واحد من الأعمال الإنسانية التي قدمها الأدب العالمي عن العلاقة بين الآباء والأبناء : المشهد من رواية للكاتب تنسي ولمز ، وهو بين أب يحتضر وبجانبه ابنه :

قال الأب في صوت وئيد ضعيف :

- أفي كان فقيراً ، كنت بجانبه عمري كله ، ولحظة بدأ يودع الدنيا نظر

إلى وعلى وجهه ابتسامة فسرتها على أنها اعتذار ، لأنه لم يترك لي شيئاً ، لذلك

جمعت لك الكثير ، الملايين ، وأتركها لك !

- من قال لك يا أبى إني أريد الملايين ؟ إننى كنت أريدك أنت ، أريدك صاحبًا صديقًا ، ثم لماذا فسرت ابتسامه إليك على أنها اعتذار ! أبدًا إنها كانت ابتسامه سعادة ، لأنه قضى حياة طويلة معك ، ولم يدها كما بددتها أنت فى جمع المال !

إن هذا المشهد لم يغيب عن ذهنى قط ، وأنا أناقش علاقة الآباء بالأبناء ؛ فالصداقة بينها ضرورة حياتية ، وأهم بكثير من أن يقضى الأب عمره مجثمًا عن مال يتركه لابنه ! الابن قادر على أن يكسب المال ، لكنه ليس قادرًا على أن يشتري أبًا أو صديقًا أو رفيقًا على درب الحياة ! ومنذ سن مبكرة يجب أن نشعر بصحبتنا له ، لا مانع من أن تضع الأم المشغولة طفلها معها فى الحجرة نفسها حتى لا يحرم الصحبة ، على ألا تبالغ فى الاهتمام به !

وهناك من يرون تدريب الصغار على العزلة لكى تنمو فيهم روح الاستقلال والمسئولية ، ولكن ثبت أن الذين تفرض عليهم العزلة يتأخرون عن زملائهم ، ويفقدون القدرة على الاستجابة السريعة ، ولا بد من توازن بين العزلة والرفقة ، نقول أم :

- - - إنى أصبت بحجية أمل كبيرة ؛ لأن ابنى يرفض أن يلعب مع من هم فى سنه ! عمره عام ! وإذا لعبوا أمم لعبهم واتصف بالوخز والدفع والشد ! ولهذا الأم ألا تقلق . هذه السن طابعها اللعب المفضل ، والصحبة هنا ليست حيوية ولا هى بالضرورة ، وهى لا تتمتع ولا تشبع إلا عندما يتجاوز الطفل هذه المرحلة ، والطفل فى سنة المبكرة يفيد كثيرًا من صحبة أقرانه فى العمر نفسه ، وهو يرتبط بزملائه فى الحضانه بشكل أكبر مما يرتبط بمن يلاقهم مصادفة فى الحديقة ، على أن الاختيار من جانب الصغير قد يحمل دلائل هامة :

- إذا اختار الطفل من هم أصغر منه سناً ليصاحبهم ويلعب معهم فإنه يدلبل بذلك على رغبته في القيادة والسيطرة والزعامة ! وإذا اختار من هم أكبر منه فقد يكون ذلك إحساساً من جانبه بالحاجة إلى الحماية والمساندة !  
والصحة يجب أن تعود على الأطفال بالفائدة ، والتأثير الطيب المتبادل ، إن الأطفال في حاجة إلى فرص للاتصال بعضهم ببعض ، ليدركوا الاختلافات في الشخصيات التي يلاقونها ، ومن أجل هذا فإن الأطفال المنطوين يجب أن يصاحبوا آخرين متفتحين اجتماعيين تعاونيين ! والأطفال الذين يشعرون بالوجل والخوف يجب أن يصادقوا آخرين شجعاناً جسورين أقوياء وهكذا .. إن التكامل هنا ضروري ، إننا نسمع بعض الآباء والأمهات يشكون من أطفالهم ، ومن عدم قدرتهم على اللعب مع الآخرين :

- إنه نفور .. ذلك الولد .. لا صاحب له .. ولست أدري السبب ؟

- لأنه لا يلاقى إلا من هم على شاكلته !

- هذا يجعله أكثر قدرة على التألف معهم ؟

- بالعكس : إذا كان خجولاً ، والتقى هو وخجول آخر فلا صداقة

تربطها !

- إنه مشاكس ، وإذا التقى هو ومشاكس آخر تشاجرا ؟ فما الحل ؟

- الحل أن يلتقى هو وطفل هادئ يتعلم منه ، وإذا حاول أن يشاكسه أو

يعتدى عليه فإن من الضروري أن يتعلم المادئ رد العدوان .

وقد نساءل هنا : ألسنا نفرض على الصغير صحبته بهذا الأسلوب ؟ أين

الاختيار هنا ؟ وكيف نحمل الطفل مسؤولية الاختيار هنا ونحن لا نعرض عليه من

يختار من بينهم !

إن الفرصة هنا ضيقة ، ومع ذلك فهي كافية ، كافية للهدف منها ، ألا وهو التدريب على الاختيار والانتقاء ، ولا يقتصر الأمر على اختيار الصديق بل من الممكن أن يختار الطفل حيوانه الأليف الذى يربيه في البيت !

- هل هو كلب أو قط ؟

- هل هو أسماك زينة في حوض أو طيور في قفص ؟

إن الصغير إذا اختار فعليه أن يتحمل مسؤولية الاختيار ، والعناية بحيوانه أو طائره المفضل ، وهنا عليه أن يبدى حسن التيقن والاستعداد لأكثر ولا أقل إنه قد يبدى الحاجة ، أو الرغبة أو الحب للحيوان أو الطائر ، ولكنه لا يجد في نفسه القدرة على رعايته وتربيته وتغذيته ، إن هذه فوق طاقته وقدرته وحده ، وتحمله مسؤولية حياة مثل هذا الكائن تتجاوز حدود إمكانياته ، لذلك يجب أن نعتز بوجود الحيوان الأليف أو الطائر في البيت بمثابة عمل جديد وإضافي للأبوين ، إن الصغير يفيد كثيراً من وجود حيوان أليف ليلعب معه ويحبه ، ويشارك في الاهتمام به ، ولكن مسؤوليته تقع على عاتق الكبار من أجل التفادي من التفرقات والإحساس بالذنب ، وهناك أشياء تصلح للصحة أيضاً :

- هل تريد أن يكون صديقك : الكمان أو البيانو أو العود ؟

- أفضل الكاميرا على ريشة الرسام ؟

- ما رأيك في الشطرنج ؟

« إن الألعاب واللعب من الممكن أن تكون صديقاً رائعاً للطفل بجانب الصديق البشرى ، ولكنها ليست بديلاً ، فسوف يظل « الإنسان » أفضل وأهم صديق للطفل ، وسوف يظل الطفل محتاجاً لطفل آخر غير مكثف بإخوته وأبويه وأقاربه ، ولكن من الضروري إبعاد الأطفال عن الذين يمارسون العنف ، فإن

هؤلاء قد يصبحون زعماء وأبطالاً ، بل قدوة ، وذلك يحدث تأثيراً على الصغار ! من هذه السن يبدأ تكون العصابات والشلل ، وهي أمور نرفض أن نغرسها في نفوس أبادنا الذين نريد لهم مسؤوليات إيجابية .

## الاعتماد على النفس

أبادنا : وهم يختارون أصدقاءهم - يتحملون ويتدربون على المسؤولية .. وإذا كنا قد تركنا لهم مسؤولية الاختيار ، فإن علينا مسؤولية التيقن من أنهم أحسنوا الاختيار .. والأم أو الأب - الممتاز ، مثل المعلم الممتاز - هو الذي يجعل نفسه دائماً « غير لازم » بالنسبة للطفل ، إنه يجد متعة في العلاقات التي تثمر ، وتقود لأن يختار الأطفال بأنفسهم ، يقرروا وفق إراداتهم ومشيئتهم ! وفي حوارنا مع الأطفال يجب أن نؤكد ثقتنا في أنهم قادرون على اتخاذ قراراتهم بأنفسهم .

• • •

والواقع أننا نكثر من استعمال كلمة : لا ، لا ، لا .

ونحن نستخلصها ومرادفاتها مثل :

- ممنوع ، مرفوض ..

وقائمة المنوعات طويلة تمتد على مدى اليوم كله ؛ فقد يفتح الصغير

عينه .. إنه يسأل :

- هل أليس هذا ؟

- لا ..

- هل يمكنكى أن أرحبى تناول إفطارى ؟

- لا ..

- هل أستطيع أن أخرج إلى الحديقة أو السوق ؟

- لا ..

وكل ممنوع مرغوب ، ونحن نخلق للصغار تمزقات كثيرة لشدة خوفنا عليهم  
وقلقنا من أجلهم !

ومجدد بنا أن نقلل ما نستطيع من هذا القلق ، وأن نخفف من الخوف ، فإن  
أبناءنا كيانات حية من الممكن الاعتماد عليها ، وعلى قدرتها على التمييز ، ومن  
الأفضل دائماً أن نتركهم ، ليجربوا بأنفسهم بدلا من أن نقتل فيهم روح  
المبادرة والمغامرة بتخويفهم وإثارة الرعب لديهم إزاء كل شىء يقومون عليه !  
ولنكن على ثقة من أن تربيتهم لاحتياج منا إلى كل هذه الأوامر والنواهي ! ليتنا  
معهم تفيد من كلمة !

- نعم .. نعم .. نعم .

نستخدمها مع مرادفاتنا ، ومن الأفضل ألا نقولها هكذا مباشرة ، بل إن في  
مقدورنا أن نعبر عنها بشكل يؤكد للطفل استقلالته ، ولدينا عشرات العبارات  
التي تصلح لهذا مثل :

الأم : إذا كنت ترغب فى ذلك يا عزيزى ..

الأب : إذا كان ذلك رأيك فلا مانع مطلقاً يا عزيزى .

الأم : إن لك أن تقرر ما تشاء .. هو موضوعك أنت !

الأب : أنت وشأنك ، فأنت صاحب الأمر ..

الأم : إننى أقبل ما تشاء أنت .

كل هذه العبارات تفسح المجال أمام الصغير لكي يفكر ويقرر ، وينفذ ! وهذا تدريب رائع له على أن يتصرف ، ويتحمل مسؤولية تصرفه ؛ إن كلمة نعم ، أو موافق قد تعني أن الأمر منحة منا ، والذي نراه أن ذلك حقه الطبيعي في الحياة ، كمواطن منح عقلا لا يبد أن يفكر به ، ومنح قدرًا من القدرة على التمييز يجب أن يتصرف على ضوءه ! والسؤال الذي يواجهنا هنا :

- ما السبيل إلى تحقيق هذا مع تجنب تدليل الصغير؟ إنه يبكي لنحقق رغبته ، وإذا استجبنا لكل ما يطلب يتوقع الشيء نفسه عندما يكبر! ويصاب بحجة أمل إذا لم يتحقق هذا !

وهم يجدون صعوبة في التكيف مع الناس والحياة ، وحرمانهم من شيء يشعرهم بالاحقاق ، الأمر الذي قد يدفع بهم للعدوان .

وقد يريد الآباء أن يدللوا أبناءهم كما دللوا هم ، وقد يريدون تجنبهم المعاملة الصارمة التي عوملوا بها ؛ لذلك يسرفون في التدليل ، الأمر الذي يجعل الأطفال يشبون غير مسؤولين ! وربما يولع الآباء بأبنائهم فلا يرفضون لهم طلبًا ، ويستسلمون لرغباتهم !

وعند الطرف الآخر نجد آباء يدرّبون أبناءهم على الطاعة العمياء بكل عنف وحزم ، وإذا كان الطفل قوى العزيمة يصبح متمردًا ، وإذا كان ضعيفًا يتعلم الإذعان إلى درجة أن يسلب كل شيء ! وربما استطاع أن ينفس عن نفسه بقضم أظفاره أو بعادة أخرى سيئة .

والتوازن بين الحزم والحب مطلوب من الآباء ، والتردد في اتخاذ القرارات تجاههم والتذبذب - يحدث اهتزازات نفسية بعيدة المدى . ويثور النقاش !  
الأم تقول :

- إنك تدلله يوماً ، وتعنف معه يوماً !
- هذه هي التربية !
- لا ، لا ، يجب أن تثبت في معاملتك له عند موقف محدد !
- كيف السبيل لهذا وهو يحسن ويسىء؟ إذا أحسن شجعته ، وإذا أساء عنفته !
- أنت تسامحه وتحفف عنه إذا كسر طبقاً ، وفي مرة أخرى للسبب نفسه تعاقبه !
- حقاً ؟ لم أنتبه إلى هذا من قبل ! ليتك استرعت نظري إلى هذا الموقف ..

- هو يتكرر منك ، ولكم أود ألا يحدث !  
 ونحن أيضاً لا نريد أن يحدث ! فلا تردد ولا تذبذب ! الموقف الواحد له رد فعل واحد ، وليس معنى هذا أن نعنف على طول الخط ، أو نتساهل باستمرار ، فالأب على صواب حيث يقول : إن الطفل يحسن ويسىء ، فإذا أحسن شجعناه ، وإذا أساء فلا بد من النصح والإرشاد والحزم ، مع ترك مساحة حرة يتحرك فيها الصغير للتدرب على تحمل المسؤولية ، إننا لن نحمل عنه عبء كل شيء ، ولن نعيش له العمر كله ، ولا رغبة لنا في أن يشب شجرة لبلاب ! تسأل الأم :

- ماذا تعنى بأن يشب الطفل شجرة لبلاب ؟
- معناه أنه يشب نابئاً متسلقاً يعتمد على غيره !
- إنه مازال طفلاً ، يجب أن يعتمد على غيره !
- إنه مازال طفلاً .. لو لم نتركه يتدرب على السير يقع ويقف - ما استطاع أن يصاب طوله ، ويسير وحده ، الاعتماد على النفس ضرورة !

والأمر ليس موضع جدل : هل يعتمد الطفل علينا أو على نفسه ؟ إن توازننا مطلوباً بين هذه وتلك : فبقدر ما يقل اعتماده علينا رويداً يزيد اعتماده على نفسه وفق سنى عمره ، وبحسب نموه إلى أن يستقل بالكامل . ونحن في شرقنا العربي نؤجل طويلاً استقلال الأبناء تحت شعار الترابط الأسرى ، الأمر الذى يؤجل نضجهم الكامل !

الأب يرفض أن يستقل الابن بيته ، أحياناً حتى بعد أن يتزوج الابن ! وهذا يثير مشاكل عدة !

أيضاً لا تقبل أن يستقل الفتى والفتاة - كما يحدث في أوروبا - فور وصولها سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة .. ويشكو الأب :

- هذا الولد كأنه يعيش في جزيرة منعزلة ! كأنه روبنسون كروزو أو حى ابن يقظان ! الحياة تعاون ، يجب أن يدرك هذا .

إن الأب يشكو انطواء ابنه ، وقد تشكو الأم من الشيء نفسه ، وقد تشكو لسبب آخر شكوى عكسية ، تقول :

- هذه الفتاة فردية النزعة شديدة التشبث برأيها ، تريد أن تقوم بكل العمل وحدها ، وتريدنا أن نرجع إليها في كل صغيرة وكبيرة !

وهذه فتاة بلغ بها اعتمادها بنفسها حداً مرضياً : فهي تريد أن تكون محور الكون ومركز الوجود كله ! وتضخمت لديها الرغبة في الاعتماد على النفس إلى درجة جعلت منها إنساناً مغرورة تظن نفسها قادرة على كل شيء ! إن لعبة التوازن بين الاعتماد على الآخرين والاعتماد على النفس هى أخطر ألعاب الحياة ، إنها كالسير على الحبال في السيرك ، يجب أن نكون يقظين كل اليقظة لكل خطوة !

## النظام والانضباط

أكبادنا : في حاجة ماسة للنظام ، ولا حاجة بنا إلى توضيح معنى النظام والانضباط ، ولا للكشف عن الحرية المسموح بها للأبناء ، والحدود التي يجب أن يقفوا عندها بها وإن كانت قد تتردد ما بين التزمّت الشديد الذي نتوارثه عن الجدود ، وما بين الحرية المطلقة التي ينادى بها البعض ! ذلك أمر قد تختلف فيه وجهات النظر.

ولكن سؤالاً ملحاً يطرح نفسه في البداية ذلك هو :

- ما الفارق بين تناول جدودنا وتناولنا لقضية النظام والانضباط عند الأطفال ؟

إن الجدود - ولا شك - كانوا يطلقون في كل ما يفعلونه من نقطة واحدة ، هي : السلطة ! أما نحن فإننا في كل تصرفاتنا تتردد ، وتذبذب ! وإننا لنجد الجدود حتى حين الخطأ يتحركون في ثقة بالنفس ، أما نحن فحتى في الأمور السليمة نتحرك في « شك » ! والسؤال :

- ما السر في ترددنا هذا في علاقتنا مع أبنائنا ؟ ومن أين ينبع هذا التردد ؟

لا شك أننا جميعاً سمعنا عن ( فرويد ) ، والتحليل النفسي ، والآثار السيئة الناجمة عن الطفولة الشقية وغير السعيدة ؛ كما أننا نخاف أن نفسد على أبنائنا حياتهم المقبلة ، بل إننا نكرر ونردد كلمة باتت على ألسنتنا كأنما هي كلمة نحية أو شكر تلك هي :

والرسالة التالية التي تلقيناها من إحدى الأمهات قد نخدمنا في توضيح هذا الموقف ، تقول هذه الأم :

« - إنه من الصعب على أن أعبر عن نفسي - كلاماً - فيما يختص بالأمور التي تؤثر في تأثيراً عميقاً ! قد أستطيع أن أنجح في ذلك إذا كتبت ، وإذا أنا لم أستطع أن أقول شيئاً ما فلا شك فيه أنكم ستعرفونه من بين السطور ! لقد شهدت الكثير من الندوات التي تتحدث عن الآباء والأبناء ، وكلها تقول : إن الآباء لا يتعمدون أبداً إيذاء أبنائهم عاطفياً أو نفسياً إلا أن الأمر يحدث نتيجة ظروف خارجية عن الإرادة ! إنني أبكي أحياناً نتيجة تصرفات أقوم بها أو كلمات أقولها بلا تفكير ، وأتمنى دائماً لو أنني لا أكررها ! إنها فعلاً قد لا تتكرر ، لكن شيئاً آخر يحدث لا يقل سوءاً عن ذلك الذي بكيت من أجله ! وأبكي من جديد تمزقاً ؛ لأنني أتصور أني ربما أكون قد تسببت في ضرر لطفلي يلازمه عمره كله !

إن أحداً لا يستطيع أبداً أن ينكر على هذه الأم إخلاصها العميق لأبنائها وإيثارها لهم على كل شيء في الوجود ، ولكنها قد تكون أكثر قدرة على مساعدة هؤلاء الأبناء لو أنها كانت أقل إحساساً بالذنب ، وأكثر إحساساً بقدرتها على الحركة والتصرف ، ولتضرب مثلاً بوضع الأمر :

إننا لن نشعر بالطمأنينة والأمان مع طبيب يبكى عند رؤيته ذراعاً مكسورة أو يغمى عليه عندما يبصر الدم نازقاً من مضاب ! إننا نتوقع من الطبيب أن يواجه الأمر ببغض الحثاى والثففة والمواساة ويقدر كبير من الاحتراف « وليس بالانفعال الذي يقوده للبكاء أو الانهيار ! وهكذا الآباء

يجب أن يتعلموا كيف يتصرفون مع أبنائهم الناشئين بطريقة فيها « احترام » و « خبرة » و « مقدرة » إننا إذا استطعنا أن نعاملهم دون انفعالات صاخبة وعواطف زائدة على الحد نجحنا في حل كثير من مشاكل الانضباط ، أما إذا عاملناهم في هستيريا فإننا سوف نخلق مشاكل خطيرة يعانى منها الآباء والأبناء لسنوات طويلة قادمة ، لذلك لا بد أن نضع بضع قضايا أمام الآباء والأمهات :

- إن الآباء يجب أن يحبوا أطفالهم ، لكنهم - أى الآباء أو الأمهات - يجب ألا يكونوا في حاجة إلى أن يحبهم أبنائهم في كل لحظة من لحظات يومهم ، وإن هؤلاء الذين يريدون أبناءهم أن يكونوا مبرراً لزواجهم أو امتداداً لوجودهم - يخطئون ! إنهم جاءوا لذاتهم ، ليعيشوا !

- وإذا خاف الآباء أن يفقدوا حب أبنائهم فلا يرفضون لهم طلباً بما في ذلك ما يمكن أن يخل بسيطرتهم على البيت والأسرة - فإنه نتيجة ذلك أن يسيء الأبناء استغلال جوع آبائهم لحبهم ، وسوف يصبح الأطفال مجموعة من الإرهابيين يتحكمون في خدم وعبيد ، قلقين ، مضطربين ، كل ما يسعون إليه لإرضاء سادتهم !

ومن هنا يأتي سؤال في منتهى الأهمية أرجأنا طرحه في البداية ، وسنعالج الآن بعد هذه المقدمة - التي طالت بعض الشيء - هذا السؤال هو :

- ما المسموح به ؟ وماذا يخرج عن حدود المسموح به في هذا المجال ؟ إن حجر الزاوية في التناول الجديد للنظام والانضباط يكمن في التفرقة ما بين الرغبات والتصرفات ، إننا نضع حدوداً وقيوداً للتصرفات والأفعال ، لكن يجب أن ندع المجال واسعاً قسماً أمام الرغبات والآمال ! وأغلب مشاكل

الانضباط تأتي من مصدرين أو تتكون من شقين :

الأول : مشاعر غاضبة .

الآخر : تصرفات غاضبة .

وكل جانب من الجانبين يجب تناوله بشكل مختلف ! المشاعر لا بد أن توضح ويعبر عنها ، أما التصرفات والأفعال فلا بد من تحديدها وتوجيهها ، بل أحياناً يكون تعبير الطفل عن الرغبات كافياً لتنقية الجو ، إن حواراً من هذا اللون قد يدور ، حين تتوجه الأم إلى طفلها بقولها :

- يبدو أنك غاضب اليوم !

- نعم ، هذا صحيح .

- هل تحس بضيق شديد من شيء ما ؟

- فعلاً .

- يبدو أنك غاضب من شخص معين ؟

- نعم .. منك أنت يا أمي ..!

- لماذا لا تحدثني عن سر غضبك ؟

- إنك لا تأخذيني إلى نزهة بالخارج ، وقد صحبت أختي !

- هل هذا أغضبك ؟ ربما قلت في نفسك : « أمي تحب شقيقتي أكثر مما

تحبني » ؟

- بالطبع قلت لنفسى : هذا !

- هل تشعر بهذا كثيراً ؟

- بكل تأكيد !

- من فضلك ! عندما تحس بهذا أرجو أن تأتي لتخبرني به ، هل تعلمني ؟

- أعدك يا أمي .

إننا بذلك نفلس عن المشاعر الغاضبة لدى الطفل ، ومن المهم أن تهدأ مشاعرنا الصاخبة تجاهه .

إن تقبل « الطفولة » من الأطفال أمر غاية فى الأهمية . وذلك يعنى أن قيصاً أبيض لطيفاً يلبسه طفل هادئ لن يظل « أبيض نظيفاً » لمدة طويلة ! وإن طفلاً يجرى بدلاً من أن يمشى أمر مألوف من الطفل الطبيعي ، وإن الشجرة زرعت لكى يتسلقها ، والمرأة وجدت من أجل أن يتطلع إليها ويخرج لسانه وهكذا .

إن تقبل الطفولة يعنى إدراكاً عميقاً بحقوق الأطفال فى أن تكون لهم مشاعرهم وريغباتهم ، وأن تكون لهم حريتهم المطلقة وغير المحدودة ، كل المشاعر ، والتصورات ، كل الأفكار والرغبات ، كل الأحلام والتمنيات بغض النظر عن المحتوى - يجب أن تقبل وتحترم ، ويجب أن يكون مسموحاً بالتعبير عنها بوسائل رمزية مقبولة إن التخريب مرفوض وغير مسموح به ! وإذا ما حدث فعلى الآباء أن يعيدوا توجيهه لكى يمارس فى متنفسات أخرى وقنوات مختلفة ، والأمثلة على ذلك كثيرة : إنها قد تكون فى رسم صور كاريكاتيرية انتقادية ، إلقاء زهر الطاولة ، نشر الحشب ، تسجيل رغبات سخيفة على شريط تسجيل ، تأليف أشعار ضاحكة ساذجة ، كتابة رواية بوليسية .. إلخ أما التساهل الزائد على الحد فسوف يقودنا إلى الموافقة على أمور تخرج على الحدود المقبولة ، أما التسامح المقنن - أى الذى يدخل فى نطاق القانون - فإنه يجعل الصغير يثق فى نفسه ، والكبير يؤمن بقوته وشخصيته ، كما يؤكد قدرة الطفل على التعبير عن نفسه وعن أفكاره وعن مشاعره !

أما التجاوز والتساهل فلا بد أن ينجم عنها القلق والتوتر والمطالبة المتزايدة .  
لحقوق جديدة يصعب منحها ، بل يصعب منعها أيضاً .

## الأطفال والطاعة

أكبادنا : في حاجة إلى الانضباط والطاعة والنظام ، وسبق أن قلنا : إن  
مشاكلنا معهم في هذا المجال تأتي من مصدرين أو تتكون من شقين : الأول :  
المشاعر الغاضبة .. والآخر : التصرفات الغاضبة .  
والمشاعر يمكن التنفيس عنها بالتعبير والكلمات ، لكن حدوداً يجب أن  
توضع للتصرفات وما أكثر تلك الخواطر الغريبة التي تثيرنا من أبنائنا !

• • •

إن طفلاً في السادسة من عمره قد يقول :  
- أريد أن أكسر هذه الساعة لأعرف ماذا بداخلها ؟ ولأعرف كيف تسير  
عقاربها ؟

إن الأم هنا قد تغضب وتثور ، وهذا خطأ ، إنها يجب أن تتقبل حب  
الاستطلاع عند ابنها ، بل يجب أن تسعد بهذا الاتجاه العلمي المبكر نحو المعرفة  
في اللحظة التي لا بد أن نجد سيلاً لكي نحول بين ابنها وبين هذا التصرف  
المخرب ، في حسم كأن تقول له :

- إنني أعرف مدى شغفك وتطلعك إلى معرفة ما في داخل الساعة ،  
ولكنها لكي تظل تعمل لا بد أن تبقى « مغلقة » كما هي ! تعال بنا نفتح ونبحث  
عن رسم أو صورة للعدد والآلات التي داخل الساعة ، لترى كيف هي ؟

ولتعرف كيف تعمل ؟ ..

ولنا أن نتصور أمًا واجهت ابناً بالغضب لتطلعه إلى فتح الساعة أو كسرهما ،  
إنها ولاشك ستزيده إصرارًا على ذلك ، ولسوف يتحين أول فرصة يغيب عن  
بصر أمه لكي يحطم الساعة ! - أما إذا جاوبته بهدوء فسيلتقيان ! لقد وجدت  
إحدى الأمهات ابناً يرسم « ويشخبط » على حائط الغرفة ، وكان أول رد فعل  
لهذا هو الغضب الشديد الذي ظهر على ملامحها إلى درجة أخافت الصغير  
وأرعبته ، وقد تمتد يدها له بالضرب ، ولكننا نتساءل عن التأثير الذي يحدث لو  
أنها قالت له :

- لا ، يا حبيبي ، ما كان يجب أن ترسم على الحائط ! إنه منظر لا يجعلنا  
نبتج ، نخذ هذه كراسة رسم ، أو بعض الأوراق لترسم بها (لوحات) نعلقها  
على الحائط ، أليس ذلك أفضل ؟

وتبدأ الأم في اللحظة نفسها في تنظيف الحائط ، وقد يفعل الصغير ،  
نقول ، « قد » وربما عبر الطفل عن انفعاله هذا ، بعبارة صغيرة ، كأن  
يهمس :

- ماما ، أنا أحبك يا ماما .

.. ونستطيع أن نلتقط صورة أخرى من منزل آخر وقع فيه الشيء نفسه من  
الطفل : لقد رسم وخطط الجدران بالألوان ، فشوه شكلها ، فما كان من الأم  
إلا أن صرخت .

- ما هذا الذي فعلته يا أحمق ؟ ماذا أصابك ؟ هل فقدت عقلك ؟ ألا  
تستطيع أن تفهم أن هذا الذي صنعته بالجدران قد أفسدها ؟ إنك طفل مزعج  
فاسد ! لست أدري ماذا أفعل بك ؟ ولا كيف أتصرف معك ؟ انتظر ! عندما

يعود أبوك للبيت سأخبره . لكي يكسر يدك اللتين رسمت بها هذه الرسوم  
السخيفة !

ممالا لاشك فيه أن فارقًا كبيرًا بين ما حدث في البيتين : إنه فارق ضخيم  
كالفارق بين النظرة الجديدة لموضوع الانضباط ، والنظرة القديمة ! لقد كان  
الآباء في الماضي يحاولون أن يوقفوا بكل عنف التصرفات غير المقبولة الصادرة  
عن أطفالهم دون أن يبحثوا دوافعهم إليها . كانت القرارات والحدود توضع من  
خلال لحظات الغضب وفي أثناء الحوار الصاخب . وكانت دومًا مملوءة بالعنف  
والشتائم . بل بالضرب ! وكانت الكلمات والأوامر تلقى في وقت لا يمكن فيه  
الطفل أن يسمع ويصغى . وإذا سمعها فهو لا يستجيب . لأنها تعطى في  
لحظات تحدٍّ ومقاومة من جانبه ! وكان الطفل يُترك ولديه الشعور الحاد بأن  
عمله وتصرفه ليسا فقط موضع النقد . بل إن شخصه أيضًا وخلقه وإنسانيته  
موضع شك ! إنه ردىء سيئ .

والنظرة الجديدة لموضوع الطاعة . والانضباط - تساعد الطفل وتعاونه في

مجال الشعور . والخلق !

إن الآباء يجب أن يسمحوا لأطفالهم - تحت شروط سنناقشها فيما بعد - بأن  
يعبروا عن مشاعرهم في حين يجب أن يحددوا ويرشدوا ويوجهوا تصرفاتهم :  
وبالذات غير المقبول منها . ويجب أن تكون هذه الحدود موضوعة بشكل يحفظ  
للآباء هيبتهم وللأبناء احترامهم ! إنها ليست حدودًا حادة وقاسية ، بل هي  
حدود تربية وتعليمية وتستهدف بناء الشخصية . وتطبق بدون عنف أو  
غضب .

إن تفهها لموقف الطفل لا بد أن يكون في الاعتبار . ويجب أن يكون في

الحسبان أن الطفل يجب ألا يعاقب - مرتين - من أجل رغبته في ممارسة الممنوع فكل ممنوع مرغوب - ويكفى أن يمنع عنه .. ولا يضاف عقاب آخر فوق الحرمان ؛ فقد يزيده ذلك تشبثاً بالممنوع .

إن الانضباط والنظام إذا استخدمما على هذه الصورة فإن ذلك يقودنا إلى تقبل اختياري من جانب الطفل لأوامرنا وتعليماتنا ، وقد تتغير تصرفاته وأفعاله : أى أن محاولة الآباء فرض الانضباط قد تستبدل به محاولة من جانب الأبناء للانضباط والالتزام بدوافع داخلية ؛ إذ تتكون لدى الصغار بعض القيم التي يوضحها ويصنعها الآباء ، وإذا بها تصبح من تطلعات الأبناء : إن هؤلاء الصغار يرتاحون أكثر حين يعرفون الحدود المسموح بها للحركة والتصرف حتى إننا نستطيع أن نقول : إن تصرفات الأطفال تقع داخل مناطق ثلاث : كإشارات مرور خضراء وصفراء وحمراء :

- المنطقة الخضراء : هي التي تضم التصرفات المقبولة والمسموح بها والمرغوب فيها ، وهي منطقة نقول دائماً فيها : نعم ، نقولها بارتياح .  
- المنطقة الصفراء : هي منطقة تضم سلوكاً ليس ممنوعاً ، لكنه قد لا يكون موضع قبول من جانبنا لأسباب عدة منها :

- أولاً : إن السائق الذي توضع على سيارته كلمة (تعليم) لا يعاقب ، لأنه أخطأ في إعطاء الإشارة تجاه اليمين ، ومضى هو إلى اليسار .. مثل هذه الأخطاء التي تقع من الذين يتعلمون من الممكن ، بل من المؤكد أنها مستقبلاً سيتم تلافيها .

ثانياً : إنه في حالات خاصة ، وفي مواقف بعينها : كالمرض ، والحوادث ، والانتقال إلى بيت جديد ، والانفصال عن الأصدقاء وحدث طلاق أو وفاة

في الأسرة - تحتاج هذه الحالات والمواقف إلى بعض التجاوزات لعبور الظروف القاسية وللمواءمة مع الجديد ، إننا قد نتقبل التجاوز في مثل هذه المواقف لأنها استثنائية .

- أما المنطقة الثالثة - وهي الحمراء فهي محرمة ، ممنوعة ، مرفوضة ، ولا بد أن نقف فوراً عندها ، وهي تشمل السلوك والتصرف الذي يضر الصحة ويضر مصلحة الأسرة اجتماعياً ، واقتصادياً ، ونفسياً ، وهي تضم أيضاً تلك الأمور التي يمتنعها القانون ، والقيم الأخلاقية ، والعرف الاجتماعي .  
ومن الضروري أن نكون حاسمين بالنسبة للمنطقة الحمراء المحرمة بقدر ما نكون متسامحين بالنسبة للمنطقة الخضراء . وعندما يسمح للطفل بتصرف يعلم جيداً أنه يجب منعه من ممارسته فإنه يعتبر ذلك حقاً مكتسباً لا يمكن الرجوع فيه ، قال طفل لأمه :

- إنك لا تحبينى !

- لماذا يا حبيبي ؟

- لأنك أصبحت تمنعيني من التعلق بالسيارة من الخلف حين تمضى ببطء

أمام البيت !

لقد سمحت الأم لطفلها بهذا الشيء ، وضاق حين منعه منه ! وأخرى

كانت توافق عليه وإذا بها تواجه من ابنها يوماً يقول :

- إنك لا تحبينى .

- لماذا يا عزيزي ؟

- سمحت لي بالتعلق بالسيارات من الخلف في أثناء سيرها

- لأنك كنت تستمتع بذلك !

- إن هذا كان يفرضي للموت . لو أنك أحببتى لمنعنى من تعريض  
نفسى للخطر !

وهذا الشئ ينطبق على الكثير من الأمور : طفل يعتقد أن أباه أخطأ لأنه  
سمح له بالاحتفاظ بمخنجر ! طفل آخر ما عاد يحترم أبوية ، لأنها لم يوقفا عبث  
أصدقائه بلعبه التى كسروها ! إن الأطفال الصغار لديهم عبقرية خاصة فى  
إدراك المنوع ، ويجب أن يساعدهم الآباء على السيطرة على التواضع والرجبات  
التي تتناهم . إن الآباء بوضعهم للحدود يساعدون الأطفال لا على وقف  
تصرفاتهم الخطرة فحسب ، بل إنها تعنى رسالة سرية تقول :

- لا تخف من ميولك ورجباتك ودوافعك ، إننى لن أدعك تذهب بعيدا  
إلى درجة الإضرار بنفسك ، إننى أقف لأحميك حتى من نفسك !  
اطمئن أيها الحبيب !

### القرارات الحاسمة

أكبادنا : فى حاجة إلى حدود يلتزمونها من أجل التدريب على الانضباط  
والنظام .. وخلال وضع هذه الحدود - كما فى كل العمليات التعليمية - تتوقف  
النتائج على المقدمات ..

إن الحدود توضع من أجل أن نقول للطفل فى وضوح كامل :

- إن سلوكًا بعينه وتصرفًا بذاته غير مقبول .
- وإن هناك سلوكًا آخر ، وتصرفًا ثانيًا ، بديلا ومسموحًا به ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وإن كانت المقدمة غامضة بعض الشيء ، إننا نستطيع أن نقول للطفل :

- إن إلقاء الأطباق والأكواب غير مسموح به .
- إن إلقاء الكرة ممكن .

وبأسلوب آخر : الأكواب والأطباق لم توجد لتلقى ، والكرة وجدت لكي ترمى ، ومن أجل اللعب ، أما أن نُحرِّمَ إلقاء الأشياء على الإطلاق فأمر غير سليم ، لأن هناك فعلا ما وجد من أجل هذا إن هذا هو استخدامه الطبيعي ، غير أن هذا يجب ألا يجعلنا نعطي تعليمات جزئية ، أو متذبذبة : بمعنى أنه يجب أن يكون هناك تمييز بين رش الورد بالماء ، ورش الشقيقة به ! وهناك أمر يجب أن يكون حاسماً . إذ ليس مقبولاً أن نقول للطفل :

- إن في استطاعتك أن ترش شقيقتك بالماء بشرط ألا تبل كل ثيابها .
- هذا أمر غير جائز ، لأننا نترك للصغير تقدير « درجة » أو « حد » استخدام الماء في العبث مع شقيقته ، وهكذا ندخل في أمور تقديرية يمكن الاختلاف عليها ، ونجعل الصغير في هذا الموقف لا يحدد الصواب من الخطأ ، إن القرار يجب أن يكون حاسماً والرسالة يجب أن تكون واضحة .
- هذا التصرف ممنوع ، يجب أن يقف .

وعندما تكون الأم غير قادرة على تبين ما يجب عليها أن تفعله - فعليها أن تهدأ أو تسكن ، وتفكر إلى أن تصل إلى قرار واضح ، وفي قضية وضع الحدود بين ما يجب وما لا يجب يضيع المتردد المذبذب في مناقشات طويلة لا طائل منها ، ووضع القرارات والأوامر بشكل دائم ومستمر وحاد يخلق لدى الأطفال حالة من التحدى ، ويتج عنها معارك مستمرة بين إرادات متصارعة وليست

مبتعانة ، وهى معارك بلا انتظار ، ولا يمكن أبداً أن تحسم لمصلحة طرف من الطرفين ؟ إن الحدود يجب أن توضع لتقلل من الشد والجذب ، ولتؤكد سلطة الآباء بلا توبيخ أو شتائم للأبناء ، ومحاولة حل المشاكل بضرورة واحدة تلقى مقاومة حادة ولدينا صورة للممارسة غير مرغوب فيها فى هذا المجال : كانت الصغيرة ابنة السنين الثمانى فى متجر كبير مع أمها ، سألتها الأبنة :

- لقد اخترت ثلاث لعب ، هل تشتريها لى يا أمى ؟

- لعب ؟ إن عندك منها الكثير ، إنك دائماً تريدان أن تشتري كل ما يقع عليه بصرك ! حان الوقت لكى تفهمى أنه لايمكن تحقيق كل ما ترغيبين فيه ، إنك لم تعودى صغيرة !

وبعد لحظات أدركت الأم أنها كانت عنيفة جداً مع الابنة لسبب خارج عن الإرادة ، وهو أنها قد اشترت بكل ما معها من نقود احتياجاتها من المتجر ، وأحست بالحرج إزاء طلب الابنة فانفجرت فيها بهذه الكلمات ، وحاولت الأم أن تصلح الموقف ، وتصلح الطفلة ، وترشوها ببعض الحلوى التى تحبها ، وإذا بالصغيرة وقد اكفهر وجهها ترفض الرشوة ! والواقع أنه كان يجدر بالأم أن تستبدل بهذه العبارات الغاضبة شيئاً يرضى الصغيرة ويخفف عنها الرفض مثلاً :

- إنك ترغيبين - فيما يبدو - فى نقل كل ما فى المتجر من لعب إلى البيت ، لكن . آسفة .. لم يتبق اليوم معى من النقود ما يكفى شراء لعبة جديدة ، لكننى سأعطيك قطعة نقود لشراء بالون أو حلوى اختارى : هل تشتريين البالون أو الحلوى ؟

وقد نختار الصغيرة الحلوى التى رفضتها فى المرة الأولى ، لأننا نقلنا القضية إلى اختيار بين شيئين وحولنا نظرها عن موضوع اللعب بذكاء .. وقد تبكى

الصغيرة من أجل إجبار الأم على شراء اللعبة ، وهنا يستوجب الأمر الرفض من جانب الأم ، وهناك أربع طرق لكي نحدد المواقف بلا استشارة للأطفال ، وهي تمضي كالتالي :

إن الأب يدرك رغبة الصغير في الشيء ، لذلك يعززها بقوله :

- إنني أعرف جيداً أنك تريد أن تذهب إلى السينما .

ويعود الأب فيوضح بهدوء وفي عبارة رقيقة الحدود التي يلتزمون بها في

البيت :

- ولكنك تعرف يا عزيزي أن القاعدة عندنا أنه « لاسينما في أيام

الدرسة » !

ويرجع الأب ليشير إلى الوسيلة أو الوسائل التي يمكن تحقيق رغبة الصغير

عن طريقها :

- إنك تستطيع بلا شك الذهاب إلى السينما يوم الخميس أو يوم الجمعة .

ويعاون الأب الابن على أن يهدأ ولا يناقش تلك المناقشات التي تنور عند

إلقاء الأوامر فيقول :

- يبدو أنك لاترضى عن هذه القاعدة وعن هذا المبدأ ، وربما عندما تكبر

ويصبح لك بيت تستطيع أن تغير هذه القاعدة وتلغي هذا المبدأ !

وليس من الضروري بالطبع أن يكون هذا هو الأسلوب المتكرر في مثل هذه

الظروف ، أحياناً نضع الحدود ونعبر عن المشاعر ، فمثلاً عندما نجد الصغير يهدد

بقذف حجر على شقيقه ، ساعتها تستطيع الأم بسرعة أن تغير من الموقف قائلة :

لا ، لا تقذف به شقيقك ، بل ألقِ به تجاه الشجرة .

ومن الأفضل أن تسترعي نظره وتشير بيدها إلى الشجرة ، وبعدها تبدأ الأم

في تفرغ مشاعر الصغير بكلمات أخرى مثل :

- الإنسان له أن يغضب من شقيقه ما شاء له الغضب ، بل قد يضيق به إلى درجة الكراهية ! لا ضرر في هذا مؤقتًا ، ويمكنه ساعته إن لقاء الحجر على الشجرة كأنها هي شقيقه ! إنه يستطيع أن يرسمه على الورق في صورة مضحكة ، ويلصق الصورة على الشجرة ويقذفها بالحجر ! لأن ذلك لن يسيل دمها !

إن اللهجة التي تقال بها مثل هذه العبارات يجب ألا يكون فيها أي تحد لمشاعر الصغير الذي يكاد يتفجر بها ، ولا أي تحد لاحترامه لذاته ونفسه ، ومن الأفضل ألا نضع الحدود عن طريق ضمير المخاطب ، بل من الأفضل أن نستخدم عبارات مبنية للمجهول ، مثل عبارة تقول :

- « لاسيتنا » في أيام المدرسة .

هذه العبارة تثير ضيقًا أقل ، وتوترًا أبسط من عبارة :

- إنك تعرف أنه من المستحيل أن تذهب للسيتنا في أيام المدرسة ، ممنوع ؟ وعبارة ثانية تقول :

- حان وقت النوم .. تصبح على خير !

خير من عبارة تقول .

- أنت أصغر من أن تسهر كل هذا ، قم إلى سريرك !

وعبارة ثالثة مثل :

- كفي شجارًا وصراخًا .

أفضل من عبارة تقول :

- من الأفضل أن تكف عن الشجار والصراخ !

إن الحدود تصبح مقبولة أكثر حين نشير بوضوح إلى مهمة الشيء موضوع الحديث .

- هذا المقعد للجلوس عليه .

ذلك أحسن بكثير من :

- لا تقف على المقعد .

وأيضاً ، نجد أنه من الأحسن القول :

- هذه المكعبات لتلعب بها وتبنى البيوت .. وذلك بدلا من

- لا تلق بهذه المكعبات ، لا أسمح لك بهذا ، إنه خطر جداً .

واضح أن تغيير كلمة بكلمة يحدث الكثير ، واختيارنا للكلمات في تعليم

الطفل الانضباط والنظام يعنى أننا منضبطون ، ويعنى أننا قدوة ..

## نشاط الأطفال

أكبادنا : يحتاجون إلى الانضباط ، والتدريب على التزام النظام .. وأكثر مشاكل الانضباط التي تواجهها مع الأطفال ناتجة عن الرغبة في وضع بعض القيود والحدود لنشاطهم الجسماني .

• • •

- لذلك نسمع على مدى ساعات اليوم أمهات وآباء يهتفون :
- لانجر ، ألا تستطيع أن تمشي مثل بقية عباد الله ؟
  - كف عن هذا القفز ، اجلس هادئًا مثل الآدميين !
  - لماذا تقف أو تقفز على قدم واحدة مع أن الله خلق لك قدمين ؟
  - هل جعل لك قدمين ، ولم يجعل لك « محًا » تفكر به ؟
  - سوف تسقط ، ويدق عنقك إذا لم تكف عن هذا الذي تفعله !
- والواقع أن نشاطات الأطفال يجب ألا تقيد بشكل مطلق ؛ لأن هذا النشاط ضروري من أجل النمو الجسماني والعقلي للطفل ، إنهم في حاجة إلى الجري والقفز والتسلق وغير ذلك ، وقلقتنا على ( أثاث ) البيوت يجب ألا يتجاوز اهتمامنا بصحة الأطفال ، فإن كبت نشاط الطفل ينتج عنه توتر عاطفي يعبر عنه الصغير أحيانًا بالعدوان والتصرف العشوائي ! ومن الضروري أن نوجد للصغير مجالًا لنشاطاته ، فإن ذلك يعتبر سبيلًا لتعليمه الانضباط والتدريب على النظام ،

ويريح الآباء أنفسهم ؛ إن الأبناء يستجيبون للهجة الودود الصادقة ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه :

- ما العمل عندما يخرج الأبناء على القاعدة ولا يستجيبون للأوامر ، ويتخطون الحدود ؟

إن الإجابة التي يراها التربويون عن هذا السؤال واضحة جلية تقول :  
- على الآباء أن يستجيبوا لدورهم في حنان ورقة ككباب وأسوياء ، يجب أن يتصرفوا في حزم ، ويجب ألا يندخلوا أو يجرهم الأطفال إلى نقاش حول عدالة هذه الحدود أو ظلمها لهم ، ويجب ألا يظلموا في تبرير وجودها ، ليس من الضروري أن نشرح بالتفصيل للصغير : لماذا يجب عليه ألا يضرب شقيقه ؟ فقط عليه أن يعلم : لا عدوان . أيضا : لسنا مطالبين بأن نفهم الطفل لماذا يجب عليه ألا يكسر زجاج النافذة ؟ ، فقط عليه أن يعرف ويلتزم بأمرنا . زجاج النافذة لم يوضع ليكسر ، قاعدة يجب ألا تكسر ، وعندما يخرج الطفل عن الحدود يزداد قلقه ، لأنه يتوقع العقاب ، ويجب ألا يزيد الأب من قلق الطفل في هذه اللحظة بالذات ، إنه إذا تكلم طويلا فسيؤكده ضعفه في وقت يجب أن يمثل القوة ، إن الطفل في مثل هذه اللحظات يحتاج إلى الكبير يعتمد عليه لكي يساعده في السيطرة على دوافعه دون أن يفقد ماء وجهه ! وهذا مثل يوضح لونا من ألوان تخطى الحدود ، تقول الأم :

- يبدو أنك لن تسكت إلا إذا رأيتني أصرخ فيك ! حسنا ( وتصرخ )  
كف عن هذا وإلا فإني سأنهال عليك ضربا حتى أمزق لحمك ! إذا ألقيت بشيء آخر فسألتي بك على الأرض ، و..

والحق أنه بدلا من هذا التهديد والوعيد كان يمكن الأم أن تعبر عن غضبها

الحققي بأسلوب وطريقة أفضل ، كان في استطاعتها أن تقول :  
= هذا الذي تفعله يضايقتني ، يغيظني ، يثيرني ، هذه الأشياء لم توجد  
لتلقى !

إن الآباء وهم يفرضون الحدود ، ويضعون القوانين التي يجب ألا تخرق  
عليهم أن يكونوا يقظين إلا أن عليهم ألا يخلفوا معارك وصراعات بين إرادات  
مختلفة ، تقول طفلة لأبيها :  
إنني سعيدة هنا ، لا أريد أن أعود الآن ، سأبقى ساعة أخرى هنا في  
النادي .

- تقولين إنك ستبقى ساعة أخرى هنا ، وأنا أقول . إنك لن تبقى !  
وهذا الموقف قد يقود إلى إحدى نتيجتين كلتاها غير مرغوب فيها : هزيمة  
للطفلة ، أو هزيمة للأب ! إن التركيز هنا يجب أن يكون على رغبة الطفلة في  
البقاء بدلا من الاهتمام بإصرارها على تحدى سلطة الأب ، إن عليه أن يقول :  
- أعرف أنك سعيدة هنا ، وأعرف أنك تتمنين أن تبقى مدة أطول ،  
عشر ساعات مثلا ، لكن حان الوقت . علينا أن نذهب الآن !

وإذا استمرت الطفلة على عنادها يستطيع الأب أن يأخذ بيدها في رقة  
ويضئ معها إلى خارج النادي مع الأطفال المصغار ! التصرف والفعل يكون  
أكثر فاعلية من الكلمات والقول . ويحاول الطفل أحيانا أن يتملص أو يدفع يده  
أينما ، والقانون التربوي هنا « لا » إنه لا يسمح أبداً بدفع الأب والأم ، أو  
الأيدي تجاهها في أي محاولة من أي لون ، إن ذلك ضار بالطرفين ، يعلل للأب  
غضباً وكرهية ، ويجعل الصغيره قلقاً خائفاً من العقوبة ، فضلا عن الإحساس  
العميق بالذنب ، وبعض الأمهات يقلن للأطفال في الثالثة أو الرابعة :

- لا ، يا عزيزي ، ابتعد عن شعري ووجهي ، يمكنك أن تضرب يدي برقة ، هكذا ! . وهذا مرفوض ، يجب على الأم أن توقف فوراً هذا الاعتداء والعدوان من جانب الطفل قائلة :

- لا ، لن أسمح لك أبداً بمد يديك على إطلاقاً ! إذا أغضبك شيء فعليك أن تذكره في كلمات بسيطة ، ودون أن تحرك يديك مطلقاً إنه تحت أي ظروف يجب ألا يسمح الآباء للأبناء بمد اليد . فالأم إذ سمحت لابنها بمداعبتها بهذا الأسلوب :

- اضرب يدي ، لكن لا تجعلني أتألم !

فإنها بهذا تضعه أمام تصرف لا يمكن أن يكون له مقياس ولا ترمومتر ، قد لا يعرف ما يؤلم مما لا يؤلم ! إنها مسألة تقديرية لا يمكن تركها لحكمة الشخص . وقد يحاول أن يجرب ويمتحن ضرباته ؛ ليعرف أيها يكفي المداعبة ، وأيها يؤلم ؟ وهنا يثور سؤال آخر :

- وماذا عن ضرب الآباء للأطفال ؟

الضرب - برغم سخافته - وسيلة شائعة للتأثير على الأطفال . ويبقى الضرب هو الوسيلة الأخيرة التي يلجأ إليها الآباء بعد أن تفشل الكلمات الطيبة ، وبعد عدم نجاح الوعيد والتهديد ، وهو يأتي - أي الضرب - بدون خطة مسبقة وبلا سبق لإصرار ، يأتي ثمرة غضب مفاجئ نصل إليه تدريجاً أو فجأة . والضرب قد يصلح للحظة الراهنة : يخفف توتر الأب ، ويجعل الطفل يستجيب ويطيع على الأقل لبعض الوقت . إن الضرب كما يقول بعض الآباء :

- إنه ينقى الجو ويحل المشكلة !

وإذا كان الضرب مؤثراً بهذه الصورة فلماذا نجد لدينا الكثير من عدم

الارتياح تجاهه ؟

إننا لا نستطيع أن نسكت شكوكنا تجاه جدوى الضرب ! إنه لا يفيد على المدى الطويل ! إننا نخرج إذ نستخدم القوة ، ونسأل أنفسنا دائما : هل من وسيلة أخرى لحل المشاكل ؟ وأول سليات الضرب أنه يلحق الأطفال درسا خاطئا في حل المشاكل ! إنه ببساطة يقول لهم : عندما تغضبون . اضربوا ؟

إننا نلجأ لهذا بدلا من أن نجد وسيلة أكثر حضارة وتمدينا وإنسانية للتنفيس عن مشاعرنا ! إننا نلحق صغارنا أسلوب ( الغابة ) فضلا عن أن أسوأ ما في الضرب أنه قد يوقف نمو ضمير الطفل ، إنه يخفف عنه عبء الإحساس بالذنب لخطئه ، والإحساس بالذنب أفضل سبيل للتربية ، حتى لا يتكرر الخطأ ! إنه عندما يدفع ثمن غلطته لا مانع من تكرارها ، إنهم يسوون حساباتهم أولا فأولا ، إن الضرب يسمح لهم بالخطأ ماداموا يدفعون أسبوعيا أو شهريا مقابل هذا الخطأ ، بل إن بعض الآباء يقولونها صراحة : - إنهم يريدون أحيانا وكأننا يطالبوننا بأن نعاقبهم !

إن الطفل الذي يبحث عن العقاب يحتاج إلى مساعدة على التغلب على إحساسه بالذنب وعلى غضبه وعدم رضائه عن نفسه ومناقشة الأخطاء أفضل في هذا المجال للتنفيس والتكفير عنها دون أن ينفجر بها المرسل ، ذلك يفيد الآباء والأبناء ، ويلغى العقوبة البدنية للأبد .

## الثقة بالصغير وقدرته

أكبادنا : حرمتهم الحضارة بقدر ما أعطتهم ، وكما يوزع المخرج الأدوار على الممثلين أعطت الحضارة الحديثة الآباء دور « مفسد البهجة » و« قاتل المسرات » الذى يضطر على مدى اليوم كله إلى حرمان الأطفال من أشياء كثيرة ببيجة تسرهم ، وتففز كلمة « لا » على السنة الأمهات والآباء لكي تحرم الصغار آلاف المتع الصغيرة التى يتطلعون إليها بكل لهفة !

- لا تمص إصبعك !

- لا تمد يدك إلى هذه الحلوى !

- لا تحدث ضجة ، ولا تلعب بهذه اللعبة !

إن الحضارة بالنسبة للطفل باردة وثقيلة وقاسية القلب متحجرة : فبدلاً من أن يرضع الطفل صدر أمه الحنون أعطت الحضارة الرضيع زجاجة لبن ! وبدلاً من الذراعين اللذين يحيطانه صنعت له فراشاً من صوف ! وبدلاً من الانطلاقة الطبيعية الحلوة تطالبهم بضبط النفس ! لقد وضعت له قيوداً كثيرة من أجل أن يصبح إنساناً اجتماعياً ، لكن الآباء والأمهات يتجاوزون المعقول ، ويبالغون حتى إنهم يقومون بدور الشرطى حارس الحضارة والحياة الاجتماعية ! ولا ينبغي هذا حتى لا يتسببوا فى غرس كراهية وعداوة من الممكن تجنبها . إن الأم - يجب أن تتفادى من القيام بدور الموقظ لطفلها يومياً للذهاب للمدرسة :

- اصح .. لقد تأخرت .. قم .. بسرعة ( للطفل )

- اصحى ، استيقظى .. هيا .. موعد المدرسة ( للبنات )

هذه النداءات الصباحية التي تقال فيها عبارة :

- صباح الخير !

تقال هذه العبارة مرة بركة وحتان ، ومرات في لوم وتقريع ، والطفل يضيق بالأم التي تقطع كل صباح نومه ، وتفسد أحلامه ، وتريده ليرتك فراشه الوثير ليوم شاق ! إن هذا الطفل يخاف لحظة دخول أمه إلى غرفته وقيامها بجذبه من تحت الأغطية ، ويخاف صوتها الذي يذق كالأجراس !

- هيا .. هل ستنام للظهر؟ إنك ترهقني كل صباح .. صباح الخير.

قم .. وخير لكل الأطراف أن تقوم « الساعة المنبهة » بهذا الدور بدلا عن « الأم المنبهة ! » كانت سلمى الصغيرة - وعمرها ٨ سنوات - تجد صعوبة في الاستيقاظ وترك الفراش ، وهي تحاول كل يوم أن تبقى بضع دقائق أخرى في فراشها ، وتحاول الأم مرة باللين ومرة بالشدّة دفعها إلى القيام .. ولكن الصغيرة تظل على حالها : بطيئة في قيامها ، عابسة عند إفطارها ، متأخرة عن موعد مدرستها ؟ وكانت هذه المناقشات اليومية الطويلة تتسبب في ضيق الأم وتعبها على مدى اليوم كله ، وتحسن الموقف وتغير تماما حين قدمت الأم إلى ابنتها ساعة منبهة أنيقة جميلة ، فرحت بها الابنة ، وسعدت وهي تقرأ الإهداء عليها :

- إلى العزيزة سلمى التي لا تحب أن يوقظها الآخرون في الصباح الباكر.

وهي تستطيع بهذه الساعة المنبهة أن تكون سيّدة نفسها وسيّدة وقتها ، وتصحو في الوقت الذي تراه مناسباً !

سألت سلمى - وهي تمسك بالساعة الجديدة الأنيقة - الأم وهي

تبسم ..

- كيف عرفت يا أمي أني لا أحب لأحد أن يوقظني ؟

- لقد استتجت هذا ..

وعندما دقت الساعة في صباح اليوم التالي لتنبه سلمى إلى موعد الاستيقاظ - قالت الأم لابنتها !

- إن الوقت مازال مبكرًا يا عزيزتي ، إن لك أن تنامي بضع دقائق أخرى !

- لا . لا . قد أتأخر عن المدرسة .

وقفزت سلمى من فراشها . وإلى حد ما حلت المشكلة !

ويجدر بنا ألا نصف الطفل الذي لا يستيقظ من نومه بسهولة : بأنه كسول ! إن الصغار الذين لا يغادرون فراشهم بسرعة لا تجدى معهم السخرية واللوم والتعنيف . وبدلاً من الدخول معهم في معارك يومية متصلة يجب أن نتركهم يستمتعون بهذه الدقائق الخمس الذهبية . وبعض أحلام اليقظة . وهذا يتيسر بضبط الساعة المنبهة على موعد مبكر . ويجب أن تتسم عباراتنا بالحنان أكثر مما تتصف بالعرف والتفريع . ولا بد أن تشحن بالعطف بدلاً من الغضب والتوبيخ :

- يبدو أنه من الصعب أن تغادر فراشك مبكرًا اليوم بسبب سهر الأمس !

- ما أمتع أن تبقى في فراشك مع النوم اللذيذ والأحلام الممتعة ! لكن ..

- تستطيع أن تتقلب في سريرك خمس دقائق أخرى !

مثل هذه العبارات تجعل الصباح بهيجًا ومشرقًا . وتخلق جوًا من الدفء والموودة . في حين يحدث العكس إذا ما قيلت عبارات أخرى مثل :

- قم أيها الكسلان !

- هيا ، انزل فوراً من سريرك

- أما زلت في فراشك أيها «التنبل» !

وهناك عبارات أخرى تقال في مثل هذه المناسبة الصباحية قد توثق أثرها

عكس مانرجو :

- أما زلت في فراشك ؟ هل أنت مريض ؟

- ماذا بك ؟ هل تشعر بصداق أو احتقان في الزور ؟ أرفى لسانك .

هذه التساؤلات القلقة توحى للصغير بأن حنان أمه سيزداد لو أنه مرض ،

أو ادعى المرض ، وقد يتصور أن أمه سيخيب ظنّها فيه لو أنه بقي في فراشه وهو

سلم ، فيبتكر أشياء وهمية تجعله يظل في مكانه لكي يرضيها وما أكثر ما تأتي

نصائحنا بعكس المطلوب منها ، مثلاً :

- هيا أسرع .

كثيراً ما نلاحظ بعد هذا الأمر مزيداً من التباطؤ والتكاسل ؛ لأن الطفل

يضيق بالأوامر والتعليمات ، ولا يجد أمامه سبيلاً لمحاربتها إلا بالتحدى ! ويمكننا

بدلاً من الإلحاح على الصغير بالإسراع أن نحدد له فترة زمنية بذاتها ، لكي يغادر

فراشه أو يستعد خلالها . إن ذلك يخلف عنده لوناً من التحدى للزمن ذاته ..

يريد أن ينجز العمل في وقت محدود ؛ لذلك يتعجل أموره بالذات حين نقول

له :

- أمامك عشر دقائق لتلبس !

- الفيلم يبدأ الساعة السادسة ، والآن هي الخامسة والربع .

- سنقدم العشاء في الثامنة . أى بعد ربع ساعة فقط .. استعد ..

- الصيوف سيكونون هنا خلال عشر دقائق ، جهز نفسك لاستقبالهم .

مثل هذه العبارات تعني في واقع الأمر أننا نتق في الصغير وفي قدرته على أداء ما هو مطلوب منه في الوقت المحدد ، لذلك نراه يريد أن يكون عند حسن ظننا ، وبالذات حين نستقبل يومنا كل صباح .

ولنا أن نستعرض يوماً في حياة طفل . ماذا لو كانت البداية سيئة ! إننا نريدها حلوة بهيجة ؛ ولذلك فمن الضروري أن يكون الإفطار وجبة بلا نصائح أو مواعظ أو فلسفة أو مثل ! إنها آخر لحظات له في المنزل قبل مغادرته إياه إلى المدرسة ، فيجب أن يشبع جوحنان وبسمة حلوة خلالها ، وعلى كل فالإفطار وجبة غير صالحة للحديث الطويل والحوار الممتد ، الصغار ليسوا بكل طاقتهم ؛ مازالت آثار النوم عالقة في جفونهم ، وأقل شيء في هذه اللحظة يثيرهم ! وقد أسلفنا الحديث عن الطعام على أن وجبة الصباح يجب كما قلنا أن تكون وجبة طعام وليست وجبة كلام ! وخاصة أنه مازالت لدينا معركة ارتداء الملابس من أجل المدرسة والاستعداد للخروج .

### موقفنا من معركة ارتداء الملابس

أكبادنا : مع كل صباح يكلفوننا شططا ، منذ لحظة الكفاح من أجل إيقاظهم ، والنضال لكي يتناولوا إفطارهم ، وتأتي بعد ذلك معركة ارتداء الملابس ورباط الحذاء .. والأم تنهض بعين ضخم في كل هذا : توظف هذا ، وتدعو هذه لكي تصحو ، وتنطلق إلى المطبخ للشاي واللبن والطعام ، وترجع إلى هؤلاء الذين يستعدون للذهاب للمدرسة والعمل . وترتفع أصواتهم

- أمي ، لا أجد حذائي !

- أمي ، لم توقعي على شهادة المدرسة !

- آه ، ونقود الرحلة ، أين هي ..؟

وقد يأتي صوت الأب من مكان ما يصرخ بحثاً عن بعض أشياءه الضائعة ، وقد يشتد الصراخ حول « زرار » لم تحطه الأم ، وملابس لم تعد من عند الكواء ، وربما وجدت جدة عجوز تسأل عن دوائها ، والأم تحاول خلال كل ذلك أن تؤدي ألف عمل وعملا : تكلم اثنين أو ثلاثة في وقت واحد ، وتجهز الشطائر للمدرسة ، وتساعد الصغير في ارتداء ملابسه ، وتمشط شعر الصغيرة . وترتب كتب الثالث .. وهو يصبح :

- أختي أخذت قلمي .. أين الحقيقية يا أمي ؟

- كتاب المطالعة كان هنا .. يا أمي ..

وتتردد كلمة « يا أمي » عشرات المرات وهي لا تكلم ولا تمل ! ولو حسبناكم ميلا تقطع في ساعة الصباح ، وكم جهداً تبذل - لأذهلنا ما تحسبه وهي غادية راضحة كالنحلة الشغالة ، تكلم هذا ، وترد على ذلك ، وتساعد ذلك ، وتنتهي عملاً لتبدأ آخر ، هي معركة يومية ، كل ثانية فيها عمل فيها طلب ، فيها مفاجأة ! والصغير قد يسير بحذاءه دون أن يربطه .. ويقول الأب :  
- أكاد أفقد صوابي حين أرى رباط حذاء ابني يتأرجح ، ويكاد يوقعه إذا وطئه بأقدامه !

هل من الضروري أن نلزمهم بربطه ؟ أن ندعه يحب في حذائه ، كأنه غير مهم به ، بل كأنه سعيد به .. أليست هذه فرصة لتدريبه على المسؤولية ؟ والواقع أنه يجب علينا ألا نربط بين رباط الحذاء والمسؤولية ، ومن الأفضل

ألا نشير جدلاً حول هذا الموضوع بأن نشترى للأطفال أحذية بلا أربطة ، أو علينا أن نربط لهم الحذاء بلا نقاش .. وبلا تعليق ، وسيتعلم الطفل - إن عاجلاً أو آجلاً - أن يربط حذاءه قبل خروجه من البيت .. وقد تقول الأم :

- ملابسك يا ليلي ليست أنيقة بشكل كاف !

وربما يبدو أحمد كأنه ذاهب إلى حفلة .. أنيقاً معطرًا من حسن الحظ أن الكثير من المدارس لها ملابس رسمية عادية تريحنا من المبالغة في اختيار الألوان - سمة العصر - وتقلل من همومنا بالنسبة للفتاوت بين الأبناء بالنسبة للملابسهم .. ويجب علينا ألا نحشو رءوس الأبناء بالتحذيرات والقلق حول ملابسهم والنظافة :

- هأنذا تخرج من البيت نظيفاً كالفلة البيضاء ! احذر أن تسخ ملابسك .. وقد تراه يتطلع إلى ملابسه قبل الخروج ، فتقول له :

- المهم أن ترجع بها نظيفة .. تذكر كم أتعب في غسلها !

وفيما نرى أن حرية الطفل في أن يجرى ويقفز أو يلعب الكرة يجب أن تكون لها الأولوية على الأناقة !

ومن الطبيعي أن يرجع الصغير من مدرسته وقد اتسخت ملابسه ، ولحظتها ليس هناك أفضل من أن تكون الأم وديعة معه ، فتقول له بلا توبيخ أو تعنيف :

- واضح أنك عشت يوماً حافلاً في مدرستك ، غير ملابسك ، وضع ماتخلعه في سلة الغسيل .

وليس من المناسب الإشارة إلى أنه قد أصبح قذرًا ، إنك - أيتها الأم - ترضين من الجهد المبذول في الغسل ، وذلك لسبب بسيط : لا يمكن للطفل

أن يضع النظافة في مكان أهم وأسبق من اللعب !  
من البديهي أن اللعب فوق كل شيء وقبل كل شيء ! ولذلك فالملابس  
التي تغسل لا تحتاج إلى الكي أفضل ، وتساعد على حسن معاملة الطفل أكثر مما  
تفعله المواعظ حول النظافة !

ونعود لمعركة الصباح :

- ابن المسطرة ؟ قلعي الخبز ضاع !

- نظارتي ! أريد نظارتي ! وضعتها هنا قبل أن أنام !

وهذه صرخات طبيعية صباحية ، والطفل خلال لحظات الصباح  
واندفاعاتها قد ينسى أشياء يجدر بنا أن نعطينه إياها دون أن نضيف مواعظ  
ونصائح ، إن عبارة تقول :

- هاهي ذي نظارتك يا عزيزي ، مسطرتك هناك تحت المكتب

يا عزيزي .. هذه العبارة أفضل من عبارات أخرى قد تقال مثل :

- أنت كثير النسيان ، من الممكن أن تنسى رأسك ذاته لو لم تكن بين

كتفيك !

- أنت فوضوي ، لو رتبت أشياءك ، ما صارت غرفتك دكان عطار !

الصباح ليس وقتاً مناسباً للكلمات التربوية ، والمواعظ الأخلاقية ، فيجب  
ألا نلقي على سمع الطفل قائمة من الأوامر والنواهي والتحذيرات قبل رحلة  
المدرسة ، بل من الأفضل كثيراً عبارات مثل :

- أرجو لك يوماً ممتعاً .

بدلاً من تلك الكلمات التقليدية :

- لا تنسب مشاكل في المدرسة ، لا تشاجر أنت وجارك ! وعبارة تقول :

- إلى اللقاء ، بعد نجاحات ظريفة ، في المدرسة ، في انتظارك فور انتهاء دروسك .. خير من عبارة :

- لا تتسكع في الشارع بعد خروجك من المدرسة !

إن هذه الفترة الصباحية التي قد لا تمتد ساعة كاملة - لها أهمية كبيرة : فالتصرفات فيها تلقائية ، والوقت ضيق لا يحتمل حواراً ونقاشاً طويلين وخاصة إذا كانت الأسرة كبيرة العدد ، وإذا كان أطفالها في سن مبكرة ! إنها ساعة محتشدة بالعمل ، ربما نكون بالحديث عنها قد كشفنا سرها عند بعض من يعيشونها دون أن يتنبهوا لما تحويه من مجهود ، لكن مطلوب من الآباء والأمهات تدریب الأبناء على شيء هام جداً ، نريد أن نسمع الطفل يقول في لحظة خروجه للمدرسة :

- أمى أريد أن أودعك ..

ولحظتها يجب على الأم أن تنفض يدها من كل شيء ، وكذلك الأب ، إن الابنة أو الابن يحتاج لأن يقوها .. ببساطة وحب :

- أمى .. قبلني قبل أن أمضى !

- هل لى أن أقبلك يا أمى قبل أن أذهب ؟

هذه اللحظة خطيرة خطيرة ! إن من يستطيع أن يلحظها ويرقها من بعيد قد لا يستطيع أن يرى ما يحدث في هذه اللحظة ، لكن شيئاً هاماً في منتهى الأهمية يقع في هذه الثانية بالذات ! إن الأم تلتفت لحبيبتها الصغير أو لابنتها الحبيبة ، تلتفت إليهما الأم وقد زال كل التعب الذى شعرت به نتيجة مجهود الصباح العنيف . راح التعب . ! كل خطوط الإرهاق التى رسمت على جبينها طيلة الصباح محيت .. اختفت .. ساعتها تضع على وجهها وشفتيها أحلى ابتسامة

في الوجود حين تعطي القبلة أو تأخذها من ابنها .. وتقول أم :  
- إنني لا أنسى جهد الصباح فحسب ، بل إنني أشعر أن ما تبقى من عمل  
البيت قد أصبح سهلاً بسيطاً ! ماذا يعني أن تقف في المطبخ ساعة أو ساعتين ،  
أو تغسل ساعتين أو ثلاث ، أو ترتب وتنظف ثلاث أو أربع ساعات ؟ ما قيمة  
كل هذا أمام أروع وأحلى وأجمل ( قبلة ) في الوجود ! .. إن الطفل يقول :  
- أريد أن أقول إلى اللقاء ياماما .. وأعطيني ( قبلة ) ..  
وتقول الأم :

- إنه يستحق فعلاً القبلة !  
والأم - فيما نرى - تستحق ألف قبلة .

### اليوم المدرسي

أكبادنا : يتغيرون بضع ساعات عن البيت ، يقضونها في المدرسة ، ومن  
الأفضل كثيراً أن تكون الأم في ساعة عودة الأبناء من المدرسة في انتظارهم ،  
لستقبلهم ، وتحببهم ! وبدلاً من أن تستقبلهم الأم بتلك الأسئلة التقليدية التي  
تتلقى عليها إجابات متكررة يمكن الأم أن تستبدل عبارات يستدل منها على  
تفهمها لما يلقاه الابن من مصاعب ومتاعب في المدرسة !  
إن الأم قد تسأل :

- كيف حال المدرسة اليوم ؟

طيبة .

- وماذا فعلت اليوم ؟

- لا جديد .. نفس ما أفعله كل يوم !

لاجدوى من مثل هذه الأسئلة ، ولا فائدة في الردود والإجابات عن هذه المسألة ومن المستحب أن تقول الأم شيئاً آخر :

- يبدو أنك قضيت يوماً حافلاً في المدرسة ، واضح أنك سعيد بعودتك للبيت ، هل افتقدتنا كما افتقدناك؟ تعال أريد أن أسمعك تتحدث عن الحصص والمعلمين والزملاء ، هل من شيء طريف حدث اليوم !

وإذا لم يكن في استطاعة الأم أن تنتظر الابن فلا أقل من أن تنتظره منها رسالة قصيرة تبلغه أنها اضطرت لترك البيت لمهمة عاجلة قصيرة ! أمهات كثيرات يستخدمن الكتابة في التخاطب مع الأبناء ، وبجدتها وسيلة طيبة للتعبير عن مشاعرهن ! والحق أن هذه الرسائل تزيد من الروابط الأسرية ، لقد تركت أم لابنها سطرًا تقول فيه :

- اضطرت للذهاب إلى خالتك ، هي تضع مولودها ..

وعادت بعد أن نام الصغير ، وإذا بها تجدد على رسالتها تعقيماً يقول :

- عودة سالمة لك ، ومبروك لخالتى !

واهترت الأم للتعليق ، وكذلك الأب الذى يعود مرهقاً من عمله ويحتاج إلى جو هادئ ، ويحتاج إلى ألا يستقبل على الباب بكمية من الشكاوى والمشكلات والطلبات ! إنه في حاجة إلى كوب شراب بارد ، حمام دافئ ، بريده اليومى ، مجلاته الأسبوعية ! ولا بد من تركه لفترة دون إلحاح عليه بأى أسئلة فترة هي واحة راحة تضيف الكثير إلى الحياة الأسرية ! والأطفال يجب أن يدرّبوا على احترام هذه الفترة ، أما العشاء مناسبة حلوة لتبادل الحديث ، ونردد نحن العرب دائماً :

- تحدثوا على الطعام ولو بثمان أسلحتكم !

يجب ألا يكون العشاء من أجل الطعام فحسب ، بل من أجل الجلسة والحديث ، ولا بد من أن يقل الكلام عن الطعام ذاته ، والكمية التي يأكلها الأطفال ، بل من المهم تغذية مشاعرهم ووجدانهم وعقولهم خلال هذه الوجبات ! وإذا كنا قد مضينا مع الطفل منذ استيقاظه فلا بد أن هناك وقتاً للاستذكار ، وآخر للترفيه ليس مقصوراً على الأطفال ، وقد وصلوا إلى درجة من القوة والسيطرة في بعض البيوت إلى درجة أنهم أصبحوا يتحكمون في خروج آبائهم ! بعض الأطفال سيكون ! يقول أحدهم :

- لا تخرجي ياماما ، لا أريد أن أبقى ! إني أخاف !

- طبيعي أن يخاف الإنسان ، لكن لا بد أن نعرف : ممن يخاف ؟

- من البقاء وحدي ؟

- لا ، لا ، هذا لا يخيف ، هذه حجة تريد أن تستبقيني بها في البيت !

- نعم ، هذا ما أريده !

- ولكنك ستحرمي الاستمتاع برؤية أهلي ، ومشاهدة فيلم معهم !

لا بد أن أخرج .

إن اعتراض الطفل ، أو تهديده ، أو بكاءه يجب أن يهمل ، وردودنا عليه لا بد أن تكون في منتهى الوضوح والحسم ، وإن قيلت في لهجة ودود تعني أنه من الضروري لها أن تخرج لسهرة بين حين وآخر .. للترفيه ، كما يرفه هو - أي الطفل - عن نفسه بالتلفزيون ! وهو جهاز يتزعج من أبنائنا بضع ساعات يومياً ، هم يفضلونه على القراءة ، والموسيقى ، والأحاديث ! وهو يحتاج لحديث طويل منفصل ندعه لوقت آخر ، ونعود إلى يوم في حياة الصغير ، لا بد

أن ينتهى ذلك اليوم بصراع تقليدى ، وعندما يرتفع صوت الأم بتلك  
الصبيحة :

- هيا .. إلى النوم .

فى كثير من البيوت - كما تثور معارك الصباح من أجل الاستيقاظ - تثور  
معارك أخرى من أجل ذهاب الأطفال إلى فراشهم ! إنهم يريدون أن يسهروا  
لساعة متأخرة ، والأمهات يرغبن فى دخول الصغار إلى سريرهم ! ويصبح  
وقت النقاش عبئًا على الطرفين ! والسبيل الوحيد لجعل الأطفال يتطلعون إلى  
هذه اللحظة بحب ورغبة هو أن نجعل فترة ما قبل النوم مجال حديث ممتع  
وحكاية حلوة ، إنهم يحبون لحظات خاصة مع ماما أو بابا يتقاسمان خلالها  
المشاعر والآمال ، بل المخاوف ، ذلك يدفعهم إلى نوم هادئ مريح ، قد يجرى  
هذا الحوار بين أم وطفلها - ابن السنوات الثماني :

- احك لى كل ما دار فى يومك يا صغيرى !

- كان يوما طويلا ، لم أكن أريد أن أصحو من نومي ! كنت فى حلم  
جميل أيقظتنى منه !

- كيف لى أن أعرف أنك كنت تحلم ؟

- ثم عنفتنى ولتنى لأنى لم أشرب اللبن ، كان سخنا ملتبا كالنار ؟

- (تضحك) - لماذا لم تقل لى هذا ؟

- قلته ولم تسمى ، كنت تساعدن شقيقى فى البحث عن ملابسها

- آه معذرة !

- وخرجت للمدرسة ولم أتلق قبلة الصباح ، ولم تعطينى الفرصة

لتقيلك .

- يا إلهي إذن الآن قبلتان ! ولى قبلتان !  
- فات الأوان ! كان اليوم كله في المدرسة ، بعد كل هذا ، سخيفا  
جدا !

- إنه لمن المؤسف أن أسمع هذا .  
- ورجعت فلم أجدك بالبيت ، ولم أجد من يعرف أين أنت ولا متى  
تعودين ؟

- قلت لك أين كنت .. اضطررت لهذا الخروج !  
- وعندما عدت صرخت في ، لأنني كنت أشاهد التلفزيون .. مع أنني  
كنت أنجزت كل واجبات المدرسة !  
- كنت متعبة ، لم أكن قادرة على الاستماع لشيء ، لكن ، لماذا كل قائمة  
المضايقات هذه ؟ .

- ( يضحك ) ، أنت سألت يا أمي : ماذا دار في يومي ؟  
- آه ! هيا ننسى كل هذا ، ستضحك كثيرا عما حدث عند خالتك ..  
ويشمل هذا الحوار كل ما في نفس الصغير ، ويجعله يغمض عينيه في  
ارتياح ، ولنا أن نتصور لو أنه نام وكل هذا في نفسه تجاه أمه ! إن اليوم الطويل  
المضني قد يتكرر ! وقد يصبح هو الشيء العادي ، الأمر الذي يرسب الكثير في  
نفس الصغير ، ومن هنا كان استعراضنا اليوم في حياته يهدف للكشف عن  
برنامج هذا اليوم ، وكيف نثرى من لحظاته ، ونجعل ساعات وجودنا بين أبنائنا  
أكثر إمتاعا لنا ، ولهم ؟ وقد يدور حوار آخر كهذا :

- كيف كان يومك ؟  
- رائعا يا أمي ! صحت قبل أن تدق الساعة ، وكنت أول وجه أراه .

وكنت مبتسمة كالمعتاد .

- وصباحك قبل المدرسة ؟

- أحيانًا أجد كل شيء سهلاً ، وأرتدى ملابسى وأفطر فى لحظات بفضل

النظام الذى وضعته لنا !

- واليوم الدراسى ؟ والمعلمون ؟

- كل شيء كان موفّقًا . وعندما عدت ووجدت طبق المفضل على المائدة

أدركت أنك تحبينى وتفكرين فىّ خلال غيابى فى المدرسة !

وهكذا يمضى الحوار حلّوا يقطر حبًا ، يملأ القلوب بالأمل ، ويفعم الصدور

بالبهجة ، إنها لحظات لا تنسى فى حياة الصغير ، وهى مشبعة للأم والأب ،

فلماذا لا نحرص عليها ؟ كلنا فى واقع الأمر فى حاجة إلى (حكاية ما قبل

النوم) ، سواء كان اليوم ثقيلًا مملًا مضيئًا ، أو كان ظريفًا لطيفًا سعيدًا !

## غيرة الأطفال

أكبادنا والغيرة : قضية مطروحة دائماً ، ويجب ألا نغفل عنها ، ولا بد أن نحاول أن نحل محلها المحبة والتعاون والتواد ، وإلا فإنها - أى الغيرة - ستذهب بهم للطرف الآخر . الحسد ، وله فى تاريخ الإنسانية مآس مفرجة ، فكلنا يذكر أن أول حادثة قتل كانت بسبب الغيرة بين الشقيقين : قابيل وهابيل . وحكاية سيدنا يوسف وإخوته الذين حقدوا عليه معروفة . ودراستنا للغيرة تكشف أن وراءها دائماً تفضيل الأب لواحد من أبنائه ! والأطفال يحبون قراءة قصص الغيرة والمنافسة والثأر ، وهى تثيرهم وتمس مشاعرهم والغريب أنهم لا يتعاطفون دائماً والضحية !

\* \* \*

وأخطر لحظات الغيرة تكمن فى قدوم طفل جديد !  
- إننا نحبك كثيراً لأنك ولد رائع ، ولهذا قررت أنا وأبوك - أو أنا وأمك - أن نجيء بطفل آخر مثلك تماماً ! إنك ستحب هذا الطفل الجديد ، إنه سيكون طفلك ، كذلك ستكون فخورا به ، سيكون لديك دائماً من تلعب معه ، وتداعبه !

هذا الإعلان للخبر غير صادق ؛ إذ يجب أن يتفادى الآباء من هذا الشرح المطول غير المقنع ، فما لا شك فيه أنه أمر يثير الغيرة والحسد والمنافسة .. رضينا

أم أيتها ! إنها أولى مشكلات الطفل التي يواجهها في الحياة على الأرض ،  
ويحتاج فيها للمساعدة بدلا من أن تكون مجرد عاطفين ! إن الطفل سوف يرد  
على هذا البيان الطويل قائلا لنفسه :

- إذا كانا يجانبني حقيقة فإنه ما كان يجب عليهما أن يبحثا عن طفل آخر  
ويبحثا به ! لا بد أنني لست شيئا حسنا ، ولا جميلا بقدر كاف ، لذلك يريدان  
أن يستبدلا بي هذا الوافد الجديد الذي سيحبه أكثر ! ويرعيانه أكثر !  
وسأكرهه !

هذا هو ما يفكر فيه الصغير ! إن كائنا آخر سيقاسمه حب أمه ، والطفل  
يعرف أن اقتسام الشيء يعني أن نصيبه سيكون أقل ! مثل اقتسام قطعة من  
الحلوى أو الكعك ، هذا شيء يقلقه ، وإذا تصورنا أن هذا الشيء سوف ينتج  
له الطفل فإننا واهمون وغير منطقيين ، وفترة الحمل تؤكد لديه الشكوك ويهمس  
لنفسه :

- إن هذا الصغير قبل أن يصل قد شغل أمي ! إنها أصبحت منذ الآن  
أقل اهتماما بي ! إنني لا أستطيع أن أجلس « في حجرها » بسبب هذا الطفل  
المتخفي في بطنها ! ومع ذلك فهو يؤكد وجوده : هذا المقتحم الدخيل  
« الحشرى » !

والمواقع أنه في استطاعتنا أن نعلن عن وصول الطفل الجديد بدون طبول أو  
أبواق عالية أو موسيقى صاخبة ! بل من الضروري أن نقدم الخبر في بساطة  
شديدة ، يكفي أن نقول :

- سوف يكون لدينا طفل جديد في الأسرة قريبا .

وبالطبع سوف يكون هناك رد فعل سريع ومباشر ، وسوف تكون لديه عشرات الأسئلة تدور في رأسه .. وسوف يكون عنده أشياء مقلقة يجسها في صدره ، ومن حسن الحظ .أنا كأباء نستطيع أن نساعد الأبناء لكي يعبروا هذه المشكلات ، ولا يستطيع أحد ، ولا يستطيع أى شيء أن يغير من حقيقة أن الطفل الجديد يشكل تهديداً كبيراً لأمن الطفل ! وعلى هذا فإن التوتر الحادث للطفل يتوقف على حكمتنا ومهارتنا ، ولدينا مثال نرويه يوضح أمثل أسلوب لتقديم طفل جديد . يروى أحد الأبناء :

- عندما ولد شقيقى أخذنى أبى من يدى ، لكى أراه ، وحتى اليوم أستطيع أن أذكر الوجه الأحمر لذلك الطفل الراقد على ذراعى أُمى ، وصوتها يهمن لى :

- إنك يا عزيزى من الآن مطالب بأن تكون أفضل وأحسن ، فقد أصبح لدينا طفل آخر ! إنك لم تعد الطفل الوحيد ، ومن هذه اللحظة ستكون أنت وشقيقك الطفل الصغير قد أصبحتما اثنين بعد أن كنت الوحيد من قبل ! - وأعتقد أننى خلال عمري كله من ذلك الحين للآن وأنا حريص كل

الحرص على ألا أتفوق على شقيقى أو أحيل حياته إلى جحيم ! وبالعكس . هناك مثل آخر يوضح كيف يعين هذا التقديم ، ويساعد الطفل على التغلب على مشاعر الغيرة التى تتأبه نتيجة قدوم طفل جديد ، تروى إحدى الأمهات :

- عندما رأتنى ابنتى حاملا - وكان عمرها خمس سنوات - كانت تبدو فرحة مبهجة ، لقد رسمت شمسا ساطعة ، وزهوراً ملونة للحياة مع الوافد الجديد ! ولم أشجع هذه النظرة الوردية للحياة ، فهى نظرة لجانب واحد منها ،

لذلك قلت لها :

- مما لاشك فيه أن ذلك سيكون شيئًا ظريفًا أحيانًا ، ولكنه في أحيان أخرى سبب مشاكل عدة ، إنه سوف يبكي ويزعجنا ، سوف يبلى ثيابه وفراشه ، إنني سوف أكون مضطرة لأن أغسل له جسمه ، وأطعمه وأعتني به ليل نهار ، قد تشعرين - يا عزيزتي - أنني إلى حد ما قد تركتك وحدك ، وربما تشعرين بالغيرة وربما قلت لنفسك :

- إن أمي لم تعد تحبني ! إنها تحب الوليد الجديد أكثر مما تحبني !  
وتضيف الأم :

- عندما تتناكب هذه المشاعر أرجو أن تجيئي لتخبريني . وسأعطيك ساعتك مزيدًا من الحب ، لذلك أرجوك ألا تقلقي ، إنك ستكونين على ثقة من حبي الكبير لك !

إن الكثيرين من الآباء يترددون في استخدام هذا الأسلوب في تناول المشكلة ، إنهم سوف يخافون وضع أفكار خطيرة مثل هذه في أدمغة الأطفال ، وعلى هؤلاء الآباء أن يتيقنوا أن هذه الأفكار ليست جديدة بالكامل بالنسبة للأطفال ، وتأثيرها لا يمكن إلا أن يكون جيدًا ؛ لأنها تعكس فهم المشاعر الإنسانية ، إنها تغسل الشعور بالذنب ، وتستدعي المودة والقرى ، ومن الأفضل إذا شعر الطفل بالحرية أن يعبر بصوت عال عن غضبه لهذا الوليد الجديد ، نعم ، هذا أفضل من أن يظل غضبه همس النفس وحييس الصدر ! لو حدث أن كبت مشاعره فقد تظهر في أحلامه ، كما قال صغير :

- حلمت أمس أني أدفع بأخي من الدور الخامس !  
وقد يصحو الصغير من حلمه صارخًا ، بل قد يجرى إلى فراش أخيه ليفتش

عنه ويطمئن عليه وعلى أنه مازال هناك ! ويسعده أن يراه سليماً ، حتى لا يعرف الأبوان أنه لا يحبه !

والواقع أن الأحلام تتحول إلى كابوس ثقيل ، ويترجم الصغير مشاعره في صور بدلا من أن يرويها في كلمات ، والأخيرة أفضل ، ولدينا حكاية تروى في هذا المجال :

- أصيب ابنا ، وعمره خمس سنوات ، بعد مولد شقيقه بضيق في التنفس ، وظننا أنه يجب شقيقه لدرجة الموت ، ويبدو أن تعبير « لدرجة الموت » هو أصدق تعبير ، وقد وجد الطبيب أنه ليس مصاباً بمرض عضوي ، فتم تحويله إلى مستشفى أمراض نفسية ؛ لكي يستطيع أن يعبر عن غيرته وغضبه بالكلمات ، بدلا من أزمات التنفس !

إن بعض الأطفال يعبرون عن غيرتهم بإصابتهم بالسعال ، ويثور تظهر على جلدهم : بعضهم يبيل فراشه في أثناء نومه ، إنهم يعبرون بوسيلة ما إذا عزت عليهم وسيلة الكلام . بل إن بعضهم قد يصبح مخزناً : يكسر الأطباق بدلا من أن ينطلق صوته صاخباً معبراً عن الغضب ، وبعضهم يقضم أظفاره أو يشد شعره تعويضا عن الرغبة في عض شيء آخر أو شدة وجده ، ولهذا نفضل دائماً أن تكون الكلمات والعبارات هي وسيلة التعبير ، والآباء مطالبون بتيسير ذلك لهم حتى لا تحبس مشاعرهم ، بل تنطلق لتريح !

### مظاهر الغيرة

أكبادنا : لديهم مشاعر غيرة قد لا تلاحظها النظرة المجردة ، وعلى الآباء أن يدركوا ذلك وأن يعرفوا أن للغيرة عدة وجوه ، ومظاهر مختلفة ، وهي تعبر عن

نفسها بوسيلة ما مهما حاول الأطفال إخفاء هذه المشاعر التي قد تظهر في الرسم على الجدران .

وعدم التنفيس عن الغيرة في الطفولة له ثمار مرة الطعم تظهر من حولنا نحن الكبار في المنافسات المحتدمة ..

إنها تظهر مع ذلك السائق الذي لا يريد لسيارة ما أن تسبقه على الطريق ، وتبدو مع ذلك الذي لا يريد أن يخسر دور شطرنج ، أو هذا الذي يراهن بحياته ليثبت وجهة نظره في أمر ما ، أو هذه التي تريد أن تبرز وتتفوق على زميلاتها في كرم الضيافة ولو كلفها ذلك فوق طاقتها ! وتبدو في هذه المرأة التي تخسر المعركة قبل أن تدخلها ، والتي تجلس في المقعد الأخير ، والتي لاتطالب حتى بحقوقها الطبيعية ! إن الغيرة تطع حياة الإنسان وتؤثر في شخصيته ، وسناقش هنا نقاطاً ثلاثاً :

• أسباب الغيرة وأصولها .

• الدوافع والانتجاهاات التي تثير الغيرة .

• كيف نعالج الغيرة ونخفف من آثارها ؟

وقد يرى البعض أن النقطة الأخيرة ذات أهمية خاصة ، لذلك نبدأ بها ، ونقف عند تعبير بعض الأطفال بصراحة موجعة عن غيرتهم ، فقد يَصْبِغُونَ أحاسيسهم بشكل غير دبلوماسي قائلين :

● أمي ، هل يموت الأطفال الرضع الصغار ؟

● لماذا يا ماما لا نعيد هذا الصغير للمستشفى ، أو نلقي به إلى صفيحة

القمامة ؟

بل إن بعض الأطفال قد يعلنونها حرباً حقيقية على الصغار الرضع ،

ويدخلون في عمليات عسكرية ضد هذا الغازى ، فتمتد أيديهم إليهم كأنما يرتون عليهم ، أو يمسحون في حنان جسمهم ، ثم تغوص أصابعهم في لحمهم بلا شفقة ولا رحمة ، يقرصونهم أو يؤذونهم بكل وسيلة ممكنة - والغيرة الأخوية قد تسبب عاهات مستديمة ، وهذه الهجمات الضاربة - جسائياً أو كلامياً مرفوضة تماماً ، ويجب على الآباء وقفها بكل السبل ، لأنها تؤذى الطرفين : الجانى والجنى عليه ! وكلاهما يحتاج إلى حمايتنا : واحد نحمة من الآخر والآخر نحمة من نفسه وميوله ! ومن الواجب أن نحى الأول دون أن تؤذى الأخير : فعندما تضبط صغيراً في الثالثة يؤذى أخاه الصغير الرضيع علينا أن نقولها في وضوح :

● يبدو أنك لا تحب شقيقك !

● الظاهر أنك غاضب منه ، حائق عليه !

● أرى إلى أى حد تضيق به ؟ وسأراقبك وأشاهد ما تصنع !

ونستطيع أن نسلم للطفل ( عروسة ) كبيرة لينفس فيها عن غضبه ، قد يضرها .

يدفع بإصبعه إلى عيناها ، يلقى بها إلى الأرض ويطؤها بقدمه ! علينا ألا نقترح على الصغير ما يفعله ، مهمتنا أن نراقب بعيون محايدة ، ونجواب بكلمات متعاطفة ، ويجب ألا نُصدِّم لعنف وقسوة المشاعر التي يبيدها الطفل في هجاته ، إنها مشاعر صادقة وأمينة ، والتنفيس عنها لا يضر ، ومن الأفضل أن ينصرف إلى الأشياء بدلا من الصغير الذى لا حول له ولا قوة ! ويجب أن تكون تعليقاتنا قصيرة وبسيطة مثل :

● إنك قد أطلعتنى على حقيقة غضبك يا عزيزى .

● آه ! الآن عرفت. ماما الأمر.

● من فضلك حين تكون غاضباً حانقاً تعال إليّ ، وقل لي : ماذا يفضبك ؟

إن هذا الفهم يعاون كثيراً في تخفيف حدة الغيرة أفضل مما يفعل العقاب أو السبب أو الشتم ، ومما لا شك فيه أن موقفاً كهذا يستحق منا النقاش ، قالت إحدى الأمهات :

عندما ضبظت ابني - وهو في الرابعة - يسحب شقيقته الرضيعة من قدميها انفجرت صارخة فيه : ما هذا الذي تفعله ؟ أتريد أن تقتلها ؟ هل تريد أن تقتل أختك ؟ ألا تفهم أنه من الممكن أن تصيبها بعاهة عمرها كله ؟ هل تريدها مقعدة أو مشلولة ؟ كم مرة قلت لك : إنه يجب ألا تخرجها من فراشها ، وإنه يجب عليك ألا تلمسها مرة أخرى !

هذا الموقف من جانب الأم لا يفيد ، ولا يرجع الطفل عن تصرفاته الخاصة حتى الأطفال الكبار يجب أن يواجهوا بمشاعر الغيرة التي يحسونها ، لا بد أن نكشفها لهم ، ومن الممكن أن يكون الحوار معهم مفتوحاً بشكل أوسع وأكبر ، نقولها ببساطة :

● من الواضح أنك لا تحب هذا الصغير ، وأنت كنت تمنى لو لم يولد ! وكنت تود لو أنك كنت وحيدنا ، وكنت ترجو أن تستولى على كل الحب والرعاية ، إنك تغضب حين ترانا نهم به ، إنك تريدنا معك وحدك باستمرار ! ولكننا لن نسمح لك بأن تؤذيه ! إنك تستطيع أن تخبرنا بما تشاء إذا أحسنت بالضيق منه وبإغفالنا لك ! نخصص لك وقتاً إضافياً حتى لا تشعر بالوحدة والضيق !

إن الطفل في الواقع يجب أن يكون وحيد أبويه ، « ألا يكون هناك على الحجر سواه ! » كما تقول العامة في وطننا ، وهذا هو أصل الغيرة وسببها الأساسي ، إنه يريد أن يكون بلا منافس ، وعندما يصل الأبناء الآخرون يدخل معهم في منافسة من أجل مزيد من الحب من الأبوين ! قد تكون منافسة خفية أو معلنة ، ويعتمد ذلك على تناول الأبوين لموضوع الغيرة بعضهم يغضب لها .

- إنه لذهل ، إنهم لا يتعاملون كأشقاء ولا كأصدقاء ! إنني أكاد أفقد صوابي لهذا ، إنني أعاقبهم لهذا الصراع المستمر بينهم ، ولكن العقاب غير مجد ! وبعض الآباء يذلون جهودًا مضنية من أجل التفادي من أسباب الغيرة ، ويحاولون أن يقنعوا الأبناء بأنهم يحبونهم حبًا متساويًا ، ولذلك فلا مبرر للغيرة ! - أنتم أشقاء ، كيف يمكن أن نفضل واحدًا على الآخر؟ مشاعرنا تجاهكم متساوية تمامًا ، لا تنقص ولا تزيد ، في كل شيء نساوي بينكم : في الملابس ، في مصروف الجيب ، في الهدايا ، في التزهات - في كل هذا عدالة ومساواة مطلقتان !

لكن لا هذا الموقف ولا ذلك يخفف من الغيرة : لا العقاب الشديد ولا المساواة الكاملة تحل المشكلة وتوقف سعي أى منهم لمزيد من الحب والرعاية ! وعندما لا يتحقق هذا تبدأ الغيرة ! وعلى كل سواء انطقت نيران الغيرة بسلام أو اندلعت حريقًا فالأمر يتوقف على اتجاه الأبوين وتصرفها ! ولنجب الآن عن ذلك السؤال :

● ما دوافع الغيرة؟ ما أسبابها الأخرى؟

في الظروف العادية يشكل سن الطفل ونوعه - إن كان ابنًا أو بنتًا -

الدوافع الرئيسية للغيرة : الابن الأكبر يُحسد على أن له مزايا أكثر ، ويحترم أكثر ، وله استقلال أكبر! الأصغر يغار منه لأنه يُحمى ويرعى بشكل أكبر وأكثر ، البنت تغار من حرية الولد ، والولد يغار من الاهتمام الأوضح بالبنت ! وتشتد نيران الغيرة حين يعطى الآباء هذه الفروق أهمية ، ومن حق الصغير أن يغار إذا أحس أن الكبير له أفضليته ، والعكس صحيح ! وإذا قوينا ذكاء طفل وفضلناه لهذا ، أو لجمال شكله أو بقدراته ومواهبه فسيثير هذا الغيرة ، وخاصة إذا انتهت منا على الطفل عبارات المديح لهذه الصفات ! يجب معاملة الإخوة سواسية ، الميزات التي هي أكثر تعنى مسؤوليات أكبر . بمعنى أن الابن الأكبر يحصل على مصروف أكبر ، ويتأخر في الذهاب لفراشه ، الصغير ومحتج ، فنقول له :

● إنك تريد أن تصير مثل أخيك ، وتتمنى لو أنك كبير مثله ، لكن ها

قد حان موعد نومك !

وقد يطلب الآباء من بعض الأبناء التضحية من أجل أشقائهم :

● اترك سريرك ، وتم أنت على الأريكة الليلة .

● لن نستطيع أن نشترى لك مكتبًا هذا العام ، لأننا في حاجة إلى نفود

من أجل شقيقك .

إن الطفل هنا يحس أنه حُرْم ، وأن الحرمان من أجل أخيه ، فيغار منه ، كما أن هؤلاء الذين يتصورون أن العدالة المطلقة ممكنة فإنهم دائما يفشلون : يجب أن يكون في الاستطاعة الآن أن نعطي واحداً من الأبناء تفاحة أكبر فإنه لشيء لا يطاق ذلك الجهد الذي يبذل من أجل مساواة مستحيلة عاطفية ومادية ؟ إنها تدفع صاحب المحاولة إلى توتر وتمزق عنيفين نتيجة قياسه لدرجة العطاء في

الحب ، لكن الواقع أن حب الآباء لكل ابن من أبنائهم حب خاص متميز .  
التركيز على نوعية الحب ، وليس على كميته .. إننا لا نحبهم بالطريقة نفسها  
ولاداعي للتظاهر بذلك ، إننا نحب كلا منهم على حدة بنوع معين ، بنوع بذاته  
من الحب . ويجب ألا نغفل هذا ، لأنه في حالة المساواة سيمسك كل طفل  
ترموتراً يقيس به حرارة العواطف ، ونجد نفسنا أمام أطفال يقول كل منهم في  
كل لحظة :

● هذا ليس عدلاً !

● إن هذا ظلم !

يجب ألا نفعّل لضجيجهم وإعلاناتهم هذه ، إنها « يروباجندا » .. علينا  
ألا نهتم بالدفاع عن أنفسنا ، فلنقاوم اضطرابنا في كل لحظة إلى تبرير مواقفنا ،  
ولنقاوم محاولتهم لجونا للنقاش الذي لا ينتهي حول قراراتنا . عادلة هي أم لا ؟  
ويجب ألا ندفع إلى تحديد عواطفنا وقياس حبتنا من أجل العدالة فنقول لكل  
منهم : إننا نحبه حباً خاصاً ، وليس متساوياً ولا عادلاً ، فلنعط الطفل أنفسنا  
لفترة . له وحده ، ولا نشغل بغيره حين نكون معه بالخارج ، لا نتحدث عنهم  
باستمرار أو نشترى هدايا لهم : لتكون لحظتنا معهم لا تنسى . وليست مقسمة  
مع آخرين !

## الخوف والقلق عند الأطفال

أكبأنا : عند كل منهم نصيب من الخوف والقلق ، والآباء والأمهات يجب أن يدركوا هذا ، ويجب أن يعرفوا مصادر هذا الخوف والقلق ، إن بعض الأمهات يتساءلن :

● لماذا يبدو ابني خائفاً دائماً ؟ ليس هناك مبرر لهذا ! ولقد ذهب الأمر بأحد الآباء أن قال يوماً وهو يخاطب طفله القلق :

● كف عن هذا الكلام الفارغ ! أنت تعلم جيداً أنك سعيد جداً ! ومن الضروري والمفيد أن نبحث في مصادر القلق عند أبنائنا ، لكي نقدم بعض سبل علاج الخوف ، وبعض وسائل تخفيف القلق . وأول هذه المصادر يرجع إلى الخوف من أن يفقد حب والديه ، والقلق من أن يهجره ! ولقد وصفها جون شتاينبك بشكل درامي في روايته « شرق عدن » قال :

● إن الرعب الحقيقي الذي يعانيه الصغير هو ألا يكون محبوباً ، إن رفضه هو جهنم التي يخشاها . ومع الرفض يأتي الغضب ، ومع الغضب يرتكب بعض جرائم النار ! أحد الأطفال كان يلتمس الحب ولم يجده فما كان منه إلا أن راح يركل القطة ، وهو يخفى جرمه هذا ، وهناك طفل ثان كان يسرق من أجل أن تجعله النقود محبوباً ، أما الثالث فكان يريد أن يهزم العالم كله ؟ هناك جرم متكرر ونار !

إن الطفل يجب ألا يهدد أبداً بالهجران ! ولا بد أن نخبره أن نشره لهذا من خلال نكتة أو فكاهة ، ويجدر بنا ألا نقولها في لحظات الضيق والغضب ! يترامى إلى آذاننا أحياناً ونحن في الشارع أو في السوق صوت أم تصرخ في طفلها :

- إذا لم تأت حالا فسأتركك .

مثل هذه العبارة تجعل الفزع ينشب أظفاره في نفس الصغير ، إنها تثير خيالاته في أنه قد يترك وحيداً في هذا العالم ، ومن الأفضل بدلا من تهديده بهذه العبارة أن نمد له يداً لنسحبه معنا !

وبعض الأطفال يقلقون جداً إذا عادوا من المدرسة ولم يجدوا أمهاتهم ؛ إذ تصحو لديهم مخاوفهم من أن تهجرهم أمهم ، لذلك نصحتنا بضرورة ترك رسالة لهم ، وعندما تضطرنا الظروف للبعد عن الأبناء الصغار يجب أن نمدد لهذا ! إن بعض الآباء يجدون من الصعوبة إقناع الأبناء باضطرارهم للبعد عنهم في مهمة أو رحلة ، فيتسللون ليلاً أو في أثناء اليوم المدرسي خوفاً من رد الفعل على أطفالهم ، ويتركون علائم شرح الأمر ، ويبيكى الأطفال ، وقد ينتظرون الآباء عند النافذة .. والتفادى من ذلك كان ممكناً بالتمهيد والشرح ، لا بالكلمات فحسب ، بل عن طريق أوثق ، ونفضل أن ندع إحدى الأمهات تحكى تجربة لها في هذا المجال :

- قبل أن أدخل المستشفى لإجراء عملية جراحية ، بأسبوعين كاملين - أخبرت ابنتي بذلك ، وعمرها كان ثلاث سنوات ، ولم تبدأ اهتماماً كبيراً بالأمر ، ولكنني لم أخدع باللامبالاة التي أبدتها ، واقترحت عليها أن نلعب لعبة اسمها « ماما ستذهب إلى المستشفى » .. وأتينا ببعض العرائس والدمى اشتريناها

خصيصًا لهذه المناسبة ، بينها طيبة وممرضة ، وخلال اللعبة قلت : إن ماما ستذهب للمستشفى لتعود سليمة معافاة .. وسوف تسأل « ليلي » أين ماما ؟ أريد ماما ، قد تبكى ، لكن ماما فى المستشفى ، لتعود بخير وصحة جيدة ، وهى هناك تفكر فى « ليلي » وليلى لا تنسى ماما وتعود ماما للبيت وتفرح ليلي ! وقد تكررت هذه التمثيلية بين الأم والابنة . كانت الأم فى البداية تتكلم كثيرًا ، ثم بدأت الابنة تتحدث ، وأوصت الأطباء والممرضة بماما ، وأنهت الابنة التمثيلية بأنها فى انتظارها فى البيت حين ترجع من المستشفى . وقبل أن تغادر الأم البيت قامت بأشياء كثيرة من بينها وضع صورة كبيرة لها تؤنس الصغيرة ليلي حتى تعود إليها ، فالبعد من أكثر الأشياء إثارة لقلق وخوف الأطفال ، ويأتى بعده فى المرتبة :

#### ● الشعور بالذنب .

ذلك الشعور الذى يفرسه الآباء فى نفوس الأبناء ، وهذا الشعور ، كالملمح يعطى الحياة طعمًا ، ويرد الإنسان لطريق الصواب ، ويشكل للصغير ضميره ، لكنه يجب ألا يكون الأساس ، وعندما يتخذ الطفل قاعدة أخلاقية أو سلوكًا اجتماعيًا فهناك مجال للشعور بالإثم أو الذنب ، ولكن عندما نحول بين الطفل وبين أن تكون لديه مشاعر سلبية أو أفكار سخيفة فسوف يحس بالإثم والقلق ! وعلى الآباء الذين يريدون التفادى من ازدياد وطأة الشعور بالذنب أن يعالجوا خروج أبنائهم عن الخط المرسوم بالطريقة التى يعالجون بها نفسها سيارتهم إذا تعطلت ! إن ذلك لا يعنى ذنبًا ارتكبه صاحبها ، إنه فقط يشير إلى ما يجب إصلاحه دون لوم يوجه للسيارة ، أو للأصوات الصادرة عنها ، بل هو يفيد منها فى الإجابة عن سؤال يوجهه لنفسه :

● ما مصدر الخطأ؟ ما سبب المتاعب؟ من أين يصدر هذا الصوت النشاز؟ إنه لما يريح الأطفال أن يعرفوا مسبقاً أن لديهم الحرية الحقيقية لكي يفكروا كيفما يريدون. دون أن يهددوا بفقد حب آبائهم لهم ، وما يساعد في هذا المجال عبارات كهذه العبارات :

● إنك نحس الأمور بشكل ، وأحسها أنا بشكل آخر؟ إننا نختلف في مشاعرنا تجاه الموضوع .

● يبدو لي أن رأيك صائب . رأيي مختلف . إنني أحترم رأيك ، لكن لي وجهة نظر أخرى .

وقد يخلق الآباء لأبنائهم الشعور بالذنب إذا استعبدتهم الكلمات ، وعذبتهن العبارات ، وقدموا تفسيرات وتبريرات غير ضرورية .. وهذا يحدث كثيراً من « الآباء المصريين » ، الذين يعتقدون أنهم لا بد أن يتجهوا للمنطق والإقناع حتى لو كان الموضوع واضحاً لا يحتاج إلى نقاش أو جدل !

● كان محمود - ابن السنوات الخمس - ضيق الصدر بمعلمته في المدرسة ، لأنها تغيبت أسبوعين عن المدرسة لمرضها . وفي يوم عودتها خطف حقيبتها وجرى في فناء المدرسة وتبعته المعلمة والأم .. قالت له المعلمة :

● هذه حقيقتي ! أعطني إياها .

وقالت له الأم :

● أنت تعلم جيداً يا محمود أن هذه الحقيقة ليست حقيقتك ، إن فيها دواء معلمتك .. وإذا لم تعدها فقد تصاب بالبرد مرة أخرى وتتغيب عن المدرسة وأنت بالطبع لا تريد هذا .

إن المشكلة أن مثل هذا الشرح قد يدفع الصغير إلى الشعور بأنه تسبب في

مرض معلمته ، إنه شرح طويل وممل وضار ، كل ما كان مطلوباً في هذه اللحظة استعادة الحقيبة ، وحقيبة في اليد خير من عشر عبارات في الفناء لشرح ضرورة إعادتها ! قد تناقش المعلمة فيما بعد الأمر مع محمود عن السرفى غيابها ، وتوضح له كيف يمكن تقبله حتى لا يصير الغياب مصدر قلق للطفل ، لأنه يتصور نفسه متسبباً فيه ، مذنباً ، آثماً ، ويأتى بعد الشعور بالذنب مصدرًا للقلق - ذلك الخوف الناتج عن أفكار الاستقلال الذاتي للطفل ، واستصغار منزلته ومكانته والسؤال :

● متى يحدث هذا ؟

يحدث هذا عندما يمنع الطفل من الاشتراك في النشاطات ، وتحمل المسئوليات التي يستطيع القيام بها .. ويكون رد الفعل الداخلى لهذا الغضب الذى يدفعه للتأثر والانتقام ، وهذا بدوره يولد الشعور بالأثم أو الخوف من العقوبة .. والنتيجة المرتقبة هى : القلق ، وتنصحنا أم مجربة فنقول :

● إن الأطفال الصغار ليسوا قادرين على السيطرة على بعض المهارات بسرعة ، هم يستغرقون وقتاً طويلاً فى عقد رباط حذائهم ، أو فك أزرار قمصانهم ، ولكن مساعدة لهم يمكن أن نقدمها لهم فى هذا المجال هى تعليقات خفيفة حول صعوبة مايقومون به .

● إنه ليس سهلاً أن يفك الإنسان عقدة رباط الحذاء !

مثل هذه التعليقات تساعد الطفل سواء نجح فى عمله أو فشل : إذا نجح فإن هذه العبارة ترضى غروره ، وإذا فشل فإن عبارة كهذه ستكون خير عزاء له ، لأن الأم - أو الأب - قالت له : إنها مهمة ليست سهلة .. هذا بفضل أن خبرات الأطفال العاطفية تقود إلى مزيد من الارتباط الودى بالأبوين ، ولا

بحس الطفل بالعجز إذا لم يحقق النجاح في أمر ما .. والمهم ألا يسيطر الكبار على حياة الطفل باحتياجهم « للكفاية » .. (الكفاية) و(القدرة) من أعداء الأطفال .. إنها تكلفهم الكثير عاطفياً .. إنها تسلبهم جهدهم ، وتحول بينهم وبين النمو وقد تقود إلى انهيار عاطفي .. فلنحذر من أن نجعلها مقياساً لتقدير الطفل ، فها من أخطر أسباب إحساسهم العميق بالقلق والخوف !

### مصادر خوف الأطفال وقلقهم

أكيادنا : يحسون الخوف والقلق بسبب الإحساس بالذنب ، وإنكار استقلالهم الذاتي ومترلتهم الخاصة من جانب الكبار ، بجانب الخوف من أن يفقدوا حب والديهم وقلقهم من هجرانها لهم ! يضاف إلى ذلك أن النزاع بين الأبوين يسبب لهم مزيداً من الخوف والقلق : إن بيتهم مهدد ، كما أنهم قد يشعرون بالإثم ؛ لأنهم قد يتصورون أنهم وراء الصراع بينها وهم أى الأطفال - لا يبقون محايدين في الحرب الأهلية بين الأبوين ! وهم أحياناً مع الأب وأحياناً مع الأم .

وهذه اللحظات المذبذبة في منتهى الخطورة على كلا الأبوين : نفسيتهما وشخصيتهما .. وقد يرتفع صوت طفلة تقول :

- أنا مع ماما !

ويعلو صريخ طفل قائلاً :

- أنا مع بابا !

عندئذ قد ينمو الصغير وهو معاد لكل من ليس من جنسه ، وإذا رفضت

الابنة أمها ورفض الابن أباه نما كل منها دون أن يكون لديه مثل أعلى يحتذيه .. وخلال الصراعات الأسرية يستخدم الآباء كلمات غير تربوية مثل : الغش ، والكذب ، والخداع ! ولنا أن نتصور مدى تأثير الصغار بهذه الكلمات ، فضلا عن ازدواجية ولائهم ! ولاشك أن حماية أحد الأبوين من الآخر وصراعها معا - لا بد أن يترك بصمة على شخصية الطفل ، بل قد يستقبل الصغير هذه الصراعات ويهدد ويتجسس ، ويعيش في عالم تسوده التمزقات .. وهذا القلق الناجم عن المشاكل الأسرية موضوع قد يطول فيه الحديث ، ويحتاج إلى وقفة أخرى .. كل ما هنالك أن الإشارة إليه هنا ضرورة خلال دراسة سريعة لمصادر القلق ، وينجم بعضه من القيود المفروضة على حركة الطفل .

- احذرى الأثاث ، لاتقفزى على المقعد .

- كف عن الجرى داخل الشقة .

إن بيوتنا الحديثة ضيقة ، وهى تمزق الصغار لأنها تحد من حركتهم ونشاطهم الضخم لضيق المساحة ، فالخوف على الأثاث وتكديسه يحول بين الصغار والجرى والتسلق والقفز .. وتبدأ التعليمات حول هذا الأمر من سن مبكرة : فرفض أن يقف الصغير في عربته ، ومرفض أن يقفز في مهده ، وغير مقبول أن يتسلق الدرج ، أو يجرى في الغرف الأمر الذى يضايقهم ويسبب لهم التوتر الذى يخلق القلق ! والحل يكمن في وصف المشكلة ذاتها : الأطفال في حاجة للانطلاق ، هم في حاجة إلى مساحة ومكان ، إلى فناء وحديقة ، لتستوعب نشاطهم وحيوتهم الفائقة ! وسؤال :

هل من مصادر أخرى لقلق الأطفال ، فقد يمكن التفاضى منها ؟

كثيرة لاتحصى مصادر قلق أكبادنا : إنهم مثلا يقلقون من انتهاء حياتهم ،  
بالنسبة للكبار تكمن مأساة الموت في أنه النهاية الأبدية والأخيرة لكل الآمال ،  
وهو أنه لا يمكن التفادى منه فلا أحد يتصور كيف ومتى يأتيه الموت ؟ والنفس  
الإنسانية مزيج من الذاكرة والآمال : ما من مستقبل ، والإنسان لا يستطيع أن  
يرى نفسه بلا مستقبل ، وهذا ما يجعله يواصل الحياة .. وإذا كان الموت لغزاً  
بالنسبة للكبار فهو سر ملفوف في ضباب بالنسبة للصغار ! إنهم لا يستوعبون أنه  
أبدى ، إنه يشعر بالعجز وعدم القدرة على التأثير في الأحداث .. برغم الدموع  
والبكاء لا يعود العصفور الذى انتهت حياته .. إنه يشعر أن عصفوره هجره  
ويتصور أنه لو كان يحبه لبقى معه - وهناك سؤال قد يوجه كثير من الأطفال :  
- بعد موتك يا أبى هل سنظل نحبنى ؟

ويحاول بعض الآباء أن يحموا أطفالهم من تجربة الحزن الشديد على من  
يفقدونه ، إن الأب يستبدل بسرعة بالنسكة الميتة في الحوض أخرى ،  
وبالعصفور في القفص آخر ! وقد لا يلاحظ الطفل الفرق .. وهناك سؤال :  
• ماذا يتعلم الطفل من هذه الدروس الحزينة المبكرة ؟

قد يرى فقد عصفوره أمراً عرضياً ، لأن حبه يتحول للعصفور الجديد .  
لكن يجب ألا نسلب الصغير حقه في أن يشعر بالأسى والحزن ! إن ذلك يعمق  
إنسانيته ويلور شخصيته ، بشرط ألا يتأدى ، وبشرط أن يقبل من الآخرين  
مشاطرته الأحزان واقتسامها معه ؛ كما يحدث في الفرح والبهجة ! وعندما يقع  
حادث وفاة في الأسرة ، ولا يبلغ ذلك علم الطفل - قد يحس بقلق لا يدرك  
سره ! وقد ملأ ذلك الفراغ الحوادث بخيالات مريضة مخيفة مضطربة ، ومحس  
أنه منفصل لا عن الميت فحسب ، بل منفصل عن الأحياء أيضاً ! إن الخطوة

الأولى في مساعدة الطفل على مواجهة خسارته بفقد عزيز عليه أن نسمح له بالتعبير عن أحزانه بالبكاء والدموع ، إن مشاعره يجب أن تفرغ من صدره ، ويبدأ دورنا في تقديم العزاء والسلوى للأطفال بمشاركتهم في مشاعرهم هذه بأذن مصغية .. بل نفضل أن يوضع الآباء على ألسنتهم بعض ما يدركون من مشاعر الصغار ، ولا يجد هؤلاء وسيلة للتعبير عنها : ومثلاً لو أن الجدة ذهبت للقاء ربا ، والطفل كان مرتبطاً ولصيقاً بها قد يكون من المفيد أن يتبادل الأبوان عبارات كهذه :

- إنك تفتقد جدتك ..
- واضح أنك حزين لفقدها
- لقد كنت تحبها كثيراً وكانت تحبك .
- كنت تمنى أن تكون دائماً معك .
- كنت تود لو امتدت بها الحياة .
- إنه لمن الصعب فعلاً أن نصدق أنها رحلت .
- إنه شاق أن تتصور أنها لم تعد معنا .
- إنك سوف تذكرها دائماً .. بالخير !

مثل هذه العبارات تؤكد مشاركة الأبوين للطفل في مشاعره وأفكاره وتشجيعه على أن يقتسمها والطفل مخاوفه وخيالاته ! قد يرغب الصغير في أن يعرف : هل الراحل يؤلم الراحل ؟ وهل سيبعث يوماً ما ؟ وهل هو أو أبواه - من الممكن أن يتركوا هذه الدنيا ؟ الإجابات يجب أن تكون قصيرة وصادقة .. إن الراحل لا يتألم إنه لا يحس لأنه كالنائم ، وهو لا يعود إلا في الحياة الأخرى ، من الطبيعي أن يرحل الإنسان ، لو دامت الحياة لغيرك ما وصلت إليك !

وعندما قيل لطفلة في الرابعة - إن جدما ذهب لينام نومته الأخيرة ، سألت :

● هل أخذ بيجامته وملابسه نومه معه ؟

كما أن الصغيرة تسألت :

أرجو ألا يكون جدى غاضباً لأنى لم أقل له ( تصبِح على خير ) قبل أن

ينام ! وعندما نقول لصغير عمره خمس سنوات - إن جدته قد صعِدت روحها

للسماء وأصبحت كالملائكة دعا ربه قائلاً :

أرجو يا رب أن تأخذ إليك في السماء كل أسرة ، وتحولهم إلى ملائكة ..!

وعندما يعطى الصغير الحقائق ببساطة وصدق ، مع مشاعر حقيقية ونظرة حب

تصبح أكثر ثقة في الحياة وفي نفسه . . وهذا الفهم يجعل الأطفال وآباءهم أكثر

قدرة على استيعاب حقائق الحياة والموت . . وفي كل المسائل الهامة تتحدث

الاتجاهات بصوت أعلى مما تتحدث الكلمات .

## الدين والتربية

### ١

التربية مسئولية : البيت ، والمدرسة ، والمجتمع .. وهذه الأطراف الثلاثة ضرورية ولا غنى عنها في كل لون من ألوان التربية ، ولا بد أن تتضافر جهودها .. والنداءات تتصاعد من الهيئات الرسمية ، ومن الجماعات ، والهيئات ، ومن أجهزة الثقافة والإعلام ، ومن الصحف والمجلات ، ومن الأفراد : أننا في حاجة ماسة إلى التربية الدينية .. ونحن ندرك جيداً أنها تبدأ مع البيت ، فما من طفل يرى والده يصلى إلا ويفرش سجادة الصلاة ، ويروح يقوم ويركع ويسجد مقلداً أباه .. ونبتسم لهذا كثيراً ، وقد يرضينا ، فنشجع الصغير عليه ، وقد يتصور البعض أن تقليده لأبيه شيء غير مستحب فيها عن ذلك ، على أن هذه هي أول بذرة للدين في نفس الطفل .. والآباء والأمهات قدوة في هذا المجال : وإذا شب الابن وهو يجد من في البيت يؤدي الصلاة ، ويصوم رمضان ، ويستمع إلى القرآن الكريم ، ويذكر الله كثيراً ، فإن هذا الابن سوف يقلد أسرته ، ونتوقع منه أن يكون من المسلمين الصالحين الذاكرين لله ، المحبين لكتابه العزيز ، يتلون آياته ، ويرتلونها ، ويصبحون لها من الحافظين .. والعكس صحيح .. ولدينا تعاليم واضحة من ديننا بالنسبة للأبناء .. ففي الصلاة ، مطلوب أن يتعودوا عليها من سن السابعة ، وأن يُضْرَبُوا

عليها في سن العاشرة إن هم تركوها .. والصوم ، إذا احتمله الصغير وأطاقه ثلاثة أيام . متوالية ، وجب عليه أن يصوم الشهر كله كما جاء في حديث شريف على أن ديننا الخفيف ليس صلاة وصياماً وعبادات فحسب بل هو أيضا قيم أخلاقية نعتنقها ، ونؤمن بها ، ولا بد من تطبيقها على النفس قبل أن نطبق على الآخرين ، ولهذا يجب أن نخلص النفوس وتصفو ، ونشف وترقى ، لكي يسود المجتمع ما نادى به الإسلام ، قاعدة للتعامل بين الناس ، وأساسا سلما لبناء يعلو ويرتفع ، معلنا الإخوة والمساواة ، العدالة والتقوى ، التعاون والحب .. إلى آخر هذه القيم التي درجنا على أن نجعلها تعاليم السماء ، في حين أنها في مجتمعات أخرى يرونها أخلاقيات اجتماعية يتدربون عليها حتى أصبحت سمة من سمات الحياة لديهم .

والأسرة كما قلنا تضع البذرة الأولى للتربية الدينية ، وكان المسجد يروى هذه البذرة كمدرسة إسلامية ، وذلك قبل أن ينفصل المسجد عن المدرسة ، ليصبح كل منها مؤسسة قائمة بذاتها ، لها دورها في حياة أبنائها ومجتمعنا .. والحق أن المسجد تأثر إلى حد كبير بهذا الانفصال ، حتى صار مكانا للصلاة فحسب ، وقد بدأ أخيرا بحمد الله يستعيد مكانته التربوية والدينية ، مكتبة ومجتمعاً ، ومنبرا للإرشاد .. ويجب أن نعمل على تنمية دور المسجد ، لكي يؤدي رسالته كاملة ، مؤسسة عليها مسئوليات كبيرة ، وبالذات في مجال التربية الإسلامية .. ولكي نؤمن الأسرة كلها : الأب ، والأم ، والأبناء ، يتلقون عنه تلك البساطة الرائعة فتنتشر فيه صدورهم ، ويرون النور ، ويشمون العطور ، ويتقربون إلى الله زُلْفَى ، وَمَشِيكَ لِلْمَسْجِدِ مِثْلَ مَشِيكِ لِأَهْلِكَ ، فيه ثواب من الله . وتأتي أجهزة الأعلام ، بجانب المدرسة ، وسيلة للتربية الدينية ، ورائع أن

تُدكر هذه الأجهزة الناس بمواقب الصلاة ، وجميل أن تحتفل بالمناسبات الإسلامية ، وعظيم أن تخصص برامج عدة للأحاديث الدينية .. وسؤال يطرح نفسه : هل الأسلوب الذى يتخذ محب للنفوس ؟ هل يوضع كل هذا فى إطارات تجعل المستمع يقبل عليها ويرضى عنها ؟! .. ثم هل من تنسيق بين هذه الأجهزة التى تنوب عن المجتمع فى التربية الدينية ؟! .. لانريد لجهاز منها أن يجهز على ما تبدله الأجهزة الأخرى ، بل نود لها أن تتكامل وتتضافر جهودها مع البيت والمدرسة من أجل إنسان جديد ، مؤمن بدينه وربه ..

ويأتى تيار الرأى العام فى الآونة الأخيرة مع الدين بشكل طيب ، وإن ارتفعت بعض الأصوات تنبه إلى بعض المحظورات التى قد تقع فيها .. من بينها أننا لا نريد أن يشب الأبناء متواكلين .. إننا نريدهم أن يتكلموا على الله فى الوقت الذى يعملون فيه ويتجون ، فالتواكل مرفوض ، والاتكال على الله هو أساس متين للتقدم والبناء .. ونريد أيضا ألا يشب الأبناء متعصبين ، وديننا أساسه التسامح ، ولانود أن يسجنوا أنفسهم فى الماضى ونريدهم أن يعيشوا تاريخهم ، بل نريدهم أن يدركوا أن الدين أساس للحضارة وإذا كنا نريد أن نبني حضارة جديدة تعيش طويلا فلا بد أن تُبنى على الدين بعد أن أعمت المادة عالمنا شرقه وغربه ..

## ٢

الدين علاقة بين الإنسان وربه ، والإنسان ومجتمعه ، والإنسان ونفسه .. لذلك يشغل جانبًا هامًا من حياتنا الفكرية ، والعملية ، والتربوية .. وقضية

الدين واحدة من أخطر قضايا التربية .. وكل طفل يذكر ذلك اليوم الذي حمل فيه إلى المدرسة سجادة وفوطه ، وقاشة رقيقة تغطي بها الطفلة رأسها .. ويعلمون الأطفال الوضوء والصلاة لله .

على أن حصص التربية الدينية لم تكن كلها موضع حب وحفاوة من جانبنا ، فقد عمرت بموضوعات تخيفنا من الله وترعبنا من جهنم ، وتملأ نفوسنا إزعاجا ، كما أن أستاذنا قد يحدثنا عن ( الحلم سيد الأخلاق ) ، ويقع أبسط شيء فإذا به ينفجر غضبا ، ويفسد وينهى كل ما قاله عن الحلم . وفي مرة زارنا المفتش وسأل مُعلِّمنا عن آخر درس وصل إليه ، فأجابه المعلم بأنه قد وصل بنا إلى درس ( الصدق ) ، وتجاوزه ، في حين أن ذلك لم يكن صحيحا .. والحق أن ما نفقده بهذين الحادثين أكثر مما نحصله في جميع حصص الدين .. إذ نفقد القدوة الصالحة في المعلم ونفقد البوصلة التي تهدينا قبلتنا : الدين ، والبيت الحرام وكتاب الله .

وعندما نقلب في كتب التربية الدينية نجد أننا مازلنا نحاول أن نحشو ونحشد المعلومات في ذهن الصغير بشكل يجعل هذه المادة غير ما نريد لها أن تكون .. إننا نريدها مجبوبة مقبولة . نريد أن نرسب بها الإيمان في قلوب الأبناء . لكن ما أبعد الهدف عن أسلوبنا ووسيلتنا إليه . إن مهمة المدرسة بشكل عام أن تعطي أساسا للمعرفة ، وأن تحبب الأبناء إلى المعرفة ، وأن ترشدهم إلى سبلها وأماكنها ، أما هذا الذي نفعله فهو شيء آخر مجرد معلومات ومعارف كثيرة كثيرة .. هل نتصور أننا نستطيع بالمدرسة أن نعطي كل علوم الأرض ومعارفها ؟ لا أظن .. إذن ، لماذا نهتم بإطالة المقرر المدرسي ، ولا نهتم بتحبيب أبنائنا إلى مادة هي صلة الإنسان بربه ومجتمعه ونفسه ؟ .. إن المعلم يؤدي حصته ودوره -

كموظف - يتقاضى أجرًا على عمله ولا يؤديه بإيمان ، ولا يجعله وسيلة قُربى لله تعالى ثم إن قراءاته الدينية متواضعة بشكل يجعل من الصعب عليه أن يرد على الأسئلة والاستفسارات ؛ والأبناء يدركون بشعورهم مدى تعمق معلمينا في مادتهم ومدى استيعابهم لها .. على أننا نعرف جيدًا أنه إذا تحملت المدرسة بالكامل مسئولية العلوم والرياضيات والمواد الاجتماعية وغيرها فإن المسئولية في التربية الدينية لاتقع على عاتق المدرسة وحدها ، بل إنها مسئولية البيت والمجتمع .. ربما يصدق في التربية الدينية أننا ندرس النظرية في المدرسة ، وأنها تطبقها في البيت والمجتمع .. فإذا لم يشع جو من الإيمان في المدرسة والبيت والمجتمع جو عبق ، عطر ، فواح الرائحة فإننا لانتوقع من أبنائنا فيها واستيعابا وممارسة للدين .. إن الدين معايشة يومية ، وليس درسًا ، يلقى في المدرسة أو المسجد .. ولا اتصال ولا انفصام بين مادته وبين الحياة .. فهو بالقطع ليس مجرد معرفة وعلم .. لهذا فهو يحتاج منا إلى جهد أكبر لكي نقدمه وجبة شهية للأبناء .

إن معرفة الدين ضرورية ، وخطوة على طريق اعتناقه كأسلوب للحياة ووسيلة للتقرب إلى الله ، والرضا عن النفس والثقة بها دستور للمعاملات بين الناس .. والسؤال .. هل نفرس في الأبناء شوقًا إلى معرفة دينهم ؟ هل نعطيهم مفتاحًا إلى هذا الكنز الإلهي الرباني لكي يفترفوا منه بعد أن تنتهى دراستهم له في المدرسة ؟ هل ندلهم على الكتب والمراجع لكي يواصلوا تعلم الدين وفق أسلوب (التعليم المستمر) ؟!

تلك هي مسئولية المدرسة ، لكي يواصل الأبناء دراسة الدين ، ولكي يزدادوا معرفة ، وحبًا له .

سؤال يطرح نفسه .. ما هو أقوم وأفضل سبيل للتربية الدينية ؟! ..  
 مما لا شك فيه أن « القدوة » هنا هي المدرسة الأولى .. القدوة في البيت  
 ومعاهد التعليم ، والمجتمع بشكل عام .. وتأتي معرفة الإنسان لدينه خطوة تالية  
 على طريق التربية الإسلامية ، وهذه المعرفة لا تكون فحسب عن طريق  
 التلقين ، والشرح والإفاضة والتكرار .

لقد درج رجال الدين على أن يقدموه في صور تاريخية عن السلف الصالح  
 وبعض آيات الذكر الحكيم ، والأحاديث ، ثم جانب من المعاملات  
 والعبادات .. وكل ذلك مطلوب ، لكن الوسيلة إليه يجب أن تكون حديثة  
 عصرية ، تواكب الحياة .. كما يجب علينا ألا نفرس في نفوس الأبناء  
 « التواكل » ، وألا ندفع بهم إلى « التعصب » .. فإن البعض بما يقدمه يجعل  
 الصغير متواكلاً معتمداً كل الاعتماد على أن الله سيحقق له كل شيء ، بدون أن  
 يبذل الطفل من جانبه أى جهد ، كما أن سن الأبناء قد تدفعهم إلى فهم قشور  
 الدين والتعصب للمظهر دون الجوهر .. وهذه محظورات لا نود أن تقع فيها ..  
 ومن الضروري أن يتسرب الدين إلى بقية مواد الحياة ، وألا يقتصر على حصة  
 الدين في المدرسة ، بمعنى أننا نستطيع أن ندرك عظمة الخالق من قراءة العلوم ،  
 وقدرته سبحانه وتعالى فوق كل قدرة فحين نعرف إلى الخلية الحية ، أو إلى  
 الذرة ، لا نملك إلا أن نزداد إيماناً به ، وأيضاً حين نتطلع إلى الفضاء وإلى  
 الكواكب والنجوم .. وفي قراءتنا للتاريخ يجب التركيز على التاريخ الإسلامي ،

وكيف كان الدين وراء الازدهار الغربي بالتقدم العربي .. إن الدين يمكنه أن يكون مدخلاً رائعاً لكثير من ألوان الثقافة .

وبودي أن نقرب لأبنائنا كتاب الله . القرآن الكريم .. لغة وفهماً .. إن الله حين أراد أن يهدي البشر ، بعث إليهم بهذا « الكتاب » الذي يُقَوِّمُ الألسنة المعوجة ، بل يصلح القلوب والنفوس المريضة أيضاً .. وقد درجتنا على تحفيظ الأبناء بعض قصار السور وعلى اختيار بعض الآيات الكريمة لشرحها لهم .. ويجب أن نفتش عن أنسب سبيل لكي نفتح القلوب لقراءة القرآن ، وللإستماع إليه من خلال أجهزة الإذاعة والتلفزيون ، ومع مراعاة سنهم والثروة اللغوية لهم .. كما أن الأحاديث الشريفة .. إذا سُرحَت .. سوف تلقى من الأبناء كل إقبال وحب ..

إن رحلتنا مع الإيمان منذ الطفولة نجعلنا ننادى بضرورة تقديم « الله » للأطفال على أنه حب ، ورحمة .. يجب أن نبعد ما بين الأبناء وما بين الخوف والرهبة من الله .. إن كل كبير - كالأب والأم - يمثل بالنسبة لهم سلطة إرهاب ، ويتسبب في إحباطات لا نهاية لها .. ومن هنا فإن التناول لموضوع ( الله ) جلّ جلاله يجب أن يكون بفهم وعمق وحب وود .. وكل ما يروى من حكايات يجب ألا تكون مزعجة مفزعة .. والإجابات عن الأسئلة تكون في حدود ، ولا تفتح الأبواب لأي سؤال جديد .. ولعل حديثنا واحداً يقرب مفاهيم الدين والإيمان ، ويفتح مغاليق القلوب أفيد بمراحل من دراسات طويلة ممتدة لا تترك في ذهن متلقيها شيئاً ، ولا ترسب في نفسه ذرة من إيمان .. وفي شخصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما يشد الصغار ، ويهيب الكبار ، ولينا تقدم لهم هذه الشخصية الرائعة في ثوب يجعلهم يحجرون وراء معرفته معرفة

حقيقية ، ويدفع بهم إلى أن يلهثوا بحثا عن دقائق حياته وأفكاره وأحاديثه ..  
وأیضا حياة الخلفاء والحروب الإسلامية والبطولات ، وبالذات في مواجهة  
أعداء الدين والقومية ، أمر يحتاج إلى دراسة ، بشرط أن نربطه بالواقع  
المعاصر ، فلا يبقى كل ذلك في إطار التاريخ ، وفي إطار ( ليس في الإمكان  
أبداع مما كان ) !

إن جهودنا في موضوع الدين كبيرة ، ولكن الدين مادة تتجاوز في أهميتها  
كل المواد ، وموضوع من أخطر موضوعات الدراسة وأن ما نلجئ منه لو أننا  
نجحنا فيه فسوف يكون أروع ثمار التعليم إنه أمر يتصل بالقيم والسلوك .. يتصل  
بالتطور والتغيير ، يتصل بالمجتمع والعدالة الاجتماعية ، ويتصل أخيرا بصلة  
الإنسان بنفسه ، وهي صلة لا بد أن تعمر بالإيمان ، بدلا من أن ينفصل وينقسم  
عنها ، وتتأبه أمراض العصر النفسية ، من « غربة » و« توحش » و« غضب »  
وغير ذلك من أمراض وافدة ، ناجمة عن بُعد مجتمعاتهم عن الدين والإيمان ..  
إن أبناءنا بحير ، ماداموا يعرفون ربهم ، ويعيشون على صلة به سبحانه وتعالى ،  
وماداموا يعرفون تعاليمه وفروضه تجاه مجتمعهم ، وماداموا يعرفون واجبه نحو  
جلّ وعلا إزاء عطاءه الكبير .. ليتنا نعيد النظر في أساليبنا وكتبنا في هذا المجال ..  
ليتنا كمجتمع نبذل أقصى ما نستطيع لدعم القيم الدينية في النفس .. ليتنا  
كأسرة نفرس بذور الإيمان في نفوس الأبناء بكل الأساليب والصور من أجل  
بناء مجتمع أفضل ..

## الوطن والتربية

### ١

ليست هناك كلمة لها في النفس فعل السحر ، كما لهذه الكلمة « الوطن »  
لقد تعلمناها في فترة مبكرة من حياتنا ، وإذا بها تصبح مدرسة لنا .. نعم مدرسة  
كبيرة ، دخلناها نتعلم فيها الكثير . إن الوطن كان الموضوع الرئيسي في حياتنا  
كتلاميذ ، حين علمونا أن نقف في الصف ونرفع يدا إلى جبيننا لكي نُحیی العلم  
الخطاف ، ويومها سألتنا عن العلم ، وعن هذا الذي نهتف له « يحيا الوطن »  
وفتح السؤال الباب لكي نسمع الكثير عن الوطن .. هو العش للطائر ، هو  
البيت والأسرة ، هو الشارع والمدرسة ، هو الفستان واللعبة ، هو اللقمة وشربة  
الماء ، لماذا لانقول في اختصار شديد إن الوطن هو كل شيء ! وكلمة الوطن  
مرادفة للحياة وقد دخلنا مدرسته الكبرى لتعلم على يديه كل شيء .. وكبرنا  
وكبر معي حب الوطن .. وكنا في دروس الدين نعرف أن فروض الإسلام  
خمس ، وإذا بنا نضيف فريضة دين ، فريضة إيمان - هي حب الوطن ..  
لقد وجدنا وطننا في دروس الدين .. ثم وجدناه في الجغرافيا والتاريخ ..  
إنه التاريخ ذاته .. ما قيمة تاريخ الإنسانية إذا خلا من تاريخ مصر ، اليمن ،  
بابل ، آشور ، فينقيا .. إنها الحضارة في فجرها والمدنية في مهدها . وعلمنا  
وطننا دروسا في التاريخ القديم ثم الوسيط في العصر الإسلامي ، ثم الحديث

المعاصر ، وهو تاريخ بطل عملاق ، يقرأ عنه الأبناء في كل بلدة ومدينة تابعة لولاية أو قضاء أو لواء أو محافظة .. لقد امتد وطننا من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي حيث المغرب ، أحيانا نراه طائرًا كالتطاووس ، رأسه عند المغرب وينشر ذيله عند المشرق في الخليج والكويت .. وأحيانًا نرى قلبه في مصر ، وجناحيه في المشرق والمغرب .. إن لوطننا صورًا تشكيلية أثارها خرائط الجغرافيا ، التي نتطلع إليها في حب ، لأنها تعلمنا أين أرض الآخرين .. نقول لى هنا النيل في السودان ومصر .. هناك البترول في الكويت والسعودية .. هنا كذا .. وهنا كذا .. ونحس بالعالم كله إطارًا لوطننا ونحس به قلب الدنيا ، وهو قلبها بحق وصدق ..

ويقودنا هذا التصور لوطننا إلى المتاحف والآثار وإلى الفن والتشكيل ، نحن نرى وطننا بدايته في المسلات والأهرام في النمايل ورسوم الجدران ، ونراه في المساجد قنًا عربيًا إسلاميًا جميلًا .. ويمضى متطورًا لنراه في لوحات الفنانين وكأن وطننا قد أضحى لوحات فنية ، غنية بالألوان ، والمساحات الخضراء وصفراء .. ونحبه : فهناك فلاحه تحمل جرة ، وحاجٍ يمضى وراء الحمل ، وعاملة في مصنع .. وهذه « نقلة » إنسانية كبيرة ، فلم يعد وطننا مجرد قراءة في كتاب للمطالعة ، ولا درس في التاريخ والجغرافيا ، ولا هو فرض علينا حبه في حصص الدين ، والفن ، ولا هو قصيدة شعر أو مقالة في صحيفة بل هو كما قلنا (كل شيء) لذلك هفتنا له « يا كل شيء » كان أو سيكون ، وأصبح محورًا لحياتنا بيننا .. أسرتنا .. أهلنا .. صار « الوطن » شيئًا إنسانيًا .. لحما ودما .. وصرنا منه وصرنا منا .. وانصهرنا في حبه .. وعشنا نتغنى له . نعمل في سبيله نناضل من أجله .. صار الماضي والحاضر والمستقبل .. صار مدرستنا وأستاذنا

ومريتنا .. كما أنه أصبح بالنسبة لنا المجد حين يتصر ، الرفعة حين يعلو ، الشموخ حين يقف معلماً لكل الأوطان ، لكل الأزمان ، عبر جامعة عين شمس القديمة ، والأزهر في العصر الوسيط ، ثم جامعات الكويت ، القاهرة القيروان .. وأصبح بالنسبة لنا العلم والمعرفة والحضارة والمدنية ، بعد أن كان اللغة والتاريخ والجغرافيا والدين .

يا إلهي .. انصرّ وطننا .. توج كفاحه .. إنه يتغنى باسمك خمس مرات كل يوم من فوق مآذنه : إنه يعبدك .. إنه يؤمن بك ..

## ٢

البيت وطن .. وهناك كلمة إنجليزية واحدة تعني البيت والوطن معاً .. هي كلمة « هوم » (Home) .. لاندرى إن كان لها مرادف بالعربية أو لا ، لكننا ذكرناها لا مجرد أن نلوى لساننا بكلمة أجنبية ، بل لأننا نريد أن نؤكد معنى خطيراً .. ذلك هو أن البيت وطن والوطن بيت .. وهذا لا يعنى لعباً بالألفاظ ، أو عبارة إنشائية موسيقية بل إننا لا نعدو الحقيقة ، ولا نتجاوزها أبداً .. نعم : البيت وطن : فيه الحمى ، وفيه السكن .. فأنت تأوى إلى بيتك وتعيش فيه ، كالتأثر في العش وتقضى في بيتك أكثر ساعات يومك ، وفيه راحتك ، وفيه طعامك ، وفيه لباسك ، وفيه نومك .. وفيه فوق كل ذلك الحب والحنان ، الألفة والود .. والوطن بيت : نحن إليه في الغربة ونحس بالوحشة حين تبعد عنه ، وتعيش فيه أغلب سنين حياتك ، ويختلط علينا وعليك الأمر ، فلا ندرى هل نحن نتحدث عن البيت حين نتكلم عن الوطن ،

أو نحن نتكلم عن الوطن في حديثنا عن البيت . الأمر الذى يؤكد وحدتها الكاملة .. ومن هنا على البيت واجب ومسئولية تجاه الوطن ، وتقع على الوطن واجبات كبيرة نحو البيت .. إن البيت حين يجب أبناءه فى الأسرة ، وفى البيت ذاته ، فهو يؤدى واجبه نحو نفسه . ويجب أن يتجاوز هذا الدور إلى حب البيت الكبير : الوطن والأسرة الكبيرة : شعب بلاده ، بل الأمة العربية - كعائلة - مترابطة متماسكة ..

وكثيراً تلك البيوت التى تغفل عن هذه القضية الحيوية وتنسى أن مآلديها من عطاء وحياة ورخاء يرجع للوطن ، ونحن نناشدها أن تتيقظ لقضية تربية الأبناء على حب الوطن ، فإن مدارسنا تحظى بإجازات فى مناسبات قومية ، ولا تلقى تلك الإجازات اهتمام البيت .. لا بد أن تفتد هذه المناسبات من نوافذ البيوت وأبوابها ، وتحتفل بها الأسرة ولا تعزل نفسها عنها ، بل تشارك فيها الأسرة مشاركة إيجابية ، تربية للأبناء .. تربية وطنية ..

وما من مناسبة للتربية الوطنية أروع من أن يصل الأبناء إلى سن التجنيد .. وحين يناديهم الوطن لأداء هذا الواجب ، يجب أن يلبوه سعداء بأن أصبح فى استطاعتهم أن يردوا إليه عملياً بعض ما أعطاه لهم وأصبح فى مقدورهم بذل حياتهم فى سبيله ومن أجله ، وليست هذه هى الفرحة الوحيدة لخدمة الوطن ، بل إن تفوق أطفالنا فى التعليم والثقافة يتم لأصالحهم فحسب ، بل لصالح وطنهم .. وكثيراً ما يقال إن الفارق بيننا وبين عدونا الصهيونى فارق حضارى ، وإذا ما ضاق هذا الفارق يتفوق أطفالنا على أطفالهم ، وعائلنا على عائلهم ، ومتفوقنا على مثقفهم ، وتُحسَمُ المعركة لصالحنا قبل أن تنطلق رصاصه واحدة .. وعلى هذا فإن التربية الوطنية تضى مع الأبناء منذ مولدهم .. إن

عدونا يعزف في أذن الوليد لحن أرض المعاد ، ويربونه على الحق والكرهية للعرب ، في حين نربي أبنائنا على الحب للإنسان وللوطن ، ونذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يؤذن للوليد : الله أكبر .. فإذا أردنا لوطننا الحياة والنصر فما من سبيل إلا تربية أبنائه على حبه وافتدائه بحياتهم .

والوطن يحمي البيت ، ويدعم الأسرة ، وهيبى المدارس لأبنائه ويحمل مسئولية أن يحمل إليه الطعام ، والشراب ، ويوفر له إمكانيات الحياة . ويبدل - ممتلاً في الحكومة - جهوداً كبيرة لحماية الوطن والمواطنين ، ورفع مستواه ومستواهم .. والبيت مطالب بأن يرد ذلك عملاً وحباً .. فيزرع في نفوس الأطفال الإحساس بمعنى « الوطن » و« الوطنية » .. لكي يشبوا على أن (حب الوطن من الإيمان) ..

إن البيت حين يجب الوطن للطفل ، وحين يربيه على تقديسه فإنه يؤدي واجباً نحو نفسه ويشارك المدرسة في أداء هذه المسئولية ، ويتعاون مع المجتمع للنهوض بهذه الرسالة ..

«الأم مدرسة » وهي أروع مدرسة حين تُعلم الطفل حب وطنه وبلاده وشعبه ...

### ٣

نحن نتطلع إلى أن يحب أبنائنا وطننا كل الحب ، وأن يتغنوا به ، ويخبره ، وأن يعدوا أنفسهم لخدمته ، والبذل في سبيله ، ولو كان المطلوب بذل أرواحهم وحياتهم لأن ذلك هو السبيل لحرثته والحفاظ عليه . لذلك فهناك جهد مطلوب

من المدرسة والبيت والمجتمع لغرس حب الوطن في نفوس الأطفال ، منذ وقت مبكر .

وقد يتصور البعض أن في استطاعتنا أن نركن في هذا إلى المدرسة فحسب على أساس أن لديها منهجا للتربية الوطنية ، وكتبًا ، وأساتذة .. غير أن هذا لا يكفي ، ولا نستطيع أبدًا أن نعتمد عليه وحده .. فالمدرسة في هذا المجال يقع عليها عبء كبير .

التربية الوطنية ، مكانها ليس حجرات الدراسة وفصولها فحسب . بل البيت ، والمجتمع بمؤسساته المختلفة من صحافة ، وإذاعة ، وتنظييات وجماعات .. والحب للوطن ليس درسًا .. ولكنه تيار ، يحتاج إلى قلوب المواطنين .. يعرفونه جيدًا حين يكون الوطن في مشكلة .. ويعرفون الوطن عطاء لهم ، مقعدا في مدرسة ، سريرا في مستشفى ، موقعا في عمل ، يعرفونه عزة وأبوة وكرامة ، ألقه وودًا وتعاطفا .. تشخص عيونهم للسماء ، وهم يرون علمه يرفرف خفاقًا وعاليا .. يفخرون به وهم يرون أبناءه يتفوقون ويتميزون على الدنيا بأسرها في مجال العلم والفن والرياضة .. يزدنون به وهم يرونه يوفرقهم الحرية ، والإخاء والمساواة .. وعلى المدرسة مسئولياتها الكبيرة في هذا المجال .

لأنه تدريس التربية الوطنية ليس وظيفة بقدر ما هو واجب وطني .. التفتي بالوطن واجب منذ أن تتفتح أعيننا في الصباح ، حين نرفع علمه ونحنيه في طاوور المدرسة ، ونهتف باسمه من أعماق القلوب ، إلى أن يغلق الإنسان عينه لينام .. مطمئنا إلى أنه أعطى وطنه شيئًا في يومه آمنًا إلى أن جند وطنه يحرسون حدوده ، وشرطته يحفظون نظامه ، وأطباءه يعالجون مرضاه ومعلميه يربون بنيه .. وكل إنسان مطالب بأن يغني لوطننا ، ويحبه للأبناء والمواطنين ، ويجعل

خدمته والقضاء فيه رسالتهم ودورهم وواجبهم ..  
وإذا أتاحت لنا فرصة مراجعة منهاج التربية القومية لأبنائنا في المراحل الأولى والمتوسطة للتعليم ، فسوف نجد يضم الكثير عن الأسرة ، الصداقة المدرسة ، البلد ( القرية أو المدينة ) .. البيئة ، المواطنة ، الخدمة العامة ، عناصر ثروتنا القومية وكيف نحافظ عليها ، الحكومة ، الوطن العربي ، العالم ، الثورة العربية ، العدالة الاجتماعية ، التنمية الاقتصادية ، الاستعمار والصهيونية ، فلسطين ، الجامعة العربية ، هيئة الأمم إلخ .

كل هذا على أبنائنا دراسته في التربية الوطنية ، قبل أن يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم .. ونسأل أنفسنا : أليس هذا بكثير ؟ إننا نريد أن يجب أبناءنا هذه الموضوعات لا أن تصبح مجرد مواد تعليمية كثيرة لدرجة تزحم الأبناء ولا تصل إلى التأثير في مشاعرهم وأفكارهم ، ونحن نسعى إلى أن يعتنقوا الوطن والحرية والعروبة ..

والحق أن التربية الوطنية يجب أن تتجاوز حجرة الدراسة إلى المدرسة كلها ، وإلى أجهزة الإعلام والثقافة ، لأن ربط الأبناء بالوطن أمر حيوي ، لأنه يعني حياة هؤلاء الأبناء مستقبلا .. وإذا كانت التربية الاجتماعية والأخلاقية والرياضية ضرورية ، فالتربية الوطنية تحوى في ثناياها كل هذا ، وتتضمن جميع ما في هذه الألوان من قيم ، فالوطن فوق الجميع ، ويجب أن نربي الجميع على حبه .. وتقديس ترابه وأرضه أمر حيوي لا بد أن نبذل من أجله طاقة كبيرة ، ومن خلال كل الوسائل ، والصور ، والمواقف فقد أعطانا الكثير ، وحق علينا أن نرد له فضله وجميله وخيره .. إنه أفضل وطن ، وأجمل

وطن وخير وطن .. إنه وطن الأجداد والكرامة والإنسانية .. وطن الأنبياء  
والرسل والأديان .. وطن العروبة والخير والرخاء .

#### ٤

ونحنى إلى الحديث عن دور المجتمع لتربية أبنائه على حب الوطن ..  
ونحن لا نعرف فى أى سن من سنن العمر يتبين الطفل معنى «الوطن» ولكن  
الذى نؤكد أنه يحدث فى بلادنا فى فترة متقدمة ، وأن أهلنا يدهشون لكثير من  
الكلمات التى تقفز على ألسنة الأطفال متغنية بالوطن والشعب والأمة ،  
والديمقراطية ، والدستور ، وكل ما يتصل بهذه الموضوعات .. وقد يكون  
السبب القوة العربية التى اندلعت مع الخمسينات ، وقد يكون ذلك لأننا فى  
منطقة يشغل عدد كبير من بلادها وأهلها بالقضايا العامة ، وينضمون  
للتنظيمات السياسية ، ويحوضون المعارك الانتخابية .. وقد تكون المدرسة وراء  
ذلك ، فمنذ سن مبكرة يرتفع صوت الأطفال يهتف لفلسطين ، والتحرير ،  
والوحدة .. وهم يفضلون كل حدث يقع فى وطننا العربى ، بجانب هذه المادة  
التي يدرسونها وهى « التربية الوطنية » و « التربية القومية » .. والأولى تعنى  
الأرض والأمة ، ومدلولها أوسع وأشمل من الثانية التى تعنى وحدة قومنا العرب  
فحسب ، وليس وحدة أوطانهم .. وقد جعلتنا قراءة الصحف نتابع  
الأحداث ، وتتراكم معرفتنا بما يجرى فى وطننا وفى عالمنا ، خاصة وقد تولى  
الطلبة تلخيص الأخبار اليومية فى إذاعة المدرسة كل صباح .  
والحق أن مسئولية المجتمع بكل أجهزته ، أن يشر الاهتمام بالوطن وقضاياها

وأن يجب الأبناء فيه ، فإن كثيرين ينشئون وهم يدورون حول أنفسهم ولا تتعدى أفكارهم الخاصة مصالحهم الذاتية ، وتتركز كل رغباتهم في تحقيق مايرضى رغباتهم . إنهم يتصورون أن الدنيا تلف في فلكهم ، وأنهم مركز الكون .. وكثيرا ماترى الواحد منهم لا يهتم بما يقع في روما أو باريس أو غيرها وكأنه لا علاقة له به وهم يتخيلون أن الحدود السياسية تطوى بداخلها كل شيء وأن آثار الأحداث لاتعبرها .. وفجأة يتأثرون بزلازل في اليابان ، وتوقف مصنع في إنجلترا ، ونقص محصول الشاي في سيلان ويكتشفون أن العالم قرية صغيرة مترابطة ، ينعكس كل حدث فيها على كل ركن من أركانها .

وليس أمر التربية الوطنية يقف عند هذا الحد ، بل إننا بلينا بفقدان أجزاء من أرضنا في أرجاء متفرقة ، ومزقنا دويلات وأقطار ، وكان لابد من النضال ضد العدوان ، سواء كان احتلالا للأرض ، أو نهبا للثروات أو تقسيما للبلاد .. ومن هنا كان لابد أن نربي الطفل على حب أرضنا في كل قرية وواحة وفي كل محافظة وولاية ، وفي كل دولة وقطر .. وكان لابد أن نربي النشء على حب مواطنينا في كل أرجاء الوطن العرى ، ابتداء من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة القومية ، بل الأسرة الإنسانية قاطبة .. ومن هنا نحجى التربية الوطنية ، فإنها إنسانية المستوى ، تُخرج الإنسان عن نطاق اهتمامه بذاته فحسب .. وهذا اللون من التربية هدفه الأول الوطن والقوم والإنسان .. ولابد أن يُبنى هذا الحب على المعرفة والفهم ، لترسيب الوعي به ، والولاء له ..

## المجتمع والتربية

### ١

ما من كلمة تُرهبُ ، كما تُرهب كلمة « المجتمع » .. التي نترجمها في حياتنا العادية إلى « الناس » وإذا ما أقدمنا على عمل ما ، سألنا أنفسنا : وماذا يقول الناس !؟ .. إننا حين نتصرف نحسب حسابهم ، ونجعل لرأيهم مكانته ، فلا نخرج على عرف اختطوه ، ولا على تقاليد درجوا عليها .. إن المجتمع قد أصبحت له قيمة وأخلاقياته التي قلما نخرج عليها ، ولهذا فهو أداة تربية في منتهى الأهمية والخطورة ، على الرغم من اتهام البعض لهذا المجتمع بأنه قيد على حركتنا وحديثنا وانطلاقنا ، وبأنه يحمل تراثاً قديماً متخلفاً ، لم يعد يصلح لعصرنا لذلك يرفعون في وجهه راية العصيان ، ويضربون بالكثير من قيوده عرض الحائط .. وأياً كان الموقف من المجتمع وتقاليده وقيمه فنحن في ميسر الحاجة إلى التعرف عليه ، والاقتراب منه ، والتعامل معه ، وإذا كان المجتمع يفرض علينا الكثير ، وبشكل - بصورة أو بأخرى - لوناً من ألوان تربية أفرادها ، فإن الأفراد عليهم تجاه هذا المجتمع واجب ومسئولية ، ذلك أنهم مطالبون بتطوير مجتمعهم ، والأخذ بيده إلى مدارج الرقي والكمال .

ولعل سؤالاً هنا يفرض نفسه : ما « المجتمع » ؟ وما التربية الاجتماعية ؟ إن باباً ثابتاً في صحف ومجلات الدنيا كلها يحمل كلمة « المجتمع » يسرد بعض

أخبار أناس يتصور المحررون أن منهم يتشكل المجتمع .. هذه عادت من إجازتها .. وهذه سافرت .. وتلك أقامت حفلة ، وهكذا .. ويميل كتاب ومحررو المجتمع إلى الحديث عن العلاقات بين أفرادها : هذه خُطِبت لفلان ، وفلان تزوج فلانة وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك .. وقد تشر هذه الصفحة أبناء اجتماعية أخرى لها طابعها العام : كحفل إقامة سفارة ، أو دعوة البعض إلى حفل تكريم إنسان .. وهذه الصفحة تحفل بصور لنجوم المجتمع ، وصور النساء هنا أكثر بالطبع .. وسؤال آخر يفرض نفسه هنا : هل هذا حقاً هو المجتمع ؟ ! .. هل هؤلاء - بصدق - هم نجومه ؟ ! ..

إننا نترك لكم الإجابة عن هذا السؤال ، ولا شك أنكم تشاركوننا الرأي .. إن المجتمع تركيبة شديدة التعقيد ، وهو في واقع الأمر مجتمعات عدة تتداخل وتتشابك ، ولا يمكن أن تكون هذه الأسماء اللامعة الطافية على السطح هي المجتمع كله .. إن لدينا مجتمعاً في البحر فيه بحارة وصيادون وأصحاب سفن صغيرة إلخ .. ولدينا مجتمع في مجال التجارة ، بل مجتمعات ، فالتجارة ألوان وألوان .. ولدينا مجتمعات موظفين .. ومجتمعات رجال أعمال .. ومجتمعات سفارات .. ولدينا مجتمعات مهنية : جمعية للمعلمين ، وللمحاميين وللصحفيين ، إلى آخر هذه الجمعيات .. لذلك فإن الحديث عن مجتمع بذاته ، أو جماعة بعينها ، ماهو إلا حديث عن شريحة فقط من المجتمع .. وكل شريحة لها ظروفها الخاصة ، وهي قد تتناقض مع شرائح أخرى ، وقد تتفق معها .. وربما تتصارع هذه الشرائح من المجتمع ، وربما تعاونت .. ولكن من الضروري أن يكون هناك حد أدنى متفق عليه بين الجميع ، هو تيار رأى عام ، يسود المجتمع كله ويحكمه .. ويتبلور هذا التيار في صورة قوانين وقرارات ولوائح

وتعليمات .. كما يتبلور فيما نسميه في حديثنا العادى « كلام الناس » ورأيهم  
وحكمهم على الأفراد والجماعات الصغيرة فى المجتمع ..

إن المجتمع يشارك بمؤسساته فى تربية أفراده .. ومسئوليته كبيرة وضخمة ..  
إن المجتمع مؤسسه تربية كبيرة تساهم فى تشكيل حياة أفراده .. وتأثيرها عليهم  
لا يقل عن تأثير ( الأسرة ) .. فالمجتمع يملك أدوات كثيرة تشارك فى صنع  
الأفكار والرأى العام ، ومن بينها أجهزة الثقافة والإعلام ، ومن بينها المؤسسات  
الاجتماعية المختلفة .. ومن هنا تأتى أهميته وخطورته .. إنه - أى المجتمع - قد  
يلفظ إنساناً فيحكم عليه بالموت والإعدام ، وقد يكرم آخر ، فيجعل منه بطلاً  
مرموقاً ونجحاً لامعاً .. وهو فى كلا الأمرين يودى دوراً بارزاً وهاماً فى علاقات  
الأفراد بعضهم ببعض ، ولهذا فقد حَمَلْنَا بعض المسئولية فى الأخذ بيد  
الأبناء .. بجانب ماتحمله الأسرة والمدرسة برغم أنها واحدة من أدوات المجتمع  
غير أنها أداته الرئيسية للتربية ، لذلك نفردها مسئوليتها .. ويؤكد ذلك أن ثلثى  
المسئولية فى الواقع قد أُلقيت على كاهله .. لذلك أصبح « المجتمع » علماً قائماً  
بذاته .. والطريف أن مبتكر علم « الاجتماع » عربى ، هو العبقري ابن خلدون ،  
ومع ذلك فإن معرفتنا بهذا العلم قليلة وأغلب ما ندرسه منه وعنه مستورد .

## ٢

قلت إن المجتمع يتحمل مع المدرسة ، ومع الأسرة مسئولية التربية ..  
والأسرة قد أصبحت أخيراً واحدة من مؤسسات المجتمع كالمدرسة .. وهى -  
أى الأسرة - تلقى نقداً شديداً بالنسبة لدورها من المجتمع ، ويحملها البعض

أكثر من طاقتها ، ويحاول البعض التخفيف من مسؤولياتها ..  
وعندما سُئل زوربا اليوناني ، في الفيلم الشهير المأخوذ عن رواية الكاتب  
المعاصر كازنتاكس .

- هل أنت متزوج ؟

أجاب : نعم . بيت . وزوجة - وأولاد . المساة كاملة ياسيدى ..  
وانفجر رواد الفيلم بالضحك للملاحظة الأخيرة .. ولاشئ يحظى  
بالضحك على المستوى الإنساني قدر العلاقة بين الرجل والمرأة بشكل عام ،  
والعلاقة بين الزوجين بشكل خاص .. إن الرجل يستطيع أن يطلق هذه النكتة  
ويضحك ويقهقه ، ولكن المرأة قد ترد على ذات السؤال بأسلوب آخر ،  
فتقول :

- نعم : بيت . وزوج . وأولاد . المسئولية كاملة ياسيدى !

إن الجانب الاجتماعي في حياة المرأة له انعكاسه الهام والخطير على دورها  
ورسالتها ، إنهم يقولون إن عمل المرأة له مرتبة ثانوية في حياتها ، ويرتبون  
الأولويات ، مرة زوجها على رأس قائمة الاهتمامات ومرة أولادها ومرة بيتها ،  
وقلما يقول أحد إنه عملها .. غير أننا نرى أن هذه الاهتمامات أشبه بأرجل  
المائدة ، لا نستطيع أن نعرف بالتحديد أيها يحمل المائدة - وأيها أهم ، وله  
أولوية .. إننا نرى أن هذه الاهتمامات كلها مسئولية ترفع من مائدة الحياة ،  
لتظل ثابتة الأركان ولا تتزعزع ولا تسقط .. واهتمامها بزوجها يجب ألا يكون  
على حساب أطفالها ، واهتمامها بعملها يجب ألا يكون متجاوزاً اهتمامها ببيتها ..  
وأستطيع أن أقول إن المرأة طالبة ، بأن تطبق المبدأ الشريف : « أعط  
للبيت ما للبيت وأعط ما للزوج للزوج .. أو أعط ما لقيصر لقيصر ، وما للناس

للناس .. إنها حكمة غالية عن الرسول الكريم .. المعلم .. لكي لاتنفي مسؤوليات البيت على الأولاد ولا يجور الزوج على البيت .. وإن كانت هناك أوقات يأخذ أحدها من الآخر .. إذا مرض الابن مثلا ، فله أولوية الاهتمام .. هنا تتغير المقاييس والموازن إلى حدما ، ويصبح من الضروري تطبيق قائمة الأولويات ..

إن الجانب الاجتماعي له تأثيره على حياة المرأة .. ومجتمعنا العربي مع الأسف لم يعط التربية الاجتماعية حقها إلا منذ فترة قصيرة .. وهو حين فعل ذلك فصل مهمتها عن مهمة المعلمة ، مع أنه جانب من أخطر مسؤولياتها كمرية ، إنها مسئولية تعادل المسئولية التربوية والتعليمية ولا تقل عنها أبداً .. لقد وكلت هذه المسئولية الاجتماعية إلى المشرقة الاجتماعية ، وهي - أى المشرقة - تتحمل ما كان يجب أن تتحمله المعلمات ولتركيز المسئوليات الاجتماعية إيجابياته ، وتوزيعها على المعلمات أهميته .. فالمعلمة لا يمكن إلا أن تكون تربوية واجتماعية في نفس الوقت .. وإلا فقدت الكثير من عناصر نجاحها كمعلمة .

ودور المدرسة - متمثلا في المشرقة الاجتماعية - يجب أن يكون أكثر وضوحاً ، خاصة والأسرة في بلدنا - مجتمع قائم بذاته - ولا تشكل قدراً كبيراً من جوانب التربية الاجتماعية لأبنائها . فازلنا نعيش مجتمعاً منفصلاً ، في علاقة البنات بالأولاد ، وإن كنا نعيش قيماً رائعة فيما يختص بصلة الرحم ، وذوى القرى ، فمازالت هذه الوشائج تربط بعضنا ببعض ، رابطة نفخر بها ، ولانريد لها أبداً أن تنفصم .. إنها تجعل الأسرة - التي هي أول خلية في المجتمع - متماسكة متعاونة متأزره .. ونحن في حديثنا لا نحب أن نقف عند السليات

فحسب ، إننا نريد القضاء عليها ، وفي الوقت نفسه لا بد لنا من أن ننمي ما في مجتمعاتنا من إيجابيات بناءة ..

### ٣

إن المشاكل التي تحملها التلميذات من بيوتهن ، كثيرة ، متعددة ، متنوعة . وهذه المشاكل قادرة على أن تفسد على المعلمة « العملية التعليمية » وتحول بينها وبين أداء واجبها ، مهما بذلت من جهد ، ومهما قدمت من توضيحات . ولن تستطيع المتخصصة ، أن توزع نفسها على مئات الطالبات ، قد تكون جهودها مثمرة ، حين تركزها في حالة كبيرة واحدة أما خلال اليوم ، ويومياً ، فلا بد وأن تكون المعلمة هي المتخصصة وبعينها الناقدة الفاحصة ، تستطيع أن تكتشف صاحبة المشكلة ، كما يكتشف الطبيب المريض بعلامات خاصة ، بارزة ، واضحة : حالات البكاء المستمرة أو التشنج ، وظواهر من هذا السبيل ، قد تقودنا إلى المشاكل الكبيرة التي تركز المتخصصة جهودها عليها . أما حالات السرحان ، والمقاطعات ومعاينة الزميلات ، فالمعلمة قادرة على اكتشافها ومعالجة صاحبها على الفور ، بشتى الوسائل وأهمها : العناية بصاحبها ورعايتها ، ودفعا إلى أن تنفس عن نفسها بذكر ما يضايقها ، دون أن تكون المعلمة في ذلك ، مجرد محبة للاستطلاع ، بل إن الاطلاع على المشكلة ، يحمل المعلمة مسئولية الحفاظ على سرها ، والعمل على حل مشكلتها . كل معلمة يجب أن تحصل على قدر ، وقدر غير قليل ، من الدراسة الاجتماعية ، والتربية الاجتماعية .. كل معلمة يجب أن تكون متخصصة

اجتماعية ، بجانب تخصصها في مادتها .. كل الدنيا تسير على هذا النظام .. واضطربنا نحن في الوطن العربي نتيجة لكثرة مشاكلنا في هذا المجال ، أن نحيل هذه الأمور إلى متخصصة ، وربما كان أجدر بنا ، أن نزيد اهتمام المعلمات بالجوانب الاجتماعية ، بدلا من سلخها عنهن ، الأمر الذي يجعلهن تلقائياً ، يتأين عنها ويباعدن ما بينهن وما بينها ، وتحول المعلمة كل شيء ، وكل طالبة إلى المتخصصة وهذا فشل من المعلمة .. إنها يجب ألا تلجأ إلى هذا الأسلوب ، إلا إذا رأت الحالة مستعصية الحل . تحتاج خبرة وجهد ، ليسا عندها ، ولا يحدث ذلك أكثر من مرة أو مرتين في العام ، لتأخذ المعلمة على عاتقها بقية الحالات .. ذلك يقرب الطالبات إلى المعلمة ويقربها منهن ، ويجعل بينها مزيدا من الثقة والانسجام ، ولا يحمل المتخصصة فوق طاقتها .. إن المعلمات أكثر عدداً ، واقتسام المشاكل يخفف منها كثيرا ، ولا يشتت المتخصصة ويبدد جهودها الكبيرة .. إن الطالبات يحملن الكثير من الأزمات الاجتماعية ، - وبالذات الأسرية - معهن إلى فصول الدراسة ، وليس من السهل فصل الإنسان عن حياته هذه ، لحظة وصوله المدرسة ، ونحن نعرف كيف تؤثر الحياة الاجتماعية على الدراسة والتحصيل .. ومن الضروري ، تضافر جهود البيت مع المدرسة ، والمدرسة مع البيت ، من أجل جيل جديد أصلح اجتماعياً لمواجهة مشكلات الحياة الحاضرة ، ولبناء أفضل للمستقبل .

وحياة المرأة الاجتماعية الخاصة ، لا هي الحفلات ، ولا السهر خارج البيت .. وهي أيضا ليست قاصرة على شؤون البيت .. وعمل المرأة خارج بيتها ، لا يعقبا من مسؤولياتها .. إنها فيه مربية لأولادها ، وهي فيه وزيرة اقتصاد وخزافة ، وهي فيه وزيرة صحة وشباب ، وهي .. وهي .. هي مجلس

وزراء كامل ، ويعلم الله وحده ، كيف تنهض بكل ما عليها من أعباء ، وعليها بعد ذلك أن تخرج من بيتها كل صباح ، وقد رسمت على شفتيها ابتسامة طيبة ساحرة لتواجه مجتمع العمل .

إن الأم التي تتخلى عن دورها ومسئولياتها الاجتماعية ، لا ينتظر لها النجاح كأم .. التربية في معناها الشامل ، تضم القضايا الاجتماعية ، وعلم الاجتماع في مسؤولية الواسعة ، يحتوى التعليم والتربية ، وفصلها فصم لشخصية الأم وإجهاز على رسالاتها .. إن المرأة : ابنة وأماً .. وربة بيت ، وزوجة ، يجب أن تتحمل المسؤولية كاملة .. ومن بينها التربية الاجتماعية المثلى لأولادها ..

## الأخلاق والتربية

١

تردد كلمة الأخلاق كثيرًا ، وتقرن بالتربية ، ولا ينفصمان ولا يفترقان ..  
والبعض ، يرون الأخلاق ثمرة من ثمرات التربية ، ويراها آخرون هدفًا من  
أهدافها ، وأيًا كان الرأي ، فنحن مع الشاعر الذي قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذا البيت ، يدق لنا الأجراس .. إنه يقولها بصراحة موجعة ، إن الأمة  
التي لا تتمسك بالخلق ، تذهب وتضيع ، وما ينطبق هنا على الأمة ، يسرى  
على الأفراد والمجتمع بالطبع .. وقد يرتفع صوت يقول صاحبه : أين هي  
( الأخلاقيات ) في عالمنا ، وكثير من دوله المتقدمة أصبحت ( لا أخلاقية ) ،  
ومع ذلك فهي لم تذهب ، بل مازالت باقية تفرس وجودها ، بل وأحياناً  
سيطرتها؟! .. نقول .. إن هناك قدرًا من ( الأخلاق ) في كل حضارة ، وهذا  
القدر هو الذي يبقى عليها ، إن الذي ذهب بقوم نوح ، وعاد وثمود ، هو أنهم  
فقدوا كل مقومات الأخلاق ..

ومما نحمد الله عليه في بلادنا ، أن لدينا كمًا من القيم الأخلاقية ، وتيارًا من  
الفضائل الإنسانية تسود حياتنا ، إذا ما جرت مقارنة بيننا وبين الدول التي

تسمى بالمتحضره .. بل إن ضميرنا كثيرًا ما يعذبنا لأشياء استسلموا لها هم ، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم ، في حين تأبأها مجتمعاتنا ، ويرفضها الأفراد عندنا .. ولسنا هنا ، نمتدح أنفسنا ونفخر بها ، فهذه ليست قيمة أخلاقية ، في حد ذاتها ، لكننا نود تقييماً موضوعياً ، لموقفنا وموقف الآخرين من قضية الخلق .. والضمير .. وذلك تمهيداً لتسليط الضوء على سلبياتنا ، وإن كنا قد بدأنا بإيجابية نزرع في النفس بعض الثقة ، ونحول بينها وبين تعذيب الذات ..

إننا - كعرب - قوم لنا أخلاقياتنا .. وقيمنا .. وشرفنا .. وقد تعلمت عنا أوربا الكثير من خلال الحروب الصليبية ، صلاح الدين الأيوبي يذهب بنفسه إلى عدوه .. ولا ينتقص هذا من عظمة البطل المسلم ، بل تدرك أوربا الدرس المستفاد من هذه الخطوة .. ولسنا بصدد مقارنة بيننا وبينهم ، فقط ، جرننا الحديث عن الأمم والأخلاق ، إلى هذه العبارات التي نخلص منها ، إلى أن قيمنا رائعة ، وهي ليست محفوظة في متحف تاريخي ، بل هي حية بيننا ، تحتاج منا إلى أن نفض عنها التراب والغبار .. ونحن هنا لن نسرده قائمة بالقيم الأخلاقية التي لدينا منها ، والتي ينقصنا بعضها .. ولكن لكي تفكر الأممات من وقت لآخر ، في القيم التي يودون إعطاءها لأولادهم ويتساءلون أي هذه القيم يحتاجها الأبناء في حياتهم مستقلاً ، خاصة أننا في عالم متغير ، ولا نعرف صورة العالم الذي سيعيشون فيه .

ومع ذلك ، لا بد من قيم ثابتة ، مثل مؤشر البوصلة ، لكي تهديهم ، هل هم سائرون في الطريق الصحيح أم لا ؟ .. ومن السهل أن نتصور أن هذه القيم ، يمكن أن تكون مثل ساعة نورثها لأبنائنا أباً عن جد .. بعض الأممات

يندهشن ، لأن ما يرونه قيماً ، لا يحتاج إلى نقاش مطلقاً ، ويجدون أنها مهمة من عائلات وأصدقاء حولهم . وتتساءل هؤلاء الأمهات ، كيف ندرّب أولادنا على هذه القيم ، ونجعلهم يعتنقونها ، وهم يرون أنها ليست مجال اهتمام من جانبهم ، بل على العكس يجدونهم يتصرفون عكسها ؟

الحقيقة ، أنه لا بد أن تكون الأمور واضحة في أذهاننا . وتكون لنا قيم هادفة مؤمنين بها تماماً ونطبقها كقدوة .. فلا نقول لأولادنا : « الصدق منج » في حين يروننا أحياناً ننجح عن الصدق ، وحيناً نقول : « قيم هادفة » فإن هذا يجعل مواقفنا وقراراتنا ، أكثر تحديداً ووضوحاً .. لا خلاف حول الصدق وأنه أساس الأخلاق .. لكننا نتفاجأ ونحن نود غرس قيمة كالتهديب في نفوس أطفالنا أننا نحتاج إلى أن نقول لهم لا بدّ أن يحسنوا اختيار كلماتهم .. والخيط رفيع جداً بين بعض القيم الأخلاقية واللا أخلاقية ، ونحتاج من الطفل أن يميز ما الذي يندش كرامته ، ولا بدّ أن يفضب له ، وما الذي يجب أن يواجهه بالحلم والأخلاق والهدوء ولدينا في الشرق كمية هائلة من القيم ، وكمية أضخم من النصائح ، كثير منها متخلف عن عصور ظلم وظلام .

ولهذا ، فإن التربية والأخلاق - كما قلنا في البداية - لا ينفصلان .. سواء كانت هذه الأخلاق تختص بالإنسان الفرد ، أو لها طابعها الجماعي . وهنا ، لا بدّ وأن يبرز دور « الضمير » ليحدد لنا الخير من الشر ، الصواب من الخطأ ، ويجب أن نعرف ماهو الضمير ، وما أهميته بالنسبة للتربية والخلق .

« الضمير » درس في النحو ، يحدث عن « أنا وأنت ، وهو » ثم هو درس في الفلسفة ، ودرس في علم النفس .. أما في التربية ، فإنه يعني شيئاً أكبر من درس النحو وعلم النفس ، يعنى إيجاد ذلك الرقيب الداخلى على تصرف الإنسان ، ذلك الهاتف العظيم الذى يقف بينه وبين الإقدام على ارتكاب الخطأ .. إننا هنا لانعنى ولا نهتم بالمعرفة المجردة ، بل بالتدريب على خلق الضمير وتنشئته ، ليؤدى دوره ورسالته في حياة الإنسان ، ويقوده خلال رحلته فيها إلى الخير والسعادة .. فالضمير هنا أساس الخلق ، ورمزه وهدفه ..

ويرهقنا الضمير ، نحواً ، وخلقاً في الطفولة .. ففي النحو ، لدينا الضمير الظاهر والمستتر .. وتعددت الضائير ، وتعددت مواقعها ، فهى مبتدأ تارة ، وهى طاعل تارة أخرى ثم خبر أو مفعول .. كان درساً طويلاً مرهقاً في بداية دراسة النحو والصرف .. أما خلقاً فإن الضمير يعذبنا في كل خطوات الحياة ، إذا كان ضميراً حياً يقطلاً ، لا يريد لنا كسباً سريعاً في الحياة الدنيا أو في الحياة الآخرة .. بل يرتفع صوته مع كل تصرف ويصرخ بنا ألا نعيد عن الطريق المثالى وألا نخرج قيد أمثلة عن القيم العليا .. إنه يجعلنا كأطفال ، نصارح أمهاتنا : أننا كسرنا الشيء قبل أن نكتشف هى أنه كسر . ويؤرقنا هذا الضمير إذا ما وجدنا من فرد أو جماعة انحرفا عن المثل العليا ويظل الضمير يصرخ فينا ، لكى نلتزم بجادة الصواب في كل أمورنا ، مهما كلفنا ذلك من مشقة وتعب .

ويرهقنا الضمير علمياً ، ونفسياً ، حين ندرسه في علم النفس ، فقد اهتم به

الكثيرون ممن تفرغوا لعلم التحليل النفسى ، وقالوا عن الضمير إنه « الذات العليا أو الذات المثالية ، التى تفرض رقابتها على الذات السفلى أو الغرائز » . إنها عبارة صعبة لم أفهمها وأستوعبها جيداً ، إلا عندما قرأت قصة دينية قصيرة ، تناقش أجمل ما فى شهر رمضان ، ويعرض الكاتب الصور الرمضانية فى مجال أخاذ ، ويقدم أحلى ما فى الشهر الكريم ، وينعطف فجأة ليقول : « إن رمضان صنع مجد رجل عظيم ، فقد أعلن له أبوه فى طفولته ، أنه يستطيع أن يراقب أعماله ، ويستحيل عليه أن يراقب صيامه .. وأن الرقيب على الصيام هو الله ، وشيء من داخل الإنسان يحول بينه وبين الإفطار .. ونمى الصغير ذلك الشيء الذى بداخله ، والذى عرف أنه الضمير ، ليصبح عملاقاً يأخذ بيده إلى طريق الخير والنجاح » .. وقرأت هذه القصة فى رمضان ، وشعرت إزاءها بارتياح عميق ، فقد فسرت لى الذات العليا ، والذات المثالية ورقابتها على الذات السفلى والغرائز ..

ويرهقنا الضمير ، فلسفياً ، وحياتياً ، عندما نخطو إلى دراسة الفلسفة ، ولا يصدع الضمير رأسنا فحسب ، بل « يصدعنا » كلياً إذا صح التعبير .. فقد يكشف بعمق عن ذلك التوتر ، الذى نستشعره فى باطن نفوسنا ، بين ما نملكه وبين ما نريد تحصيله .. بين ما حققناه ، وما نرجو أن نحققه بين ما نحن عليه بالفعل ، وما نبغى أن نكون عليه الخ ..

هذا « التوتر » هو الذى يجعل الإنسان موجوداً أخلاقياً بمعنى الكلمة ، لأنه هو الذى يجعلنا نراقب أهواءنا وحوافزنا وشتى ميولنا . وهو الذى يدفعنا إلى مجاهدة غرائزنا وانفعالاتنا ودوافعنا الطبيعية ، وإذا بالضمير أساس ومرتكز لكل دراسة حول الأخلاق .. إنه ميزان الخير والشر ، الصواب والخطأ .. بل قد

يرتضى القانون ، أو الناس أشياء ، ويفرضها الضمير .. لأنها تثير نفوره وعدم ارتياحه . وإذا كنت قد أوردت قصة عن رمضان والضمير ، إلا إن الضمير ، يجب أن ينبع من إحساسنا بالحاجة الماسة إليه ، كمجتمع وكأفراد .. وهو ليس درساً أخلاقياً يلقنه صاحبه من الخارج لكي ينبثق من داخله . بل هو ممارسة فعلية ومعاينة للنفس ، إلى أن يستقر فيها الضمير عملاقاً يأمر وينهى .. وما من شك ، في أن أروع ما يمكن أن نطلقه على إنسانة أو إنسان ، أن نقول : إن عندها أو عنده ضمير .. وهذه الصفة ، تكفي وحدها لكي تؤكد أن أصحابها على درجة عالية من الخلق .

### ٣

بذلت محاولات عدة لتعريف الضمير ، ولمعرفة موقعه من التربية الأخلاقية .. والضمير كما يوجد لدى الفرد ، يوجد لدى المجتمع .. أى أن هناك ما لا يرتضيه الفرد ، وما لا يرتضيه المجتمع ، وفقاً للضمير الذى ينمو ويتشكل بالممارسة العملية للقواعد الأخلاقية .. وقد عرفوا الضمير بأنه « الوظيفة النفسية التى تقوم بأحكام خلقية على الأفعال الإنسانية » ونحتاج هنا ، إلى معرفة مقومات الضمير ، وعناصره .. وأولها عنصر عقل بشرى ويأمر وينهى ، ويصارع الغرائز من أجل توجيه الإرادة .. وقد استطاع الفيلسوف الألماني « كانت » أن يفرض على كل شعبه ذلك الأسلوب فى التفكير ، وتحكيم العقل فى كل شئ وترك بصمته على كل طفل ألماني ، يولد ويشب ويتعلم ويعمل ويفكر .. إنه يرى الضمير صورة من صور الفهم والعقل .

وقد ترفض هذا ، فالعالم ليس عقلاً فحسب ، ولا فهماً فقط .. هناك الوجدان والشعور ، ولهذا العنصر الثاني من عناصر الضمير ، أنصار ، منهم ، جان جاك روسو ، وكان اهتمامه كبيراً بالشعور والوجدان ، وعن طريقها ، نعرف راحة الضمير لدى كل عمل طيب نقوم به ، وتأنيب الضمير على ما نرتكب من خطأ ، أو لأننا لا نقدم على الخير بما يرضينا .. وكم تغضب على روسو ، عندما تعرف أنه كان يحسن الكلام والدراسة ، ولا يطبق ما ينادى به ، حتى لقد وضع أروع كتب ونظريات التربية ، ووضع أولاده في ملجأ للأيتام ، لينهض عنه بعبء تربية أولاده ، الأمر الذي يؤكد لنا ، اتساع الهوة ما بين النظرية والتطبيق ، ويتبقى العنصر الثالث الأخير من عناصر الضمير ، عنصر المجتمع .. ومما لا شك فيه أن قيم مجتمع ما ، تترسب في نفوس أبنائه ، وتساهم في تشكيل الضمير ، وكثيرا ما نرفض أشياء بضميرنا ، قائلين : « وكلام الناس ؟ » .. إننا نخشى حكم المجتمع الذي يحدد استجابتنا للظواهر الأخلاقية بترائه الاجتماعي وبيئته الحضارية .. وكان صاحب هذه النظرية ، عالم الاجتماع الكبير « ابن خلدون » ودور كايم من بعده . والواقع ، أن المعرفة أساس للبناء ، وليس المقصود أن يكون البناء أساساً فحسب ، لكن الحديث عن الضمير ، لا يجب أن يكون حديث العلم والمعرفة ، فالبعض يتصور « العلم والمعرفة » فهوة ، ولا يدرك أن الضمير كان موضوع دراسة من الفلاسفة وعلماء النفس ، فقد تحدثوا عن نشأة الضمير ، وتصدوا للمذاهب التي ناقشت الموضوع ، البعض يرى الضمير فطريا يولد مع الإنسان ، وقال البعض الآخر : إن الضمير يوجد ويكتسب .. ووصل بهم الأمر ، إلى القول بأن القوانين لا تخلق الصفات الطيبة ، إنهم يتكرونها التربية ، ولكنهم يرون أنها لا تبدأ من

اليوم ، إنما تستند إلى أساس فطرى تبنى عليه العادات والقيم . وليس أجمل من قصيدة للشاعر الفرنسى الكبير « فكتور هوجو » يقول فيها :

إذا كان هناك ثمة منظر أروع من البحر فهو منظر السماء ..

وإذا كان هناك ثمة منظر أروع من السماء فهو الضمير ..

فالضمير عندى ليس نحوًا وصرفًا ، ولا هو علم نفس وفلسفة ، بل هو فى مصاف الحياة ذاتها ، ولقد تطورت الحياة الإنسانية إلى الأفضل ، لأن هناك شرفاء ، ذوى ضمائر حية عذبتهم ، لكى يعطوا البشرية عصارة عمرهم وفكرهم ، من أجل حياة أفضل ، وما كان فى استطاعتهم أن يجججوا عن الإنسانية فيض خواطرها ، ويفضلها رويًا أشجار الحرية والتقدم ، فاخضرت وأثمرت قيمًا غالية عزيزة أثرت عقول البشر ووجدانهم ، وبنيت مجتمعاتهم على أسس أكمل وأروع .. وما استطاع ذوو الضمائر الميتة أن يؤخروا المسيرة ، فقد انتهوا بموت ضمائرهم .

ونعود من حيث بدأنا .. إلى « المعرفة » وه التربية » .. قد نعرف كل هذا وأكثر من هذا عن الضمير ، ولكننا نفشل فى إيجاده وخلقه وتنشئته وتربيته .. وقد لانعرف الكثير عن الضمير ، ولكننا نزرعه فى نفوسنا ، ونفوس أبنائنا ونتعهد به بالرعاية والاهتمام ، فيشمر الخير ، ويثرى الحياة .. لأنه القاعدة التى تنطلق منها التربية الأخلاقية وهو الأساس لها ، ومن فوقه يقوم ببناء شامخ يشمل عشرات القيم ، التى آمنت بها الإنسانية خلال مسيرتها الطويلة ولا بد لنا من أن نعرف هذه القيم الأخلاقية ، وثؤمن بها ، ونعتقها ، لكى تسود حياتنا كأفراد وجماعات ، وتصنع منها شيئًا يستحق أن يعاش ..

كان الصدق - وما زال ، وسيظل - أول ما نريد أن نغرسه في أبنائنا .. وقد كان الكذب أكبر الكبائر ، وأسوأ ما يمكن أن يلصق بإنسان .. ودائماً أبداً ، بدوى في آذاننا هذا الحوار ..

- هل يكون المؤمن جباناً ؟ هل يكون المؤمن .. ؟ هل يكون .. ؟ .

- نعم

- هل يكون المؤمن كذاباً ..

- لا

لا ، وألف لا .. لا يكون كذلك أبداً . إن الكذب أم الكبائر .. ويروون عن رجل ألقوا عليه بضعة أسئلة .. هل تسرق ؟ هل تشرب الخمر ؟ هل ... ؟ كانت إجابته على كل ذلك : لا .. لا أرتكب مطلقاً مثل هذه الأمور .. وكان السؤال الأخير .

- ماهى الصفة التى تضيق بها نفسك ؟

- إننى .. إننى .. إننى أحياناً أكذب ..

وانفجر الحاضرون ضحكاً .. فقد اعترف بإجابته على الأسئلة بأنه يرتكب كل آثام الوجود ، فلا أحد يصدق حين يننى عن نفسه هذه الاتهامات ، والذى يكذب ، يظل يكذب حتى يصدق نفسه وحكاية جحا شهيرة ، حين ضايقه الأولاد ، فزعم لهم أنه فى دار فلان فرح وعرس ، فذهب الأولاد ، وإذا به يقول لنفسه : قد يكون هناك فرح وعرس فعلاً فى هذا الدار .. وانطلق إليه ..

ولتصوره في لقاء مع الأولاد عند هذه الدار ، لقاء كذبه .  
ونحن نذكر قصة الولد الذي كان يصرخ الذئب الذئب .. وحين جاء  
الذئب بحق ، وارتفعت من جديد الصرخات لم يستجب لها أحد ، والنهم  
الذئب ذلك الولد الذي أودى به كذبه .. لذلك قالوا « إن التربة هي  
الصدق » وترفع في أعيننا قيمة الصدق وتذكر أنه أبو الفضائل .. فالشجاعة  
موقف صادق : كذلك الكرم والصبر والأمانة إلى آخر هذه القائمة الرائعة للقيم  
الإنسانية .. .

وكثيراً ما نضطر إلى أن نحمل شمعة ، نبحث على ضوئها عن « الصدق » في  
عالمنا فلا نكاد نجد ، وهذه شعارات قد يرفعها الأبناء ، أما التربويون ، فإنهم  
يجدون الصدق في حجرات الدراسة ، ينطلق على ألسنة الصغار والمعلمين ،  
ولست أنسى قصة تلميذ صغير عاقبة معلمه فبكى بحرارة في لحظة دخول  
المفتش ، الذي اتجه على الفور إلى الصغير يسأله ما به ، وتردد التلميذ قبل أن  
يقول : إن شحلة قرصته . وابتسم المفتش ابتسامه عريضة ، فقد أدرك الأمر ..  
لكن المعلم جاء إليه حيث يقف قرب التلميذ الباكي ، وقال له متحملاً  
المسئولية :

- ليس صدقاً .. إنني في الواقع عاقبته ..

وسعد المفتش سعادة بالغة بالموقف ، كما سعد باحتمال التلميذ للعقوبة ونسبها  
إلى النحلة: إنه صادق الحب لمعلمه . والصدق فوق التضحية والشجاعة ..  
إنه - كما قلت - قيمة تربوية عالية لا تلوها قيمة أخرى لذلك يجب أن نلتزم بها  
التزاماً كاملاً في الحياة .

## الفن والتربية

١

علمنا يموج بتيارات فنية ، وكل الدنيا تسعى لتجميل المدن ، والطرق ، والمباني ، وتبذل جهودا مضية لكي يفتح المواطنون أعينهم على الجمال أينما ساروا .. والفن مسئولية الدولة والمجتمع ، ومسئولية الأسرة والأبوين ، ومسئولية المدرسة والمعهد ..

إن المدن التي لا طابع لها ، تؤثر في نفوس سكانها وضيوفهم أسوأ تأثير ، وينعكس ذلك على تصرفاتهم وسلوكهم .. لذلك تحرص كل الدول المتقدمة على أن تجعل المدن قطعة من الجمال بتنسيق الشوارع ، وزرع الحدائق ، واكتساب مساحات من الخضرة ، مع توزيع للألوان مناسب لا يؤذى العين .. حتى أنهم يشترطون لطلاب منزل من الخارج ضرورة أخذ رأى الجيران في الألوان ، حتى لا يفتحوا أعينهم على ما يؤذيهم .. كما أن مصالح ومجالس لتنسيق المدن توجد في كل البلدان ، تتفرع عنها هيئات لتجميل الأحياء .. وبالتالي الشوارع والميادين .

وبدأ الجمال يفرض نفسه على البيوت منذ فترة ليست بالقصيرة ونشأت هندسة ديكور المنازل .. والأثاث .. وتسلل الفن إلى الغرف والحجرات ، من أجل أن يصنع جوًّا بهيجا للأسرة تعيش فيه ، وتستمتع به .. وذلك شيء رائع

إذا اتسق ما في البيوت مع البيئة خارجها ، وإذا ما اتفق مع الجذور التاريخية الخاصة بسكان هذه البيوت .. فالديكور واللوحات برغم عالمية الفن ، يجب أن توأمت وتناسب أصحابها ، ويجب أن تنبثق من نفوسهم ومزاجهم وماضيهم . ومدارسنا تعلم أبناءنا الفن .. رسماً وتشكيلاً ، وتحاول أن تدرهم على تذوقه .. وهي خطوة هامة على الطريق ، برغم كل ما يمكن أن يثار في هذا المجال .. فالبعض ضد الفن .. والبعض ضد أساتذة الفن أنفسهم .. والبعض ضد المنهج والأسلوب المستخدم في هذا المجال . ولسنا نحب أن نشوه كل شيء ونحكم عليه بالفشل لمجرد أن نقدًا يوجه إليه .. لقد وجد الفن في المدرسة ، ويجب استئثار وجوده ، خاصة وشباب جديد ينهض بأعبائه ، بكل ما في استطاعتهم ، وبعضهم ينجح برغم المعوقات ، وبرغم أن حصص الفن لا تلتقي ماهي جديرة بها من احترام ، إذ كثيرا ما يعتدى عليها من جانب مواد دراسية أخرى ، يتصور أساتذتها أن الفن والرسم أمور ثانوية ، يمكن إغفالها وتجاوزها واستبدالها بما هو أهم منها .. وهكذا تتضافر عوامل كثيرة على الهبوط بالتربية الفنية من كافة الجوانب التي يجب أن تكون في صالحها ، والتي يجب أن تتحمل مسئولية النهوض بها .

إن الفن ضرورة للأجيال الناشئة ، وفي سنوات العمر الأولى بالذات ، تكون ممارسته مجدية بشكل كبير ، بل يجد فيه الأطفال متنفسًا لتابعهم النفسية .. ولقد عبر طفل عن إحساسه بأبيه بأن رسمه ، وكفه ويده أكبر من كل جسمه ، وكشف بذلك عن استخدام الأب لهذا الكف في إيذاء الابن لدرجة جعلته يتصورها شيئا عملاقا في حجم الأب نفسه ! ورسم طفل آخر أمه ، عبارة عن دائرة كبيرة فيها بضعة أسنان . وكانت تشير بذلك إلى أن أمه لا تريد

على أن تكون فَمَا كَبِيرًا بصرخ فيه ، فالفن هنا علاج وتربية ، ولدينا فرصة من خلال الكتب الملونة على تدريب الأطفال على رؤية الألوان ، ومعرفة تأثيرها عليهم ، وفهم أهميتها في الحياة .. ثم لدينا لعب تكشف عن قدرة الطفل على إدراك الحجم ، وأخرى لمعرفة المساحات ، وبذلك تتدرب عينا الصغير على ما حوله ، وعلى فهم علاقاتها بعضها ببعض ، والإحساس بما يمكن في هذه العلاقات من جمال .. والمدرسة وحدها ليست مسئولة عن كل هذا فإنها قد تكون جميلة ، منسقة ، رائعة ، ويفسد البيت باهماله للفن ما تبذله المدرسة .. وربما تضافرت المدرسة والبيت على خلق ذوق فني رائع ويحيط المجتمع كل هذه الجهود بما يصنعه في الشارع من إعلانات سقيمة ، وبنائات منفرة ، ونحن نود أن يتم التنسيق بين كل هذه الجهات لكي نصنع جمالا يتمتع أعين الناس ويبهج نفوسهم .. فإننا لا نستطيع أن ننسى تلك العبارة المرححة التي تقول :

« شيء طبعى أن الفن الرديء يخلق الذوق الرديء »

وهو مالا يمنعنا من أن نتساءل : هل كان الفن الرديء ليوجد لولا وجود الذوق الرديء ؟ ! ..

ونحن لانريد فئا رديئا ، ولا ذوقا رديئا ، إنما نسعى من أجل فن جميل وذوق أجمل ..

## ٢

فزعنت حين سمعت أن والد طالب ذهب إلى مدرسة ابنه ، يريد أن يخرجها منها ، لأنه يرفض أن يتعلم الطفل الرسم ، إذ إن الأب يعتقد أن الدين قد حرم

الرسم .. فرغت لأن مثل هذا اللون من الناس مازال يعيش بيننا ، وبهذه العقلية المتخلفة .. وأدركت السر في تخلف الفنون في بلادنا : إنتاجًا وتذوقًا .

مازلت أذكر رسمًا لطفل صغير وضعه على الورق تلقائيًا .. وعندما سألته : ما هذا ؟ أجاب : لاشيء .. مجرد شيء جميل .. ولم يكن يدرك حينئذ أنه يقول كلامًا فنيًا على أعلى مستوى ، وأن ستين طويلة قد راحت من عمر الإنسانية وهي تفتش من خلال المدارس الفنية على « الجمال » وتحاول أن تضعه في عيون الصغار ، وتبذل جهودًا مفضية من أجل أن تصنع أصابعهم بالريشة والفرشاة والقلم .. ويكبر الأطفال وقد بدأت أصابعهم تتيبس ، وتتصلب ، وتتحجر ، ولا تطيعهم لكي يعبروا بها عن الأشياء الجميلة بالخطوط والتكوينات والألوان ، إلى أن نغدت - بفضل أساتذة التربية الفنية - كل قدرة على التعبير بالرسم ، وانتهت علاقة الأطفال بصنع الفن ! وكادت تنهى كذلك علاقة المجتمع بالفن - كتشكيل - فهو لم يعد يتذوقه بعد أن وضع أساتذة التربية الفنية قواعد وأصولًا للرسم الجميل ، وغير الجميل ، حتى بدأت العيون هي الأخرى تتيبس وتتحجر عن رؤية الجمال في اللوحات والتماثيل ، ولولا أنهم فنانون بالأصالة ، والطبيعية ، والوراثة ، لانتهدت علاقتهم تمامًا بهذا العالم الذاهر بالجمال والروعة ، ولانقطعت صلتهم بالمعارض والمتاحف ، بل نكاد نقول إنهم كادوا لا يلتفتون إلى رسم بمجلة أو صحيفة .. أصابعهم السادة الأجلاء أساتذتهم بعنى مؤقتة عن مهرجان الجمال والألوان المتمثل في لوحات الفنانين وقطعهم الساحرة .. ( ساعهم الله ، وغفر لهم ) .. إن الفن إضافة ساحرة ورائعة للحياة ، بل صياغة جديدة لها ، كما أنها تنعكس عليه في لغة مؤثرة تلعب بالخطوط ، والمساحات والأشكال والألوان ، وتلعب بالارتفاعات

والمسطحات والمنحنيات بشكل متزن يؤثر في الرائي وتجعل حياته أكثر بهجة وسعادة .. كل ذلك فاتنا في طفولتنا ، مع أن الطفولة متفتحة للتعبير عن نفسها عن طريق هذه اللغة الإنسانية الفريدة ، ولا يقابل هذا بالتشجيع ، بل بالسخرية والاستنكار ، الأمر الذى يدمر كل رغبة في مواصلة هذه الوسيلة الطبيعية من وسائل التعبير ، وتغلق النافذة أمام العيون .. ولو أنهم كانوا يفهمون الأصول الفنية ، ولو أنهم كانوا أكثر وعياً بالهدف الذى يسعون إليه ، والوسيلة التى يمكن أن تحققه لما حدث لى هذا الإحباط ، ولبقى الفن وسيلة رباط بيننا وبين الآخرين ، تأخذ منهم ونعطيهم .. إن الفن ليس غاية فى حد ذاته برغم كل تجميعه للحياة وتعبيره عنها ، إنه يهدف إلى تمثله ، لينعكس سلوكاً وتصرفاً إزاء كل مواقف الحياة ..

وإذا كنا قد فقدنا طريقنا للفن: تربية وتعليماً ، فيجب الانفزع ونضيق حين نسمع طالبة تقول إنها لا تحب الرسم والتربية الفنية ، وهى بذلك لا تحب « الحياة » .. إن الفن استثمار لوقت الفراغ ، وامتاع للوجدان ، ولا قدرة للطالبة على استيعاب بقية مواد الدراسة إذا هى انصرفت عن الاستمتاع بالفن .. إنه يرى الوجدان ويصقل الإحساس ، وهو قادر إذا مارسه صاحبه على علاجه من كثير من الأمراض التى قد تتابه كالخجل والانطواء .. إنه حين يستغرق صاحبه يجعل منه إنساناً حساساً شفافاً ، قادراً على العطاء .. والشرط الوحيد لذلك ، ليس الموهبة فحسب ، بل أن تجذب هذه الموهبة أسرة واعية ومعلمًا متفتحًا يحتضنها بحب وأمل وتشجيع .. إن الطفل فنان ، ومعبّر ومبتكر ، إذا فتح أمامه الطريق ، ولقى اليد المساندة الحانية .. لا أحد يستطيع أن يدرك مدى سعادة الصغير حين يجده لوحته قد علت وارتفعت على الجدران .. إن ابن صديق لى

كان وهو يطلعني على كراس الرسم ، أو التربية الفنية ، الخاص به .. كان عبارة عن غلاف ، وبضعة أوراق بيضاء قليلة لا يكاد « الدبوس » يجمع ما بينها أو يشبكها .. سألته : أين الرسوم ؟! أجاب : إن كلها أعجبت المعلمة ، لذلك تنتزعها من الكراسة وتعلقها .. قال هذا في فخر وزهو وثقة في النفس ، أكاد أقطع معها أنني أمام ليونارد دافنشي صغير وجديد ، إننا على ثقة من أن كل أم لديها فنان كبير بين أطفالها ، وهي تستطيع أن تنمي موهبته وتصلقها وتجعل منه عبقرياً .. وفي الوقت ذاته في إمكانها أن تقبر هذه الموهبة وتأتي عليها .. وما من سبيل لنجاح الطفل - في مجال الفن خاصة والحياة عامه - ونحن نحرم أصابعه من التدريب ، ونحول بين عينيه وبين الاستمتاع بالجمال .. في المتاحف ، والمعارض .. وفي الطبيعة ..

### ٣

إن الفن جو .. تستطيع الابنة والأم أن تخلقه وتصوغه بقدراتها ومهاراتها وخبراتها ، إنها تجعل الصغير ينظر للموضوع من زواياه التشكيلية والانفعالية والتعبيرية .. من أجل أن يصبح هذا الموضوع مساحات وخطوطاً وألواناً ، ومن أجل أن تقيم جمالياً ، وليس وفق المقاييس والقواعد التقليدية .

والحق أن الأسرة في بلادنا ، ومعها المدرسة ، والمجتمع ، لا يتعاونون لكي يخلقوا فناناً خلاقاً مبتكراً ، لا يوجدون إنساناً متذوقاً متفهماً ، لئنا نضع منهجاً ، نجعل فيه نصب أعيننا هذه الخاتمة الإنسانية المفتحة على الحياة ، صاحبة الأصابع اللينة المرنة ، التي تحتاج إلى أن تعبر ، وتتذوق .. وليت

لوحات معبرة تتناثر في أرجاء وأبهاء بيوتنا ومدارسنا نجمعها ، وتفتح الأعين على الجمال .. ولئن أنسى ذلك الضغيز الذي أمسك بيدي لكي يريني لوحة صغيرة جميلة رسمها بنفسه ، ووجدتها أمه أنها من الجمال بحيث يمكن أن تعلقها في غرفته .. ولئن أنسى طفلا آخر أمسك بيد أمه يقودها إلى آخر ركن في المدرسة لكي تشهد لوحة له معلقة هناك ، وهو يقف بجانبها راضيا سعيدا .. تمت أن تمتد بها العمر ، لكي يمسك بيدها إلى معرضه ! .

ولسنا نريد بالطبع أن يمارس الجميع الفنون التشكيلية بصورة تصل بهم إلى المعارض ، ولكننا نريد أن يستمتع الجميع بعيون ذواقه تصل بهم إلى مشاهدة المعارض ، ونريد من الجميع أن يمارسوا إمتاع عيونهم بالفن رؤية وتطلعا .. نريد أن نرى الصغار والشباب والكبار يسعون إلى المعارض والمتاحف . يستقظرون الجمال في عيونهم ، كما يتمتعون بالطبيعة : بحارًا ، وجبالا ، ونخضة .. إن هذا يثرى حياتهم .. إن ساعة وسط الجمال ليست بساعة . إنما هي بعمر كامل .. لأنها رصيد ، يسحب منه صاحبه مع الأيام ، بعد أن يجترن في أعماقه ما يرسب فيها من قيم جمالية ، تبقى مشعة ومضيئة ممتدة لوقت طويل وبعيد .. ولكم نتطلع إلى الأمهات وإلى معلمات الفنون راجين أن يسكين حب الجمال في عيون ونفوس الأبناء .. وأن يملأن قلوبهن شغفاً بها وبالحياتة .. إننا نحب من أبنائنا الا يكتفوا بأن تكون غرفهم نظيفة ، بل جميلة ، وما أيسر ذلك .. وكثيرا ما نرى فراشات زاهيات الألوان ، وأشجارا دائمة الخضرة ، وغابات وشلالات وبحيرات على جدران غرف أبنائنا ونتطلع إليها بحب ونستمع بها ، تدوقا للجمال ، وتدربا على استيعابه .. ونريد من مدارسنا أن تكون كذلك .. وبيوتنا أيضا في حاجة إلى لمسات الجمال ، ذلك وحده هو الكفيل

بإنجاب فنانيين يجعلون حياتنا أترى وأجمل .. وحياتهم هم أيضا .. ونحن  
لا ندرى إلى أى مدى يمكن أن تتأثر نفوس أطفالنا بالرسم الرديئة التى تطالعهم  
فى البيوت أو المدارس ، إنها قد تفسد أذواقهم ، ويكون لها أسوأ الأثر عليهم  
حاضرًا ومستقبلا .

## الرياضة والتربية

### ١

ليس للرياضة في حياة الأسرة في بلادنا مكان ، ولو أنني سألت ربة أسرة عن الرياضة التي تمارسها لا تفجرت ضاحكة ، واعتبرت سؤالى « نكتة » والأمر نفسه ينسحب على رب الأسرة ، وذلك برغم النوادى الرياضية الكثيرة التي نقيمها ، والتي جعلت الرياضة تنحصر في شىء واحد ، هو الانحياز لفريق بذاته ، وناد بعينه والتعصب مع الأسف لكرة القدم ، لا أكثر ولا أقل .. ولا بد وأن نرفع يدنا ضد هذا الذى يجرى قائلين :

- ( فتى ) .. أى .. إني أعترض .. نعم ، نحن نعترض على أن يظل الأمر على هذه الصورة البالغة الضرر بنا ، صحياً ، ونفسياً .. والسؤال الذى يعتبره رب الأسرة وربة الأسرة نكتة وأقصد به الرياضة التي يمارسها ، يدهشنا أن نجد الرجل المتحضر والمرأة المتحضرة يميان عليه بأنها يمارسان أغلب ألوان الرياضة بداية بالمشى على الأقدام ، والسباحة ، و... و... إلى آخر هذه القائمة من الألعاب التي توارثناها عن مصر القديمة ، والإغريق الذين ابتدعوا الأولمبياد ، وهو تقليد بعث من جديد مع القرن العشرين .. أما نحن فلم تعد لنا رياضة اللهم إلا التزهة في البر ، وخلال عطلة الصيف .. وهى لا يمكن أن تكون كافية على الإطلاق والسؤال : هل فات الوقت ؟ ألم يعد هناك من أمل

لتدارك هذا الذى يجرى ، خاصة بالنسبة للأبناء ، والأجيال الجديدة التى أتاحت لها فرصة التدريب على ألوان من الرياضة فى المدارس ؟!

كما أن هناك ( التعليم المستمر ) يجب أن يكون هناك ( الرياضة المستمرة ) تفرسها المدرسة ، ويتعهدا البيت والأسرة ، ويشجعها المجتمع والدولة ممثلين فى الأندية الرياضية ، وبغير هذا سوف تظل الرياضة شيئًا بعيدًا عن حياتنا ، وسبقى ( نكتة ) لا أكثر ولا أقل .. فى حين أننا مطالبون بأن تدخل الرياضة فى حياتنا بشكل عضوى ، نحن الذين آمنا بأن ( العقل السليم فى الجسم السليم ) .. وتكفيننا نظرة إلى العالم الخارجى ، لنكشف إلى أى حد نحن مقصرون فى حق عقولنا وأجسامنا بتفريطنا فى الرياضة .. وقد فرض علينا ديننا الحنيف رياضة - بدنية وروحية - خمس مرات فى اليوم ، وأقصد بها « الصلاة » وفرض رياضة وترويض المعدة والنفس من خلال صوم رمضان ، وفى الحج رياضة فيها طواف وسعى ، ومع كل ما يمثله كل ذلك من توجيه كريم ، فإننا نبدو كأنما لا نفهم هذه الإشارة ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، ولكن من أين يأتى الفهم ، ونحن لم ندفع سقم العقول والأجسام برياضة ترفه عنها ، وتقوى منها ، وتدفع الضعف وتقوى المرض ، والوقاية خير من العلاج ؟

وها نحن قد شخصنا المرض ، وكشفنا عنه ، وبقى أن نفتش عن الدواء ، ونبحث عن العلاج الناجع لهذه المشكلة التى لا أحسبها أخذت منا عناية كافية .. على الرغم من أن صفحة رياضية كاملة ، تفردها صحفنا اليومية ، وتنشر فيها أخبارًا وتحقيقات عن الرياضة والرياضيين ، وأنباء عن دروع وكؤوس وميداليات ، ومباريات .. إلا أن ذلك لا يمكن أن يقوم دليلًا على أن الرياضة تدخل حياتنا بشكل عضوى ، ولا هو يؤكد أن لها دورًا حقيقيًا ، لذلك لابد

من خطة شاملة ، يتحمل فيها كل طرف من الأطراف جانبًا .. من المسئولية ، لكي ننهض بعبء التنفيذ .

على أن هذه خطة يجب أن تنطلق من إيماننا بهذا الذي نقوله ، ويجب ألا تتصور الأمهات والآباء أن الوقت قد فات .. إن لكل عمر رياضته المفضلة ، وقد نجحت الإنسانية في ابتكار ألوان من الرياضة للعجائز . لمن هم في السبعين ، وما فوقها .. وأوضح مثل للرياضة التي يمكن أن يمارسها الجميع لعبة ( الجولف ) التي تجعل لاعها يسير نحو عشرة أميال دون أن يحس ودون أن يشعر لأنه يقطعها خطوة خطوة ، ببطء . وراء دفع كرات صغيرة إلى حفرة في الأرض ، بواسطة مضارب خاصة .. كما أنهم ابتكروا ألعابًا رياضية للأطفال من سن الحضانة حتى يقووا من أجسامهم وعضلاتهم ، ويواكب هذه الألعاب برنامج خاص للتغذية لتعويض الجسم عما يفقده خلال ممارستها . إن الأسرة في حاجة إلى ثقافة رياضية لكي تخلق رأيًا عامًا يساند قضية الرياضة ، ولكي تخلق وعيًا بما يجب أن نعمله لتحقيق شعار ( الرياضة للجميع ) ، وليست للرياضيين الذين يمارسون لعبة بعينها ، ويحترفون رياضة بذاتها .. هؤلاء ليسوا هم هدفنا ، بل إننا نريد لقطاعات عريضة من الجماهير أن تسعى للرياضة بألوانها .. ولعل الألعاب السويدية التي تقتصر على تحريك الأذرع والسيقان ، والجذع ، والرأس ، وباختصار كل أعضاء الجسم ، في حركات منتظمة ، موقعة أيسر ما يمكن أن يقوم به من فاتهم ركب الرياضة ..

إننا ننتظر الكثير من المدرسة في هذا المجال ، ونتوقع الأكثر من المجتمع

والأندية .

يمارس الأطفال الرياضة بتلقائية رائعة ، وذلك من خلال « اللعب » ويتم هذا قبل أن يدخلوا المدرسة ، ويلعبون « الرياضة » بشكل منظم ، وعلى أيدي المعلمين والمعلمات .. ولكننا نلاحظ شيئاً طريفاً .. ذلك أنه عندما تحولت الرياضة إلى « حصّة » قلّ حبهام لها ، وإن ظلت واحدة من أحب ساعات اليوم الدراسي إلى التلميذات ، إن لم تكن أحبها على الإطلاق بالنسبة للطالبة .. ومعلمة التربية الرياضية ومعلمها ، يتمنى الجميع لو أنهم أصبحوا مثلها : صحة ، وشباباً ، وقواماً .. وهم يحبون مهنتها إذ إنها مهنة تبقى لصاحبها الصحة والشباب ، والنشاط والحياة ، ويتقاضى أجراً في مقابل ذلك ! وليس هناك مهنة تعادلها في ذلك ، فالطالبات يقبلن على حصتها وعليها إقبالاً قل أن يحدث بالنسبة لبقية المعلمات .. يشدهم بالرداء الأبيض ، الناصع ، والحركات الإيقاعية ، والجرى والقفز .. ثم الكرة ، بل لعباتها .. وتتمنى الطالبات أن تتحول كل ساعات الدراسة إلى « ألعاب » ولا تتحقق أمنيتهن ، بل حدث العكس إذ تبدأ معلمات المواد الدراسية يزحفن قرب نهاية العام الدراسي على حصّة التربية الرياضية ، حتى تكاد أن تختفى من الجدول ، وشعور بالأسف والأسى لذلك يتتاب الطلبة والطالبات رويداً رويداً. يضطر الطالبات لأن يباعدن ما بينهن وما بين الرياضة والتربية الرياضية حتى كادت تختفى من حياتهن الدراسية قرب انتهاء المرحلة الثانوية .. لكنها في الواقع لا تنتهي من حياتهن ، لأنها تترك أثراً لا ينمحي ، وتتركز في عبارة تقليدية هي في واقع الأمر من أجمل

وأعمق العبارات التي تؤثر في النفس ، تلك هي « الروح الرياضية » .. وإذا لم تكن التربية الرياضية قد خلقت غير هذه الروح ، فإنها تكفي بحق ، وصدق .. والمعلمة الذكية تلح على اللغات الجماعية . ولسان حالها يقول :

- نعم ، هناك بطلات في ألعاب فردية ، كالسباحة مثلا ، لكن بطولاتها تتواضع بجانب بطولات الذين يتعاونون ، ويفضلون الإيثار على الأثرة ، والجماعية على الفردية ، والتعاون على الأناية .

والتعاون من أبرز ما نتعلمه من التربية الرياضية .. وهو قيمة عظيمة في الحياة ، حين نشعر أننا كعائلة في البيت ، وكأسرة في المدرسة ، نعزف لحنا واحداً ، تتعاون وتتآزر في عزفه آلات أوركسترا كاملة ، فإذا بالمعزوفة سيمفونية رائعة وهذه الروح يحقق الفرد ذاته بشكل أفضل ، ويقول كل من حولنا عنا إننا « متعاونون » وهي صفة إنسانية نعتز بها أكثر مما نعتز لو نجحنا بشكل فردي ، فالواحدة منا ناجحة كعضو في جماعة ، وناجحة بنجاح الجماعة .. وبذلك يزدوج النجاح في الحياة بشكل حلو ومثمر وممتع .

والحديث عن النجاح يجرنا إلى نقيضة ، وإلى الدرس الثاني الذي تلقننا إياه الرياضة والروح الرياضية .. هي تعلمنا ألا نزهي ونفخر ونتيه بالنجاح ، ولا ( نتفخ ) بالفوز إلى درجة نصبح معها بالونة قابلة للانفجار غرورا ، وهي أيضا تدربنا على تقبل عدم النجاح بقلب ثابت ، ولا يفقدنا ذلك الثقة في النفس ، فإن الحياة نهار وليل والذي يتعثر ويقع مرة ، يجب أن ينهض وينفض عنه التراب ، ثم يمضي ويواصل السير على الطريق من جديد .. وليس أروع من « الرياضة » أسلوبا للتدريب على تقبل النجاح والفشل في حجمها الحقيقي .. بلا تهويل ولا تهوين ، لهذا أو لذلك ، وإنما علينا أن نقدر الحجم الحقيقي لكل

منها ، إن إطار السيارة يحتاج إلى كمية مناسبة من الهواء ، إذا قلت عجزت  
السيارة عن السير وإذا زادت هذه الكمية انفجر الإطار .. وهذه الكمية المناسبة  
من الهواء شديدة الشبه بما ترعه في نفوسنا التربية الرياضية .. إنها حركة تحفظ  
توازننا ، وتصلب منا قامتنا ..

### ٣

تعلمنا التربية الرياضية أن الحياة ليست علما فحسب ، ولا عملا فقط .. بل  
هي « لعبة » أيضًا .. وإذا ما اجتمعت العناصر الثلاثة - العلم والعمل  
واللعب - استطاعت أن تقيم على أعمدتها بناء الحياة الناجحة السعيدة ..  
« واللعب » ليس عيبا ، بل من العيب أن ننصرف عنه ، على أساس أنه  
للأطفال في حين هو الأزم للكبار ، لكى تظل روحهم طفلة وشابة ، ولكى تبقى  
أجسامهم مرنة ، قادرة على التحمل .. وإذا كانت ممارسة التربية الرياضية قد  
أفلتت منا ، مع الأسف ، فإننا يجب أن نحاول مع كل صباح أن نتذكر بعضاً  
من تمارينها .. وما من مرة نحاول أن نقلد العصفور وهو يهز جناحيه استعدادا  
للطيران ، إلا وأحسنا كأننا عصفورة طليقة سعيدة بحق .

ويجب على كل معلمة في المدرسة أن ترفض بشدة أن تعتدى على حصّة  
التربية الرياضية ، إنها بذلك تحرم طالباتها من ساعة حلوة ، وسوف يتضررن  
من طيلة حرماتهن منها ، ولن يتابعن الدرس مها كانت أهمية هذا الذى تقوله  
المعلمة التى استولت على الحصّة .. بل لو تغيبت مدرسة التربية الرياضية لظرف  
خاص ، وعهد لمعلمة أخرى بأن تحل محلها ، يجب عليها أن تصحبهن إلى فناء

المدرسة ليلعبن معا ، وتصبح الحصص طريفة ، لأن المدرسة تمارس الرياضة وقوفا .. وتمارسها حديثا عن الرياضة لتحسن الطالبات أنها منحازة إلى اللعب بقدر انخيازها للعلم والعمل .

ومن المضحك أن تناول في حديثها أن تقوية البدن أمر حيوى ، فهو ليس إناء الروح والنفس فحسب ، بل لاسعادة في الحياة إذا مرضت منا الأجسام ، فرضها يسقم الأرواح والنفوس ، والصحة تاج على رموس الأصحاء ، والوقاية خير من العلاج ، والتربية الرياضية تقوم كل هذا وتفيده ، وتبعث فيه النشاط والحياة ، وتدربه على الاحتمال ، وتجعله أكثر مرونة وقدرة على خوض معارك المنافسات ، والمنافسة ليست شراً كلها فهي تشحذ كل الطاقات والقوى ، وتدفع الإنسان إلى بذل كل ما يستطيع من أجل أن يفوز فوزاً شريفاً مشروعاً .. وليس من الضروري أن تكون الطالبة متفوقة في الرياضة برغم حبها لها ، ويجب ألا تضيق أبداً بانتصار زميلاتها عليها ، بل لعل هذا تدريب لها على تقبل النتائج أياً كانت ! ، وعندما تصيب الهدف في كرة السلة ، تلتق تهليلاً من صديقاتها ، يمحو كل آثار الفشل ، وعندما تسبق في الجرى تستقبل بالتهنئة الحارة بشكل يرفع معنوياتها ، على أن الفشل يجب ألا يقعدها عن « اللعب » لأن الكسب يكمن في اللعب ذاته ، فنصيب صاحبته أجر إذا مارسته ، وأجران إذا فازت فيه .. ولا بد أن نردد « علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل » ونود لو أننا تعلمناها كلها ، ومارسناها جميعا ، على أن هناك رياضات أخرى ، هي الرياضة العقلية والفكرية ، وهي « تربية رياضية » أيضاً ، أى أن يمارس المرء اللعب بالأفكار ، والجرى وراءها ، ويحاول أن يظل دائماً على صلة برياضة المشى .. والصلاة .. وما شابهها من رياضة ، لا وقاراً واستعلاء ، بل

لأنها ما نستطيعه . وقد يحدث أن نتذكر السباحة صيفاً . ولكننا عموماً مقصرون في حق رياضة البدن بشكل عام .. وكلمنا نظرنا إلى الأوروبيات يعجبنا قوامهن ، وكيف يستطعن المحافظة عليه .. وربما ننجح في ذلك نتيجة الحركة الدائمة .. غير أن المرأة الشرقية تستحق العطف لكثرة جلوسها : الأمر الذي يحولها إلى شجرة جميز !! ومطلوب منا ، لا للرشاقة ، ولا للصحة ، فحسب ، بل للحياة ذاتها أن نتحرك .. والحركة بركة .. والبركة في الرياضة والتربية الرياضية .

## هل دار الحضانة مدرسة ؟

ذهبت يوماً لأطمئن على ابني الصغير ، وكان يبلغ من العمر الرابعة .. سألت مدرسته بالحضانة عن حاله ، فردت : إنه بخير ، وتعلم الكثير .. فالتفتُ وسألتها بلهفة : ماذا تعلم ؟ أرجو ألا تكونوا قد أعطيتموه القلم .. قالت : لا .. بل تعلم أن يتكلم مع زملائه ، ويعبر عن نفسه ، ويذهب إلى الحمام ، ويلعب مع المجموعة ويميز الصور . وأطمأنت عليه ، لكن المدرسة دهشت وقالت لي : الآباء من زملائك يقولون إنهم يدفعون الكثير وإن أولادهم لا يتعلمون . ضحكت وقلت لها : من قال إنى أحضرته ليتلقى دروسا ، ويتعلم بالمعنى الحرفي للكلمة ؟ .. إن يده حتى الآن لا تستطيع أن تمسك القلم إلا « لشخطة » ، وإذا كتب بها حروفاً فستعوقها عن النمو ، وستصبح يدًا قصيرة ويجب ألا يتكلم قبل الأوان .

ولا بد أن نتفق على معنى دار الحضانة .. بداية نقول إن دار الحضانة ليست محزنًا تضع فيه الأمهات أولادهن ، ليكسوا فيها إلى أن ينتهين من عملهن فيردون لأصحابهم . كما أنها ليست مدرسة بالمعنى المفهوم للمدرسة .. لأن مهمتها ليست حثو رهوس الصغار في السن المبكر بالمعلومات ، وليست مسئوليتها أن تعلمهم الكتابة وأب أو ١ ، ٢ ، ٣ ، ولكن مهمتها الأولى أن تعوض الأولاد عن الأسرة ، التي أصبحت في غير إمكاناتها أن تظل مع الطفل يومه

كله ، وتعرض ابنتا عن الحب الذى يفقده بضع ساعات فى اليوم ، مقابل ماذا ؟ مقابل حب من لون آخر لا بد أن يدرّب عليه ، ومحسه ، ويستمتع به ، ولا بد أن يجد الطفل مكاناً غير المنزل ، وأفراداً غير الأسرة يدخلون على نفسه السعادة ؛ لأن الأسرة والبيت ليسا كل شيء . هناك مجتمع آخر لا بد أن يتعرف عليه ويخالطه . فيه لون آخر من ألوان الحياة . ومواجهة المجتمع . هذه تمرن الطفل على الكثير : ومنه مواجهة المجتمع والتغلب على الفردية وطرده الخجل ، والاعتماد على النفس والثقة فيها والقهم المبدئى لمسألة الحرية ، ومنها يحس أن كل ما يطلب ليس شرطاً أن يستجاب . قد يحاول البيت تلبية أغلب طلباته ، لكن هنا : لا ؛ فحرية تقف عند حد حرية زميله ، ثم فى الحضانة يعرف أن هذا له وهذا ليس له ، يستطيع أن يأخذ ماله ، ولا يأخذ ما ليس له . وهذا تدريب على فهم الحق والواجب .

ومما لا شك فيه أن دار الحضانة تثير ذهن الطفل وتحفزه للتفكير . البيت محدود ، بجدرانه ، بأثاثه ، بالأبوين . أما دار الحضانة فرحة ، رحة بفنائها ، بأثاثها البسيط ، وفيها فرصة لاكتشاف عوالم أخرى فسيحة واسعة ، رحة متغيرة متعددة . وفى دار الحضانة أيضاً أمر هام هو علاقة الطفل بالزمن .. فالحضانة تدرّب الطفل على الإحساس بالزمن .. صحيح أنه ليس هناك جدول حصص بالساعة ، لكن الطفل يشعر . يحس بأن هناك حصصاً ، أن لكل شيء وقته . فهناك وقت للموسيقى ، ووقت للحديقة ، ووقت للعب ، أما المنزل فليس فيه ذلك ، ليس للزمن حدود . قد يكون الحد الوحيد له الليل والنهار ، وقضاء الوقت ليس له أى نظام .

ثم إن مشاركة الأطفال فى دار الحضانة تزيد فى الحصيلة الأخوية

للأطفال ، وتعلمهم يتبادلون الكلمات التي يستطيعون استخدامها والتقاطها أثناء احتكاك بعضهم ببعض .. عبارات وجمل تجعلهم أقدر على الكلام مما لو استمروا بالمنزل مع الجيرة أو مع مربية ، وهؤلاء يكلمونهم بلغة أكبر من لغتهم . دار الحضانة لا بد أن تكون مكانا للعب ، للمرح للفرح ، مكانا للحرية والانطلاق ، وللشباط .. مكاناً للنمو ، للبناء ، للتكوين .. مكاناً ثقل فيه التواهي والأوامر ( اعمل ولا تعمل ) وهذا هو السبيل لا بد أن يبقى عندنا مكان نطمئن فيه على أطفالنا في أثناء وجود الأمهات والآباء في العمل . والحقيقة أنني استرسلت في الحديث عن أهداف دور الحضانة ، وليست لدى فرصة للكلام عن الوسائل التي بها نحقق هذه الأهداف ، الطريقة التي بها نجعل دار الحضانة تؤدي واجبها ، البرنامج الذي يمكن أن نضعه ليخرج الطفل منها إلى المدرسة الابتدائية وعنده أسلحة يخوض بها معركة التعليم الحقيقية . إن مسألة دور الحضانة أصبحت مهمة وخطيرة ..

## الطفل .. ورب الأسرة

سألني ذات مرة صحفى أجنبي : من رب الأسرة عندكم ؟ ضحكت  
وقلت : الرجل يقول إنه رب الأسرة .. وأكدت على كلمة «يقول» ؛ وضحك  
الصحفى وقال لى : والواقع ؟! أجبت : الواقع أن بعض الرجال فى مصر  
مازالوا يستأثرون بكل السلطة ، ويتحكمون بشكل يذكركم بالأسرة فى المجتمع  
القديم ، وبشكل يجعل من رب الأسرة شخصية سلبية ، غير مشاركة فى كيان  
الأسرة . ولم أكن فى حاجة لأن أسأل هذا الصحفى عن رب الأسرة فى المجتمع  
الأوربى والأمريكى .. لكنى تركته يقدم فى الصورة بعبارة .. فقال : إن  
الرجل فى البيت ضيف .. يلقى على مائدة المطبخ بمرتبته ، ويدخله ، بعد أن  
يحتجز لنفسه مصروف جيبه ، وبعد ذلك ليس له من شىء فى إدارة البيت أو  
نفقاته .. والمرأة تتحمل كلَّ العبء ابتداء من شراء جواربه إلى تغيير أثاث  
المترل ، وربما البيت نفسه ، لهذا ترى مثلاً : الإعلانات عن ملابس الرجال فى  
المجلات النسائية ، لا لأن الرجال يقرءونها ، وإنما لأن من يشتري هو النساء ..  
فهى التى توجه إليها الإعلانات لهذا السبب .. ويمكن طرح السؤال التالى : ما  
أهمية هذا ؟ هل هناك رب أسرة وربة أسرة ؟ إنها الاثنان معا .. هذه الإجابة  
طريفة ، ومن الممكن أن ترضى الطرفين ، وتريح ، لكنها ليست الواقع .. وهنا  
مثل يابانى ممكن أن يكشف لنا أهمية هذه المسألة .. المثل يقول : « البيت الذى

تقوم فيه الدجاجة بعمل الديك يفسد ولا ينجح .. وطبعاً هذا ليس معناه أن الرجل هو رب الأسرة اليابانية ، وأن المرأة لاصلة لها .. لا .. لكل واحد أعباؤه .. لكن هناك أموراً لا بد أن تكون من اختصاص واحد منهم .. وأموراً من مسؤوليات الآخر ، ولا بدّ من أن تكون هناك مسؤوليات مشتركة لا ينفرد بها واحد منهم .. هناك أمور شديدة الشبه بإنجاب الأطفال ذاتهم ، لا يمكن الانفرد بها ، وانفراد طرف بها يدمر الأسرة .. وتحمل واحد من الطرفين كل الأعباء ظلم ، وجهد فوق الطاقة ، حتى ولو أخذ حقوقاً كافية مقابل هذه المسؤوليات .. لأنه لا بدّ أن يبقى فيه للطرف الآخر رأى من أجل أن يشب الأطفال وهم يشعرون أن هذا هو المعنى الحقيقي للأسرة .. ليس معنى ذلك أن يلقي كل طرف حملة على الآخر أو يجعله يتلاشى .

ومن قريب أجرى استفتاء بين مجموعة من الأطفال .. عن رب الأسرة عندهم فكانت الإجابات تقليدية . فمن يرى أنه الأب يكتب الأب ، ومن يشعر أنه الأم . يكتب الأم .. فكانت هناك إجابة مميزة طريفة بين الإجابات تستحق الإشارة إليها .. فبعض الأطفال قال : إنه لا يعرف .. لأن والديه مازالا يتشاجران من أجل هذا الموضوع .. وهذه هي الخطورة في الموضوع .. من رب الأسرة : ١٤ .. من الممكن أن يقطع الوالدان رحلة الحياة دون أن يصلوا إلى قرار في هذا الموضوع .. وتمزق الأسرة .. في حين أن رب الأسرة الحقيقي حين يكون الأب ، يكون أبا للجميع : للزوجة والأبناء .. وإذا أصبحت الأم ربة الأسرة ، فيجب أن تكون أما للجميع ، للزوج والأولاد .. أما الصراع فدمر جداً للأسرة ، وللزوجية ، وللأطفال .. ونحن لانحتاج لأسريها دكتاتور يحكم كل ماحوله .. ولسنا محتاجين إلى ربة أسرة متحكمة مسيطرة إلى

درجة الإزعاج .. لكننا محتاجون لساقين نحملنا لكي نسير ، محتاجون لعينين نرى بهما معاً الأمور من زوايا مختلفة حتى تكتمل الصورة .. نحتاج إلى ذراعين نحملن أعباء الحياة ، على أن تكون كل ذراع منها اليمنى لتحمل أكثر ، فإن اليد الواحدة لا تصفق ..

## الطفل والرسم

سألتني إحدى الأمهات : كيف أستطيع استشارة ابني بالرسم ، وبالفن بشكل عام ؟ والحقيقة أن كل الأطفال يجب أن يرسموا .. لابد أن يرسموا .. لكن الواقع أن الكثيرين منهم يهجرون الرسم ، ويهربون منه في سن مبكرة جداً ، نتيجة لعدم تشجيعنا لهم .. وهناك أرقام متزايدة من الأطفال نجدهم يقولون : لانستطيع أن نرسم .. أو لا نريد أن نرسم .. وينصرفون عن الرسم ، إذا لم يكن آباؤهم حريصين على أن يظلوا يمارسون هذا الفن الجميل ؛ ففيه خلق .. وجمال .. وتربية .. وتسلية .. ومنتعة .. خصوصاً أن أطفالنا هؤلاء أحفاد لأناس قدموا للعالم أروع الفنون التشكيلية من آلاف السنين : أبو الهول ، والتماثيل التي تشهد بعبقريتهم ، وورثتهم بالتلقائية يشدون العالم ؛ فما من معرض رسوم أطفال إلا وأطفالنا يكسيون جوائزه .. وأطفال قرية الخرنابية في الجزيرة تجربتهم مع السجاد ورسومهم عليه تلفت نظر كل فتاني العالم .. نحن محتاجون بداية - لكي يرسم أطفالنا - أن تتوفر لديهم المواد الخام للرسم .. الورق والألوان .. والفرش ، والطين - إذا كانوا سيأرسون فنوناً تشكيلية - أو القش ، أو القماش ، وأشياء من خامات البيئة . ونحن لانطالب باستيراد هذه الأشياء ، لا .. إننا نطالب بتوفيرها من البيئة من عندنا من أرضنا . وبها سيسحرنا أطفالنا بفنهم .

وبالطبع فإن توفير هذه المواد ليس معناه أن المشكلة قد انحلت ؛ فهناك أطفال كثيرون أمامهم هذه المواد ، لكنهم لا يرسمون ، ولا يقدمون فنونا ، لأنه ليس هناك ما يثير اهتمامهم بالفن . الفنون في البيوت ليست في متناول أيدينا . وإنما موضوعه كرمز للثقافة . وتشجيع الآباء والأمهات لأولادهم ، يعتبر أهم عامل في إشعار الطفل بضرورة الفن وجماله . وأحياناً نجد آباء مقتنعين بأهمية الفن ، لكن ليست لديهم وسيلة لتشجيع أولادهم ، أوليست لديهم القدرة على إقناع أطفالهم ، لسبب أو لآخر . لكن مهم جداً أن يأخذ الأب قطعة صلصال ويحاول أن يشكلها ، ومهما فشل فإن في ذلك إثارة للطفل . والبعض يلجأ إلى كتب التلوين ويريح نفسه ، (وكفى الله المؤمنين القتال) . مجرد علبه أقلام ، وكتاب وتلوين ، لون هذه مثل تلك وانتينا . وبهذه الطريقة نقبض بيد من حديد على أصابع أطفالنا الفنانين ، ونعوق نموها ، ونعوق قدرتهم على الخلق ، ونحدد خيالاتهم ، ليس هذا فقط بل من الممكن أن يفهموا أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنتاج رسم جميل . الكبير يرسم .. والصغير يلون .. نحب أن نقول : إن من الممكن أن يصلح لوح اردواز ، أو قطعة خشب سوداء ، كسبورة للطفل لكي يرسم ويمر ويعبر ، وهذه مهمة جداً . ولا تظنوا أننا نود أن ننشئ كل أطفالنا رسامين وفنانين . لا .. لكن لابد أن يكون لدى كل طفل بذرة فن .. ثم نود أن يتمتع أطفالنا بالفن : إنتاجاً ، ومشاهدة . والمهم في العملية ذاتها « الرسم » وليس النتيجة .. ويمكن أن يقدم الآباء مشورتهم ، ونصيحتهم ، إذا طلبت منهم ، بشرط أن تكون المشورة أو النصيحة بطريقة تجعل الطفل مستجيباً له بفكرته الخاصة . فلا يميل عليه وجهة نظر . والمشاركة بين الآباء والأطفال في لعبة الفن هذه مثمرة جداً ، وتنتج علاقة حلوة ،

واهتمام متبادل ، والواقع أن حب الآباء للفن واحترامهم له . ينعكس على الأطفال وعلى البيت .. لا بد أن يعرف الطفل أن عالم الفن فسيح واسع .. ولا بد أن يرى لوحات لكل المدارس الفنية .. لا بد أن يرى الطفل رسم فنانين للحصان ولا شبه بين الرسم والحصان أبدًا ، حتى إذا ما رسم حصانه لا يجزن ولا يقلق . والكتب التي بها لوحات فنية مطلوبة لبيوتنا .. مثل مواد الرسم . وتبادل الحديث عنها شيء ظريف .. وحينما نجد أنفسنا أمام طفل ينصرف عن الرسم كمشاهد ومتفرج ، فيجب أن نطلب إليه أن يرسم رسمًا تجريديًا ، أو يتعلم مزج الألوان ، ويتعلم رسم المعاني مثل : الغضب والفرح ، لأن هذا اللون من الرسم مثير ، ومبعث اهتمام ، ويوقظ جذوة الفن في نفوس الأطفال .

## الطفل والكلمة المهذبة

حينما كنا صغاراً سمعنا حكاية « على بابا والأربعين حرامي » واستوقفتنا عبارة « افتح باسمم » وتمنينا دائماً أن تكون في حياتنا كلمة بهذا الشكل تفتح لنا الكنوز. وبعدها قابلنا حوارة كثيرين يلعبون مانسميه باللعبة السحرية ، ويرددون كلمات ( هوكس بوكس ، هينجو شيلد دى نوستراتيجي ) ، وكلمات طويلة صعبة النطق كى تبدو وراء اللعبة الغريبة التى يلعبها الحواوى بكل من خفة اليد والبراعة . وتمضى بنا الأيام ، ونسأل أنفسنا : هل هناك ما يسمى بالكلمات السحرية فى واقع الحياة ؟ .. فى رأى نعم . إن « الأدب » هو الكلمات السحرية ، والأدب المراد هو فن الذوق والخلق ، وكلمات الأدب فى رأى كلمات سحرية تفتح كنوزاً كبيرة ، كما كانت كلمة « افتح باسمم » تفتحها ، لذا فنحن محتاجون أن نعلمها للأطفال . ونردها نحن أيضاً بطريقة دائمة وظريفة . وقاموس الكلمات السحرية هذه قاموس واسع يبدأ بـ ( بسم الله الرحمن الرحيم ) وينتهى بـ ( الحمد لله ) وشكراً ، سلام عليكم ، حرماً ، جميعاً ، أهلاً ، ومرحباً .. لكن : معذرة . لا بد من وقفة عند هذه الكلمات ولنسأل : هل نقولها ونحن نعنيها حقيقة أم لا ؟ .. هل نعبى بصدق عن شىء بداخلنا أم أنها تبقى مجرد تدريب للشفاة واللسان ؟ .. هل نقول : شكراً ، وملاحم وجوهنا فيها الشكر وعليها الابتسامة أم لا ؟ .. هل نقول : آسفين ، وهناك أى لون من ألوان

الأسف يطل من عينينا ؟ أو أننا نقولها مجرد كلمة ؟ .. ومن المهم جدًا الشعور  
الخاص وراء الكلمة التي نقال ، وخاصة أننا عانينا الكثير من القرامانات  
السلطانية والأوامر الخديوية ، وعندما نقدر بشكل عام من فعل « الأمر » الذي  
كان دائمًا على ألسنة المالك والبعثانيين ، والاستعماريين والإقطاعيين والرأسماليين  
في بلادنا . وبالتالي فلا بد من أن نشجع طلباتنا حتى من الناس الذين يساعدوننا  
بكلمات : ( من فضلك ، وعن إذلك ) لكن المهم أن هذه الكلمات لا بد أن  
نشعر بها ونحسها ؛ حتى يشعر من نُقال له بأنها صادقة ، لأن هذه الكلمات تكون  
أحيانًا كالحجارة التي تقذف بها من أمامنا .. وتصبح غير ذات معنى مطلقا ..  
وهذه الكلمات قد تؤدي عكس المطلوب منها .. كما أن زيادة هذه الكلمات  
عن حدها ، مضیعة كبيرة للوقت ، فالبعض مثلا حينما يتحدث في التلفون  
يضيع ٤ أوه دقائق قبل أن يدخل في موضوعه .. إنها بحاملات وكلمات ليس لها  
معنى ولا جدوى . وقد كان لنا صديق مهمته أن يورد نقودا للبنك من الشركة  
التي يعمل بها في أستراليا ، كان يقول للصراف : صباح الخير . فلا يرد عليه  
ولمدة ستة أشهر .. وذات يوم وهو خارج العمل قابله فسأله : لماذا لا ترد  
الصباح ؟ فقال له : إن لديه كل يوم ٢٠٠٠ عميل ، فإذا رددت الصباح على  
كل واحد سأضيع من وقت العمل في اليوم ساعتين ، وقرتهم على نفسي وعلى  
البنك . ونحن لا نستطيع أن نكون مثله .. لا بد أن نرد وفي نفس الوقت لا  
نضيع الوقت . إنها ليست معادلة صعبة . إنما هي معادلة سهلة وبسيطة تواجهني  
كل يوم في الحياة ، وعلى قدر نجاحنا يكون نجاحنا في الحياة .

## الطفل والزمن

الوقت والزمن مسألة تجريدية ، لا يشعر بها الأطفال جيدا ، ولا يقيسونها بدقة ، والربط بين الطفل والساعة أمر صعب كما يعلم الآباء والمدرسون .. عالم الطفل يختلف عن عالم الكبار في هذا المجال اختلافا واسعا . ويقول أستاذ في علم النفس « إن الطفل لا يمكنه أن يقدر فعلا عامل الزمن إلا بعد سن الحادية عشرة » فتأكيدينا على الوقت ، وإصرارنا عليه ، ومحاولتنا أن نجعل أبنائنا يستغلونه ، كل هذا له تأثيره السيء على الأطفال الصغار ، وأحيانا تكون هذه المسألة السبب ، في أن أبنائنا لا يحبون الحساب والرياضيات ؛ لأنها ترتبط في رأسهم بالوقت والزمن . والخلافات والصراع بين الأطفال والكبار حول مسألة الوقت والزمن ، ناجم عن أن الصغار - كما قلنا - لا يعرفون المجردات والكبار يصرون على أن يتعاملوا معهم على أساسها ، في حين أن الأطفال عندهم أساس آخر ، هو رغبتهم في تفرغ شحنة النشاط ، وممارسة أشياء ترضيهم ويتجنبوا فيها ذاتهم . مثلا حينما يسألنا طفل دون السادسة : متى يعود بابا ؟ نقول له : يجب ألا يغيب ، أو بعد فترة أو سيتأخر . أو حالا . كل هذه مسائل محتاجة إلى قياس زمني ، يعرفه هو .. ولكن يجب أن نقول : سيعود بعد أن تشرب اللبن . أو بعد أن تشاهد حدوته قبل النوم . أو أشياء من هذا القبيل . لا بد من ربط الإجابة بشيء محسوس ومعروف ، محدد ، غير مجرد . الشيء الثاني بالنسبة للزمن هذا أن

الطفل يدرك الحاضر . أما بالنسبة للمستقبل فهو يستطيع أن يحس : عيد ميلاده مثلاً ، لكن مسألة الأسبوع والشهر والسنة ليس لها أى معنى عنده وهو صغير ، فالمساحات الزمنية ليست مفهومة وليس من السهل إدراكها ، وبطول الوقت عنده يقدر ما يمارس فيه من شىء غير راض عنه ويقصر بقدر ما هو راض عما يفعله . إنما مسألة نسبية ، ليس لها علاقة بالزمن الحقيقى .. وهذا طبعاً موجود لدى الكبار بشكل أو آخر . لكن بالنسبة للأطفال فهو كل شىء .. الزمن يتسرب ويجرى حيناً يكون سعيداً ، ويقف عندما يشعر بأنه غير مرتاح . وأود أن أنه إلى شىء هام جداً : هو أن الطفل حيناً يتعلم الساعة ، فليس معنى ذلك أنه تعلم أن يعرف الوقت . لا .. إنه فقط تعلم مكان عقارب الساعة بالنسبة للأرقام . وهذا ليس له علاقة حقيقية بالإحساس بالزمن ؛ إنها شيان مختلفان تماماً ؛ لأن الطفل لم يستطيع بعد أن يستوعب فكرة الزمن - الوقت ككل . وفى سن الحادية عشرة سنة يبدأ فى إدراك الماضى والحاضر والمستقبل ، ويستوعب معنى الزمن والوقت . فمثلاً فى سن الثالثة يستطيع الطفل أن يعرف عمره . ويستطيع وهو فى الرابعة من عمره أن يقول فى أى يوم نحن : السبت أو الأحد . وفى سن السابعة والثامنة يعرف هيكلاً كلامياً للفصول والشهور .. وبعدها يستطيع معرفة الساعة واليوم ، والأسبوع والشهر ، والفصل ، وعلاقته بهذه الأرقام ليس معناها أنه فهم فكرة الزمن .. إنه فقط يستطيع فهمها ويدرك معنى (كم الساعة) حيناً يصبح فى سن الحادية عشرة ، فهم جداً أن نعرف أن الساعات لاتدق من أجل الأطفال ، وحكاية (دقات قلب المرء قاتلة له - إن الحياة دقائق وثوان) ليست من أجل الأطفال فحسب . فنوم الطفل لا بد أن يكون مساحة زمنية ليس لها حدود إلا النور والظلام - ولا داعى لأن تكون ساعة حائط أو ساعة جامعة تدق بانتظام حتى تنبه أبناءنا للزمن لأنهم لن يدركوه ..

## الطفل والأم العاملة

في السنوات الأخيرة خرجت المرأة للعمل .. وطرحت قضية « هل ترك المرأة لأطفالها من أجل العمل له أثر سيئ عليهم »؟ البعض قطع أن التأثير فعلا سيئ ، وربط بين عمل المرأة وانحرافات الأطفال . والكثير منهن استقر رأيه على ترك العمل . لدرجة أن أرقاماً كبيرة قررت فعلا التفرغ للبيت والأسرة وهذا في الواقع يمنع عن المجتمع عاملات منتجات ، وخيرة كثيرة في مجال العلم اكتسبتها المرأة .

وثبت بالإحصاءات أن مسألة عمل الأم ليست هي سبب انحراف الأطفال . فقد تبين أن عدد المنحرفين من الأطفال ، لا تزيد نسبتهم بين من تعمل أمهاتهم . بل على العكس إذا كانت الأم بالمتزل متفرغة ، ولم تكن مربية جيدة ، فاحتمال انحراف ابنها أكبر . وتصور البعض أن عمل الأم هو المؤثر الأول والأخير ، على نمو الطفل العقلي والنفسي والاجتماعي والجسماني ، وهو تصور غير سليم ؛ فهناك عوامل أخرى تؤثر على الطفل ، حتى في وجودها ، أما في حالة غيابها في العمل ، فالأمر يتوقف على عمر الطفل ، ومدى ما يحصل عليه من رعاية ، ومدى مهارة الشخص الذي يعيش معه الطفل ، سواء كانت الجدة أو المربية ، ودور الأب نفسه وعلاقته بالطفل ، ثم علاقة الأبوين ببعضها بعض ، وتكوين الأسرة في حد ذاتها . وتساءل الكثيرون : هل من الممكن أن

يحل شخص محل الأم ، وينجح في أداء دورها ؟! .. والإجابة : نعم من الممكن جداً ، بشرط أن يكون هذا الشخص متحلّيًا بصفة الأمومة . والطفل حتى سن الرابعة أو الخامسة يجب الشخص الذي يحل مكان أمه أن يستخدم معه نفس الأسلوب ، ويعامله بنفس الطريقة .

والطفل يعاني حين تكون الأم أو المربية متخلفة في استجابتها لمطالبه ، وفي معاملتها له . لكن بعد ٥ سنوات يستطيع أن يوائم ما بين نفسه وبين هذه الاختلافات ، ويحس بهذه الفروق ولا تضايقه . والبعض يرى أن المرأة العاملة من الممكن أن تنجح إذا وضعت في أولوياتها بيتها وأسرته ، ولو أدركت أنها زوجة وأم أولاً .. ثم عاملة ثانياً . فإذا كانت تعمل خارج البيت - لأنها ترفض عمل البيت وأعمال الأمومة - فقد يكون من يحل محلها أفضل منها ومتفوقاً عليها . ومن المهم جداً أن تعرف : هل عائد عملها المادى يرجع على الطفل والبيت ، أو يستهلك كله في الملابس ، وأعباء الخروج للعمل ذاته . وعلى كل ، لا بد أن يبقى الطفل مقتنعا بعمل أمه .

ومن أحلى القصص التي تدور في ألمانيا على الشاشة للأطفال ، قصة طفل يريد أن تظل أمه معه ، فظلت ، وخرجوا ليروا ماذا يحدث لو أن كل الأمهات ظلن بالبيت ولم يذهبن للعمل . وإذا بالحياة متوقفة ؛ لأن الاعتماد على المرأة هناك كبير في أشياء كثيرة ، وبالتالي اكتشف الطفل أن الحياة لا تستقيم ، لو ظلت كل أم مع أبنها ، لأن أمًا واحدة تستطيع أن تعمل في دار الحضانه مع عشرة أطفال أو أكثر ، من أجل أن تقوم عشر أمهات أو أكثر بخدمات أخرى للأطفال أيضًا . فمثلا يصنعن الحلوى ، أو يصنعن الملابس وأشياء من هذا القبيل . وهذا درس للأطفال من الأولاد والبنات ، الجميع يجب أن يعملوا ..

لابد أن يبنوا المجتمع معاً .. ولا بد أن يؤمنوا - النساء قبل الرجال - بأن العمل  
حق .. العمل واجب .. العمل شرف .. العمل حياة .. ولا بد أن يؤمن الرجال  
بأن عمل النساء حق وواجب وشرف وحياة .

## الطفل والضمير

سألني صديق من الآباء : هل ممكن خلق وتنمية الضمير لدى الأطفال منذ صغرهم ؟ سرحت ، وتذكرت حكاية كتبها في شهر رمضان ، عن طفل كان محتاجا باستمرار إلى رقابة وتوجيه ولفت نظر في كل أمور حياته ، حتى أن والده ناداه وقال له : الصيام لا يمكن مراقبته ، لابد أن تكون الرقابة من داخلك ومن ثم فكلمنا حاول الطفل أن يفطر ، تذكر كلمة والده وخاف الله . وكان هذا سبيلا للخلق ضمير حتى لديه . وعلم النفس يقول : إن الطفل حينما يبلغ السادسة من عمره ، يمكن وضع الأساس لهيكل الضمير عنده وفي الغالب يكون الآباء قد وضعوا هذا الأساس معه ، وتكون مفاهيم الآباء حول الصواب والخطأ ، الخير والشر واضحة للطفل يحسها ويشعر بها ، ويمتنعها ، وبالذات من خلال الممارسة وتقليد الأبوين ، ومن خلال التعليم ، ويتبلور كل هذا فيما نسميه (الضمير) مثل : الأم العادية لا تتصور أبدًا أن ابنها سيعرف مسألة الأمانة بالنسبة للنقود في السن الصغيرة ، وليس أمامها اختيار ، فتكتفي بأن تقول له : إن السرقة حرام ، وممنوعة ، منعًا بآثا ، وهذه مشكلة ؛ إذ يتصور البعض أنه مادام قد قال هذا الكلام ، فإن الطفل سيستجيب ومن الممكن للأطفال أن يأخذوا في سن مبكرة أشياء لاختصهم ، ومن الممكن أيضا أن يتصرفوا بشكل لا يتصوره الكبار .

وذات مرة قالت إحدى مدرسات الحضانة إن لديها طفلا عمره أربع سنوات يبيع الساندوتش الخاص به ويشتري الحلوى بثمنه . وأمامنا مشكلتان ، وليست مشكلة واحدة : الذى يبيع ، والذى يشتري . ونحتاج إلى مراجعة الاثنين ، وننبهها إلى الخطأ والمخافة التى يرتكبانها .

والضمير ليس وراثة ، وإنما يوجد ، يخلق ، ويأتى نتيجة جهود ، وجهود مضنية تبذل .. ليس نتيجة أوامر ونواه .. والحقيقة أننا محتاجون لأن يعرف الآباء أنهم لا يراجعون ضميرهم ، ويجعلون آبوتهم فى كل شىء فقط ، لأنهم سواء رضوا أو لم يرضوا فضميرهم يوجه أطفاهم أيضا ، وفى نفس الوقت وبالتالي .. فإن الأطفال توجد عندهم ترسبات ، نتيجة ملاحظات دقيقة متوالية خلال حياتهم اليومية وهذه هى التى تكون ضميرهم .. وليست المواقف الكبيرة ، والنصائح العظيمة ، مثلا الأب الذى يحاول أن يقطع لابنه نصف تذكرة فى سينا أو أتوبيس أو فى قطار ، مع أنه تعدى السن القانونية ، فلا تتصور مدى تأثيرها ! .. فهذا تدريب رهيب على السرقة ، ولدينا أيضا (خذ فرشاً ولا تقل لماما) وهذه الأشياء تعطى الطفل فكرة عن أن الضمير شىء مرن ، مطاط ، واسع ، وأنه شىء مؤقت يأتى بعض الوقت ويذهب .

وينصح أساتذة علم النفس الآباء ، أن يكونوا حازمين فى مواجهة ما يمكن أن يقود الطفل إلى ارتكاب مخالفة قانونية مستقبلا ، ومن الممكن أن يعبر الطفل عن غضبه على النظام المفروض ، لكن يجب ألا يكسره .. يحتاج : نعم .. يخالف : لا . والحقيقة أن الأطفال محتاجون للضمير ، كما أنهم محتاجون للطعام والشراب والمأوى . وقبل أن يعرف الطفل المعنويات - كالضمير والعدل ،

وهذه القيم - لا بد من تدرّبه عليها ، وتدرّبه على أن يعطى ، يعطى من لعه  
ومن حلّواه ، لأخيه وصديقه ، ويعطيه « لفة » على العجلة ، وزقة على  
الأرجوحة . الممارسة العملية لهذه المسائل تساعد على خلق ضمير طيب .

## الطفل والتفكير العلمي

في السنوات الأخيرة ، لم تتردد عبارة مثل عبارة التفكير العلمي . كلما وقفنا على اكتشاف أو اختراع .. وكلما تكلم أحد وأراد أن يؤكد وجهة نظره ، أو رأيه يقول : هذا (الكلام العلمي) ويكون الكلام محل جدل وتحليل الصواب والخطأ ، لكن يسانده بوضع علمي لكي يقنعك أو يفرضه عليك .. والحقيقة أن بلادنا عرفت العلم والتفكير العلمي قبل أن تعيد أوروبا تقديره لنا بمئات السنين .. عرفناه ، لا أقول قبلهم أيضا ، وإنما عرفناه بشكل علمي ، وببساطة شديدة سأنقل لكم فقرة من كتابات ابن خلدون .. من مقدمته يقول فيها : « من أحسن التعليم البدء بالقواعد الحسابية لأنها معرفة موضحة وبراهين منظمة ، ينشأ عنها في الغالب عقل مضىء - أسمعون؟! عقل مضىء .. درب على الصواب ، ويقال - هذا أيضا كلام ابن خلدون - « من أخذ نفسه بتعلم الحساب أول مرة يغلب عليه الصدق ، لما في الحساب من صحة المعاني ومناقشة النفس ، فيصير ذلك خلقا ويتعدد الصدق ويلازمه مذهباً » هل عرف التفكير العلمي بصورة أوضح من هذه؟ الحساب يقول  $1+1=2$  . وهذا ببساطة ما يقولون لنا عنه : إنه اكتشاف من اكتشافات القرن العشرين .. سبقهم إليه ابن خلدون بسنوات .. تعالوا أيضا نرى ماذا يقول عن الهندسة يقول : « واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها ، إضاءة في عقله واستقامة في فكره ،

لأن براهينها كلها ثابتة الانتظام ، جلية الترتيب ، لا يكاد الخطأ يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع <sup>(١)</sup> - وأرجو ألا تضايقكم كثيرا كلمة المهيع ، فهي بمعنى الطريق - لتكمل إذن ما يقوله ابن خلدون : وقد زعموا أنه كان مكتوب على باب أفلاطون : من لم يكن مهندسا فلا يدخل منزلنا .. وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب ، الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار والأدران .. دائما ذلك عما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه .

هذا كلام ابن خلدون . لكننا نشعر بالسعادة حينما نقول تكنولوجيا ، ونسعد أيضا حينما نجد أنها كلمة تصعب ترجمتها . والحقيقة أن كلام ابن خلدون البسيط أروع كلام قيل عن العلم والفكر العلمى . ببساطة إن الإنسان - كل إنسان - يحتاج إلى الحساب والهندسة . فالفلاح يحتاج إليه من أجل مساحة أرضه ، وكمية السماد ، والتراب الذى يردم به مستنقعا وهكذا . والبناء من أجل أن يعرف ما يحتاج إليه الحائط من لبنات . والتجار والحداد وبنائى الزجاج : كلهم يحتاجون إلى الحساب والهندسة ، لأن جهل العامل يجعله عرضة للتجريب والاختبار ، وتصيح المصادفة وحدها هى التى تقوده فى عمله ، وهذا يبدد الوقت والجهد والمواد الخام .. ثم إن الهندسة والواجبات بشكل عام ، هى وسيلة الاختراع ووسيلة التفتن ، وتفيد فى الجغرافيا والرسم ، وتوسع نطاق التصور ، وتقوى ثقة الإنسان فى الحقائق الثابتة . وبالتالي يتخلص من الخرافات والبدع ، والتفكير المتخلف ، ويبقى لنا منهج علمى حقيقى نسير عليه . والمنهج العلمى يأمرنا بأن نرجع للأصول .. ويقول : إن استيراد اللبنة الجاهزة

لايشمر ، من أجل هذا نقول : نعود لابن خلدون .. ونسمع كلامه « القواعد الحسائية .. ينشأ عنها في الغالب عقل مضىء » ويقول أيضًا : الهندسة تفيد صاحبها استقامة في فكره .. وهي بالنسبة للفكر بمثابة الصابون للثوب .. « تربويًا لكي نجرب الفكر العلمي ، لا بد أن ندرّب أنفسنا على الحساب والهندسة والرياضيات ، ولا بد أن نقرأ أستاذنا العظيم : ابن خلدون .

## الطفل والتغذية

من المسائل التي تحتاج منا إلى وقفة مسألة : الطعام والتغذية .. والآباء والأمهات دائما يشكون من أولادهم في هذه المسألة .. إما أن الأولاد لا يأكلون بالقدر الكافي أو أنهم يأكلون أكثر من أنواع معينة غير مطلوبة : مثل الحلوى . والآباء والأمهات وهم يلاحظون أبناءهم في جريهم وطوهم ونشاطهم ، مثل « الدينامو » يتصورون أنهم لابد أن يأكلوا كمية أكبر من الطعام ، لا أن يحفظوا طعامهم خطفا ، وبكمية ربما لاتتجاوز ما تأكله القطة .. أما بالنسبة للكمية ، فإن الأطباء يطمثون الآباء إلى شيء غاية في الأهمية .. ألا تقلقوا من ناحية كمية الأكل ولا تنوعه في هذه الفترة ، بعد أن يجتاز الطفل السنة الأولى من عمره ، والتي يحتاج فيها إلى كمية كبيرة من الغذاء ، تقل شهيته ولا تعود إلا مع سن المدرسة .. وغالبا يكون ما يقبلون عليه من طعام ويحبونه متضمنا كل العناصر المطلوبة للنمو - نقول غالبا .

والأوامر والنواهي في مجال التغذية ، يجب ولا يجب ، ليست واردة في العمر ، من سنة فما فوق .. وفي السنة الأولى يتضاعف وزن الطفل ثلاث مرات ، والمشكلة الوحيدة التي يمكن أن تواجهها في هذه الفترة هي مشكلة لا أحب هذا .

لابد أن نقنع الأطفال بأن الناس كلهم يأكلون من هذا النوع من الطعام ،

ولابد أن ندرهم على جميع أنواعه وألوانه ، ولابد أن يحسوا بالاستمتاع به ..  
ولابد أن تكون الجلسة أثناء الأكل لذيدة وممتعة فيها دفء الحب ، واجتماع  
الشمل .. ومع أن الحوار والدرشة خلال الأكل مطلوبين ، فلا بد أن يعرف  
الأطفال أن هذه هي فترة الاستمتاع بالطعام .

وقد نواجه في السنة الثانية من العمر بقله أنواع الطعام التي نستطيع أن  
نقدمها للطفل ، لكن جوع الطفل يجعله يقبل على الطعام ، ويجعله يقبل على  
أن يجرب كل أنواع الطعام التي تقدمها له أمه .. وتبدأ المعركة بين الاثنين حينما  
يفقد اهتمامه بألوان معينة ، وعلى الأم أن تحاول تقديم الطعام بشكل جذاب ،  
وطريف .. وتستخدم كل الحيل لكي تنسق الطعام .. فالجن مثلا لا يجب أن  
يكون كتلة في طبق أو علبة .. بل يكون شرائح ، حوطا وورقان من ورق  
الخس ، وفي وسطها حبتان من الزيتون .. فأناقة منظر الطبق مطلوبة مها قلت  
كمية الأكل .. هذه المسألة ليست شكلية ، بل أساسية جدًا . لأنها في ذاتها  
تفتح الشهية ..

لا بد من تفادي خلطات الطعام التي لاتعنى شيئًا .. فأحيانًا نجد أن بالطبق  
أطعمة ليست لها صلة ببعضها مخلوطة ومهروسة بشكل منفر .. وفيها أغذية  
مطلوب التركيز عليها كاللبن .. والبيض .. والعصير .. واللبن ليس معناه أن  
نشره فقط ، ونشره بالضرب : لا .. اللبن معناه الجبن والزبد والجلاقي : أي  
اللبن ومنتجاته .. ونفس الشيء بالنسبة للبيض والعصير .. ألوان وأشكال ..  
البيض مسلوقة ، ومقلية .. إلخ .. والعصير قصب ، وطاظم وجزر .. الخ وتركز  
على شيئين : البروتين والفيتامينات الموجودة بالخضروات .. ولاننسى أن  
الوجبات الثلاث بالنسبة للطفل ضرورية .. أما الوجبات السريعة .. التي بين

الوجبات الأصلية فهمة جداً بالنسبة للأولاد الكبار وينفع فيها « السندوتش » .  
ولابد أن نراعى ألا تحمل محل الوجبة الأصلية .. تأتي بعد ذلك مشكلة  
الحلويات .. التي تقلل من شهية الطفل ، والواقع أنه لا بد من أن تحمل محلها  
حلويات ذات قيمة غذائية ، وقيم غذائية ثانية ، إننا محتاجون لترشيد في مسألة  
الأكل في بلدنا ، وبالذات في نوع النشويات .. ومحتاجون إلى معهد تغذية ينشر  
لنا كتيبات بالاتفاق مع بعض أستاذات التدبير والطهي .. حتى يقدموا لنا أطباقاً  
شبيهة من منتجات بلدنا .. فيها كل العناصر المطلوبة للجسم وفيها الطعم المقبول  
المستساغ ، وبهذه الطريقة وحدها نعرف ونتعلم كيف نأكل ..

## الطفل والصحة

لدينا مكتبة هائلة من الحكم والنصائح التربوية متصلة بموضوع الصحة ..  
فنقول : « صحتك بالدنيا » ونقول : « الصحة تاج على رهوس الأصحاء  
لا يراه إلا المرضى » ونقول : « الوقاية خير من العلاج » .. ونقول الكثير ، ونرفع  
مثل هذه الشعارات ، وفي لحظة التطبيق نجد أن المسألة واسعة بين الشعار المرفوع  
وما يحدث منا .. هل حقيق أننا نطبق مسألة « صحتك بالدنيا » الواقع أنها  
أصبحت جملة يواسى بها بعضنا بعضاً في الأزمات .. أصبحت مرادفة لـ ..  
« لا تخزن » أما الصحة نفسها والرياضة والترهة فليس لها مكان في برنامج  
حياتنا .. ونحن لإنراعى موضوع النظافة ولا نعطيه حقه ، نحن الذين نعتق ديننا  
يحض على الوضوء خمس مرات يومياً قبل الصلاة وتذكر الصحة حينما نمرض  
فقط ، ومستشفياتنا في الواقع حالها ليس كما يجب .. أما من ناحية الوقاية

والعلاج ، فأصبحنا نعمل كالأمريكان ، يحبون « اللبان » لكنه يجلب لهم  
الصداع .. فماذا يفعلون؟! أضافوا « اللبان » مسكنات مثل الأسبرين ليعالج  
الصداع بدلا من أن يمتنعوا عن « اللبان » !! .. بهذه الطريقة تدهورت  
صحتنا .. وهذه مسئوليتنا .. وليست مسئولية أى جهاز أو مؤسسة ..

نحن بلد يتمتع بالجو المعتدل .. والماء العذب .. وإمكانات النهوض  
بالصحة كبيرة فلماذا نتهاون فى أمن هبة وهبها الله لنا .. إن الحياة تكون كثية  
خلال المرض .. والمرض أى مرض له خطورته ومضاعفاته وانتكاساته ،  
وتفاديه سهل ، والوقاية منه ليست مشكلة .. وتداركه فى حالة إصابتنا به - فى  
البداية - أمر ميسور ، وفضلا عن التوعك فهو يعوق إنتاجنا ويقلل من قدراتنا  
وهناك تصور أن المرض يأتى من الخارج كأن بيوتنا معقمة ، ولا تستطيع الجراثيم  
أن تصل إليها ، والواقع أن المنزل منبع للصحة - إذا جعلناه نظيفا ، صحبًا ،  
هادئا - ويمكن أن يصبح على العكس إذا تهاونا فى أشياء بسيطة ، مثل صفيحة  
القمامة والذباب الذى يتراكم عليها .. والمبيدات الآن كثيرة ، والحصول عليها  
سهل .. ولا بد من مكافحة كل الحشرات الضارة : الذباب والناموس  
والصراصير .. أى شىء يمكن أن ينقل المرض لابد من التخلص منه .. وبعد  
ذلك تكون الوقاية من الأمراض مسألة سلبية ..

إننا لكى نستطيع أن نقاوم أى مرض وافد فلا بد أن يكون ذلك بالتغذية  
السليمة ، والرياضة الصحية ، والنوم لساعات كافية ، وتفادى المنبهات ..  
وإذا كان البيت منبع الصحة ، فنحن لانريد أن يكون الشارع مصدرا  
للمرض . والشارع يحتاج منا إلى نظرة أفضل وأحسن ، فنحن لا نحترمه بالقدر  
الكافى .. ولا ننظفه بالقدر الكافى .. وبححتاج منا إلى عناية ورعاية مستمرة

وفعالة .. ويتبقى موقفنا في حالة إصابتنا بالمرض .. وهذا محتمل باستمرار ، لأنه  
مهما بذلنا من مجهود لتفادي المرض فهناك احتمال لإصابتنا به .. ولا بد أن يكون  
الإنسان مريضاً حصيناً ، يعاون طبيبه على علاجه ، ويتعاطى دواءه  
بانظام ، ويلتزم بالمتطلبات .. حتى يتم الشفاء ، وتبقى ثقافتنا الصحية .. وليت  
هناك مقررات بالمدارس في مسألة الصحة تبدأ بأبسط الأمور ، مثل العناية  
بالحواس الخمس ، فتتدرج وتتدرج حتى تصل إلى تشريح جسم الإنسان في  
النهاية .. لا بد أن نعرف أن الصحة أئمن شيء يملكه الإنسان .. ولا بد أن يحافظ  
عليه بكل ما يستطيع .

## الطفل والشجار

١

أى أسرة لديها طفلان أو ثلاثة نجدهم دائما في مناوشات وخلافات ، ويتألم الأب وتألم الأم .. لأن الأبناء ليسوا أصدقاء وليست علاقاتهم طيبة ، والسؤال : هل ظاهرة اختلاف الأخوات أو الأطفال مع بعضهم ظاهرة طبيعية ؟ بمعنى أى الأوضاع يعتبر الوضع الطبيعي .. أن يتداولوا مع بعضهم البعض ، وألا يختلفوا أو يتشاجروا ؟ .. والإجابة عن هذا السؤال تكشفها تجربة صغيرة .. تعالوا نجتمع ٣ أو ٤ أطفال معا في حجرة واسعة مجهزة بكل ألوان اللعب والتسلية ، ونغلقها لفترة .. ترى ماذا تكون النتيجة ؟! .. بكل تأكيد سيتشاجرون سواء كانوا إخوة أو غير إخوة .. إذن المسألة ظاهرة طبيعية عادية ويجب ألا يقلق الآباء والأمهات ، ويجب أن تعالج برفق ووعي ، لأنها لن تكون في فترة الطفولة فقط ، إنما تمتد للصبا والشباب ، وأحيانا تتعمق الخلافات بين الإخوة لدرجة جادة لا نرضاها ، لكن الكثير من هذه الخلافات - في واقع الأمر - تكون نوعا من التنفيس ، وتحل - دون أن ندري - الكثير من المشاكل .. وأحيانا يكون الشجار نوعا من المنافسة .. إذن هل المنافسة بين الإخوة ضارة ، المنافسة الشريفة باستمرار فائدتها أكثر من ضررها .. وبين الإخوة ينمو الحب ويتطور ، ويكبر معهم ، ويظهر وينضج

حيثما يتجاوز سن الطفولة ، والمراهقة ، وكثيرا ما نسمع هذه العبارة .. إنه أخى على كل حال ..

إذن المنافسة بين الأخوة والحلاف لا يستمر بل ينتهى ويتطور إلى علاقة حب تنضج تحت نار هادئة .. والأيام تزيد من الروابط والود .. ولكن المطلوب منا ألا نركز على المنافسة بين الإخوة بشكل ملح ودائم .. لاداعى لأن نقول فى كل دقيقة: انظر كيف أن أخاك مجتهد ، اعمل كأختك المهذبة ، مثل هذه الأشياء والنصائح التى من هذا اللون ليست هى المطلوبة .. فالتركيز هنا لا يكون فى الواقع على الاجتهاد أو الأدب الذى يتحلى به الأخ أو الأخت ، إنما يكون التركيز على التفوق .. وهذا يبعث عدم الرضا فى نفس الشخص الذى توجه إليه النصيحة وعدم الارتياح تجاه أخيه ، ويجعله ينسى موضوع النصيحة ، ويمكن أن يتخيل أننا لسنا منحازين إلى الأخ أو الأخت ، فيزيد ضيقه .. وأحيانا يتخيل أن كلامنا لون من المعايير له لتخلفه فى الدراسة أو التصرف غير الصحيح منه ، لأن المقارنة ممكن أن تركزى نار المنافسة فى كل مجال ، ليس فى الشيء موضوع المقارنة ، لأن كل هنا ، ليس خلق اثنين متصارعين ، وإنما خلق أخين .. بكل ما تعنيه الكلمة ..

## ٢

بعض الآباء فى بيوتنا يقومون بدور (الحكم) بين أولادهم كآباء ويتحول البيت إلى (حلبة ملاكمة) والواقع أنه لايد أن يبقى هناك بعض الصراع والحلاف بين الأبناء .. ولا بد أن يدرّب الآباء أنفسهم على أن يكونوا أحيانا

متفرجين ، وألا يتدخلوا كحكام .. هذا شيء ، أما الشيء الآخر : فإنه من غير المعقول أن يظل الآباء باستمرار في موقف المنفرج . لا بد في لحظة أن يتدخلوا حتى يوقفوا المعارك التي تنشب بين أولادهم ، ومن الطبيعي ألا يستطيعوا دائماً الغوص إلى أعماق كل مشكلة وكل خلاف وأن يحلوا تلك الخلافات بميزان العدالة الدقيق .. إنما المسألة تحتاج من الآباء إلى شيء كبير من التعقل في مواجهة الأمر ، وتحتاج أيضاً إلى أن يدركوا بعض الأمور في مجال الخلافات بين الأبناء .

بداية : يجب ألا يكونوا مراقبين لكل صغيرة وكبيرة تصدر عن الأبناء .. ويكفي أن يكونوا ملاحظين بشكل غير مباشر ، دون التعليق أو التدخل في اللعب . إلا إذا وجدوا الأبناء قد خرجوا عن القواعد ، وحينئذ يمكن للآباء أن يقترحوا شيئاً بناءً بديلاً للشيء المختلف عليه أو أكثر إثارة منه .. وإذا لاحظ الآباء أن طفلاً يضايق أخيه باستمرار أو يتسبب في غيظه فمثلاً يجب أن تأخذ في الحال صف المعتدى عليه ، لأنه يجوز أن يكون هو البادئ .. وإذا ما وجدنا أخاً أكبر دائم الأوامر للأصغر : انصت ، اسمع ، لا بد أن نتذكر أن الأسهل كسب الصغير بالحنان ، في حين أن هذا الصغير من الممكن أن يكون هو المعتدى .. وعلى الرغم من أن هناك دائماً سبباً وراء أى عدوان .. مثل الحسد ، عدم الاطمئنان ، الضيق النفسى ، فلا داعى لأن نبحث في أثناء الصراع عن حقيقة السبب . أولاً لكى تحل المشكلة نقضى على الخلاف ، ثم نبعد الأبناء عن بعضهم دون أن نُشعر أيّاً منهم بأنه مخطئٌ ومتهم ، بعدها نستطيع أن نعمل تحقيقاتنا ، ونعمل كوكيل نيابة ، ولا بد أن نتذكر أنه ليس أسهل على الطفل من أن يلصق بصديقه أو أخيه أشنع التهم ، ويتفوه بأبداً الألفاظ ، لأى

سبب ، ولأى مناسبة ، المهم ألا تظل هذه الألفاظ عالقة بأحد ؛ لأنها من الممكن أن تلتصق به ، ويصبح من الصعب التخلص منها ، ويمكن لو تكررت أن يحاول صاحبها تأكيدها حينما يقال له مثلا : أنت كاذب .. يكذب مادام باستمرار يتهم بالكذب سواء صدق أو كذب .. فلماذا يصدق !؟ ..

ومهم جدًا أن ننبه الكبار من الأبناء ألا يؤذوا الصغار ، وأن ننبه الأبناء ألا يضايقوا البنات ، وفي نفس الوقت لا بد أن ننبه إلى عدم إثارة الصغار للكبار ، وألا نجعل البنات يغضبن الأولاد .. حتى يسود الاحترام بين الجميع .. ولا بد ألا يتوقع الآباء أن يظل الأبناء حريصين على اللعب مع بعضهم على طول الخط ، وعلى قدر المساحة المتاحة لهم في البيت ، بل لا بد أن يتعدوا عن بعضهم البعض قليلا ، ولا بد أن نجعل الأولاد سعداء بأنهم أولاد ، والبنات فخورات بأنهن بنات .. وكل له ميزاته .. وفي نفس الوقت لا بد أن يكون عندنا مقترحات لهم لاستنفد طاقاتهم الزائدة .. ومهم جدًا أن يشعر الأولاد بأنهم محبوبون بنفس القدر ، لكن بشكل مختلف - بهذه الطريقة يسود التفاهم جو الأسرة ، ولا يكون الأبناء مصدر مشاكل مستمرة في البيت .

## الطفل ومراحل التعليم

### ١

بدأت الدولة والمجتمع يشاركان الأسرة في تربية أبنائها ، وتنازلت الأسرة عن دورها العتيق في تحمل مسؤولية الأطفال وحدها ، وعهدت بهم لدور الحضانة والرياض ، في سن مبكرة جداً ، بسبب خروج الأم إلى العمل ، أو لأنها غير قادرة على تحمل هذا العبء الثقيل . ونحن نجد أنفسنا مع الأطفال الصغار ، أمام « علم » واسع اسمه « سن ما قبل المدرسة » . فإن دور الحضانة والرياض ليست مدارس للتربية والتعليم .. لكننا يجب ألا نحولها إلى « مخازن » نضع فيها أطفالنا إلى أن تنتهى من عملنا ، ثم نحملهم منها إلى البيت . إن دور الحضانة يجب أن تكون عوضاً عن الأسرة ويديلاً لها ، وأن يشيع فيها نفس جو الحب والحنان الذى يوجد في البيت ، فلا يشعر فيها الطفل بالغرابة ولا يشعر بالوحدة . ولا بد أن نجعله لا يضيّق بها ولا يكرهها ، بل يقبل عليها في رضا وفرح ، في بهجة وحيور ؟ لأنه يمارس جديدًا وبعيدًا عن أوامر ونواهي الوالدين ، اللذين قد يقعان في أحد المحظورين : التذليل المفرط الذى يشر طفلاً فاسدًا ، أو معاملة الطفل على أنه رجل صغير .

و نحن لم نلتحق في طفولتنا بدار الحضانة ، بل نعمنا بدفء البيت ، وتقادينا هذه التجربة المبكرة ، التى يخوضها صغارنا ، وقد يعانونها ، وقد

يستمتعون بها ، ولكنها سوف تؤثر فيهم تأثيرًا بالغًا ، ولا بد أن تترك بصماتها على حياتهم بأكملها ، شئنا أم أيننا ، هي باعتراف الجميع أهم وأخطر سنى العمر وأكبرها أثرًا على عكس ما كان يظن ، برغم أنهم ردودا دائما : « أن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر » ثباتًا وبقاء . وتقول إحدى المربيات عن دورها مع طفل الحضانة والرياض : نحن لانعطيهِ ورقا ولا قلمًا . نحن نعلمه الذهاب إلى الحمام ، والتعامل مع الأطفال . وتعليق ملابسه على المشجب ، وبناء بيت بالمكعبات ، . . . . . نعلمه الكثير حقًا .

أمهات كثيرات يقلن : نحن ندفع الكثير ، ماذا تعلم أبنائنا ؟ لماذا لا تعلمونهم القراءة والكتابة ؟ هن يتعجلن ، ويتصورن بينهم قادرين على التعلم .

لقد نشأت هذه الدور لأول مرة في ألمانيا ، وكان ذلك الخروج الأم للعمل . وقرأت قصة لصغير يريد أمه بمجانبه تقبل ذلك ، وإذا بكل الأطفال يستيقنون أمهاتهم في البيوت ، ويخرج الصغير لشراء حلوى فلا يجد البائعة ، لأنها بقيت مع ابنها في البيت ، وهكذا كلما رغب في شيء وجد المسئولة عنه في بيتها ، وضاف بالأمر وطالب كل الأمهات بالخروج للعمل والحقيقة الواضحة الآن أن أغلب الأطفال يجدون الكثير من المتع في دار الحضانة . إن الطفل يلعب باللمى ، والأجراس والحلقات ، بدأ يلون بأصابعه بعض اللوحات غير المحددة بالخطوط ، كما بدأ يستمتع بالقص واللصق لأوراق ملونة وراح ينظم الخرز الكبير . وهو يعود إلى بيته كل يوم ، وفي جعبته ألف خبز وخبر ، ألف خبزة وخبزة ، ألف حكاية وحكاية .. بعضها سمعه ، وبعضها يؤلفه عن بطولات له في عالمه الصغير . وكثير من الأمهات ترعجهن هذه الأقايصيص المختلفة ، ويجب

ألا يضقن بها ، بل يسمعتها ويستمتعن بها . وهو يحكى الكثير عن الزحافات والأراجيح ، فضلا عن النشاط الحر التلقائى ، الذى يبذل خلاله جهدًا مضنيًا ، يتفق مع رغبته الجادة فى الحركة والجري والقفز . وقد بدأ يتدرب أخيرا على ممارسة وحب نشاط منظم ، وموسيقى ، ويقلد الطيور ، والحيوانات ويقلد زملاءه وزميلاته ، بل إنه تلمذ فأصبح يؤدى بعض ماتقوم به المربية من حركات وتصرفات .

ويجب رده فى حزم إلى جادة الصواب ، إذا أحسنا منه باتجاه حاد نحو العبث والتمرد ، دون إشراف فى تأنيبه لأنه فى حاجة إلى الإرشاد والتربية . والأطفال معقولون إذا ما فهمناهم ، وهيانا لهم الفرصة لكى يمارسوا حياتهم ، بل شقاوتهم . وعلينا أن نبحث دائما عن دافعهم إلى هذا التصرف وذلك ، ولن نجد هذه الدوافع إلا بالصبر والمثابرة .

قرأت عن طفل مع أمه فى سيارة أوتوبيس ، انهمكت الأم مع جاريتها فى الحديث ، وأهملت الصغير ، وعندما وصلا إلى حيث ينزلان ، جرى الطفل ووطئ بأقدامه من فى طريقه ، كما دفع بعض الجالسين ووقع على البعض الآخر ، مما أثار استياء الجميع ، وكادت الأم تضربه فى قسوة ، لولا أنها حاولت معه إلى أن أدركت السر : عندما أهملته أمه ، تصور أنها يمكن أن تنساه فى السيارة ، لأنها لا تقف طويلا بالمحطات ، فاندفع بهذه الصورة السخيفة التى لا يستحق عليها عقابًا ، فليس هو الملموم فى موقفه وتصرفه .

وهذه الحكايات عن الصغار فى هذه السن ، تكشف لنا ميولهم واتجاهاتهم ؛ فالأطفال يرون الأمور من زوايا مختلفة كل الاختلاف عما نراه ، وهم يتعلقون بالأوهام ، ويحولونها إلى أكاذيب بيضاء .. ويجب ألا نقف عند

ظواهر الأمور بالنسبة لهم ، بل لابد أن نعرف ما يدور بخلدكم . كما لابد ألا  
يمزقنا الخوف والقلق عليهم ونحتاج في هذا إلى إعداد الأمهات والآباء لهذه  
المهمة وبما لا شك فيه أن اتصالهم بالدار والمربية سيكون معيناً لهم في فهم  
أبنائهم ، واكتشاف شخصياتهم ، ومدى توافيقها مع بقية الأطفال ، ومدى  
تقبلها للأوامر .

إن دار الحضانة مدرسة للأمهات ، والآباء ، بقدر ما هي مؤسسة تربية  
للصغار . هي أول خطوة للاستقلال والاعتماد على النفس بالنسبة للطفل ،  
والتعود على النظام والتدريب على التعامل مع مجتمع غير مجتمع الأمرة ، إن دور  
الحضانة ، مصانع للإنسان الجديد ، ليبتأ تأخذ منا ما هي جديرة به من  
الاهتمام ، وليت المربيات يكن على مستوى عالٍ ، نظمتن به على حسن معاملة  
أطفالنا .

ونحن نحمد الله على انتشار دور الحضانة والرياض في بلادنا ، ونحس أنها  
متطورة ومتقدمة ، وتحاول جاهدة أن تؤدي دورها متعاونة مع الأسرة .

## ٢

قلنا : إن المجتمع والدولة يشاركان الأسرة في تربية الأبناء وتعليمهم . وتبدأ  
الدولة في العمل على احتضان الطفولة في دور خاصة ، ليست بالمدارس ، وهم  
يعبرون مرحلة الحضانة والرياض ، لكي تتلقفهم المدرسة الابتدائية . والمرحلة  
الخاصة بالحضانة والرياض إعداد للمدرسة وليست بمؤسسة تستهدف التعليم ،  
الذي هو إعداد للحياة ، وفي رأي البعض أنه حياة في حد ذاته . وإذا كانت

المدرسة الابتدائية - من سن السادسة - تأخذ الأطفال إليها ، فإنها في واقع الأمر تتلقفهم في حنان ، وحب ، وود ، من أجل ألا يزهدوا في هذه المؤسسة ويضيقوا بها ، وخاصة أنها ستصاحبهم طويلا . يستعيضون بها عن الأسرة الساعات الطوال على مدى صباحهم ، ثم هم يعيشون فيها مجتمعاً جديداً خالياً - إلى حد كبير - من تدليل الأسرة وحنانها ، بجانب أن لها نظامها وتقاليدها ، الأمر الذي يبدأ في تعويد الأطفال على الانضباط .

ونحن إذا أردنا أن نتحدث عن المدرسة الابتدائية والتربية ، فلا بد وأن نعالج دور المدرسة في بناء الطفل ، وأن نتكلم عن علم نفس الطفل ، وأن نقف عند المعلمة والمعلم .. ثم نتطرق للحديث عن الفروق الفردية بين الأطفال ، وكيف نعرفها ونقيسها ، ثم نتكلم عن الحركة ونمو الأطفال ، وعن الحياة الاجتماعية في المدرسة ، وعن الحب والضييق بين الأطفال ، وعن مثلهم العليا . ولا بد أن نناقش قضية النمو العقلي ، وحاجة الطفل للمعرفة ، وعلاقة ذلك بميوله . إن المدرسة الابتدائية «مدرسة» في حد ذاتها ، يجب أن نلتحق بها ، ونحن نتحدث عنها . وإذا كانت الحصانة والرياض هي الأساس في البناء ، وهو لا يظهر جليا واضحا بل يختفي تحت الأرض ، فإن المدرسة الابتدائية هي أول أدوار البناء ، الذي يعلو طابقاً ثم آخر حتى الجامعة وكلنا يدرك أهمية هذا الدور ؛ فمن غيره لاتبنى طوابق جديدة ، وهو يضم غرفاً عدة : قاعة للغة العربية ، وغرفة للحساب ، وحجرة للمواد الاجتماعية ورابعة .. وخامسة .. على أن القضية ليست ذلك الكم ، الذي يحشد في الغرف من أثاث ، بل لابد من أن يتم تنسيقه ، لا تكديسه بشكل يرتبك معه العقل فلا يستوعبه ولا يمتصه . ولا بد من الفراغات والتهوية ؛ إنها لا تقل أهمية عن المواد الدراسية

ذاتها ، فنحن نريد طفلا سليماً : عقلياً ونفسياً ، وعلمياً ، وصحياً . إنها الأصدقاء التي تحمل صاحبها ، والقوائم التي يسير عليها قوياً معانيها كانت الفروق بين الأطفال ، إذ إن الحركة البدنية ضرورة ولا بد من تهيئة الظروف لها . وفي مجال الحياة الاجتماعية ينمو طفل المدرسة الابتدائية فكرياً نتيجة لما حوله من علاقات ، كما أن حياته الفكرية تطبع تصرفاته الاجتماعية ، والأطفال يتظمون في جماعات وينفرد عقدهم تلقائياً ، وفي السنوات النهائية للدراسة ، يصبح اجتماعهم وتآلفهم أكثر تماسكاً وهم يتجهون في مثلهم العليا ، إلى آباءهم وأمهاتهم ومعلميهم ومعلماتهم وليس إلى زملائهم . وعندما يكونون صداقات يبدأ عهد استقلالهم الحقيقي ، ولكنهم لا يكشفون مطلقاً عن دخائل نفوسهم كما يفعل الصغار ، وكما يفعل الذين يجتازون مرحلة المراهقة ، وتبدأ حاجتهم إلينا تقل ، وحاجتهم للأصدقاء تزيد .

التمو العقلي في المدرسة الابتدائية ، يأتي ثمرة سعى دؤوب من جانب الطفل ، ليدرك العالم المحيط به ، وليفهمه لكي يعيش آمناً ، في عالمه . والطفل يتزع تلقائياً إلى الفهم ، وبرغم أنهم يحسون بثقل المناهج التقليدية المقررة ، فإنهم لا يكفون عن الأسئلة في رحلاتهم ، وخارج حجرات الدراسة ، وإذا كان الطفل ذكياً ، وضحت لهفته الشديدة وشوقه للمعرفة ، ولا بد أن تمشي المناهج ، مع الميول الطبيعية للأطفال ، خاصة ميدان المعرفة لا يتم تقسيمه وتصنيفه بشكل يدركه الصغير . والحق أن الميول خارج المدرسة مؤثر رافع ، لما يجب أن يكون بداخلها ، ولا يفوتنا أن نتحدث عن نزعة الطفل إلى « صنع الأشياء » وخلقها وابتكارها ، وهم يجدون لذة واضحة في ذلك ، المهم أن نترك لهم ما يصنعونه ولا نفرضه عليهم . وكل هذه الأمور ، تسهم بشكل أو آخر

في تنمية العقل ، ولكن لا شيء يستولى على أفئدة الصغار مثل القصص وسحرها . وإذا ما تدرب طفل على القراءة أحبها ، فلا حاجز سيقوم بينه وبين الكلمة المكتوبة التي سيلتمها ، وستكون غذاءً رائعاً لعقله وفكره ، وستكون عاملاً في بناء قدراته الذهنية . والسؤال الذي طرحته على نفسي : ماذا نريد لأبنائنا في هذه المرحلة من العمر وفي هذه الفترة الدراسية ؟ نريد لهم النمو العقلي والاجتماعي ، نريد لهم خبرات أكثر ودراية أكبر بالحياة ، نريد لهم أسوياء في كل شيء ، ونود لهم « بداية » مدرسية سليمة تحببهم في هذه المؤسسات التي هم يحتاجون لأن يصبحوها أجمل سنى العمر . بداية تدفع بهم إلى هواية العلم ، وتقديسه .

إن المدرسة الابتدائية باب ندخل منه إلى التربية الحقة ، والتعليم السليم .. وصحبنا لها ، تجعلنا نراها مدخلاً للبناء الشامخ ، الذي لا يبني في الهواء ، وعلينا أن نرعى هذه المدرسة ، بحبات عيوننا وقلوبنا ، لأنها تضم فلذات أكبادنا لسنوات تمتد ، يحصلون فيها بدايات المعرفة ، ويضعون أقدامهم فيها على سلم العلم . والمدرسة وحدها بالطبع لن تكفي الأبناء في هذه السن ، إذ لا بد أن تساندها الأسرة بكل ما تستطيع ، لكي ترسب القيم في نفوس الأبناء ، ولكي تفتح أذهانهم وعقولهم ، ولكي تدرّبهم على التفكير والدرس والتحصيل بل العلم .

### ٣

تشكل الأمية عقبة كبيرة في طريق تنمية الأسرة في بلادنا . لكن مجرد القراءة والكتابة ، وإنهاء المرحلة الابتدائية ، لا يكفي في عصرنا هذا لخلق بيئة

وجو طيب للتربية داخل البيت ، الأمية خطر على الأسرة ، ومن ناحية أخرى تحتاج الأسرة إلى مانسيه : « التعليم المستمر » . وتحتاج كذلك إلى « الثقافة » وهذا هو السبيل الحق لتنمية الأسرة : عقليا وفكريًا ، ونفسيًا ووجدانيًا ، اجتماعيًا وتربويًا . وثمة فارق كبير بين الأسرة التي يقودها أب أمي ، أو أم لا تعرف القراءة والكتابة ، وأسرة أخرى المعلم واحد من مكوناتها ( قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) ؟ ! . لذلك لا بد لنا من أن نخطو للأمام خطوة في الاتجاه . وديتنا حث على العلم ، والتعليم في المدرسة - فضلا عن أنه غير كاف - لا يعطينا سوى بعض مفاتيح لكنوز المعرفة الإنسانية : إنه يقول لنا ؛ ن هناك كتر اسم : الأدب أو الفن أو العلوم الاجتماعية أو .. أو .. وعلينا بما عطانا من مفاتيح ، أن نحصل على هذه الكنوز . التعليم في تطور وتقدم . مثلا : كان العلم يقول ، إن الذرة لا تنقسم ولا تنشطر ، وتوصل الإنسان إلى لقنبلة الذرية : لذلك فالذي توقف في تعلمه لمادة العلوم عن ( أن الذرة لا تنقسم ) إذا ما بقى على معلوماته هذه ، فهو متخلف وجاهل . لذلك لا بد أن يواكب الإنسان العلوم والتقدم الإنساني ، والسبيل إلى ذلك ما نسميه ( التعليم المستمر ) أى أن يظل المرء مستمرا في تعليمه ، كما جاء في الحكمة العربية « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » .. والمهد هو سرير الطفل الصغير ، واللحد هو القبر . أى أنه يجدر بالإنسان أن يتعلم منذ نعومة أظفاره إلى أن يودع الحياة ، بهذا وحده يكون قد أفاد من المدرسة ، بأن وضعت أقدامه على طريق العلم والتعلم . وسؤال : ما الفرق بين التعليم المستمر ، والثقافة ؟ التعليم المستمر ، هو أن تظل تدرس وتقرأ ما في تخصصك . بمعنى : إذا كنت أنا من خريجي قسم اللغة الإنجليزية بالجامعة ، وظلت أقرأ في مجال اللغة الإنجليزية ، فأنا أستمر في

تعليمي .. أما إذا قرأت في العلوم والرياضيات ، في الفلسفات والآداب ، في السياسة والاقتصاد ، فهذه محاولة لتثقيف الذات وتوسيع الأفق والمدارك . والتعليم والثقافة - معاً - يعنى أن يستوعب الإنسان الكثير في مجال من المعرفة والفهم ، ويهضم هذا الذي استوعبه ويحوّله إلى سلوك . أى مثل ما نأكل : النشويات .. البروتينات .. الفيتامينات . فكل هذا يتحول إلى غذاء ، ودماء ، تسرى في كل الجسم تمدّه بالدفء ، والحركة ، والطاقة ، وتبنى الجسم إذا ما كان ناشئاً نامياً . أقول : إن العلم أو الثقافة كالغذاء تماماً .. نقص مادة منه كالفيتامينات تسبب أمراضاً بذاتها .. ثم إننا نستوعب ونهضم بعقولنا ، هذه المعلومات وتلك الأحاسيس ، التي ترد إلينا عن طريق ممارسة الحياة ، أو الاستماع للإذاعة ، أو مشاهدة التلفزيون أو السينما أو المسرح ، وبعد ذلك تصبح هذه الأشياء جزءاً لا يتجزأ من تكويننا وكياننا ، وتصبح سلوكاً سليماً وتصرفاً سويّاً .. بجانب ما تضيفه إلى حياتنا من بهجة ومتعة ، فالأسرة تعيش مسراتها وسعاداتها الاجتماعية بالتعاون والتآزر .. أن يفرح الجميع لفرح واحد منهم .. أن يألم إذا اشتكى عضو ويتداعى بقية الجسم والأفراد للعضو بالسهر والحمل ، ويعيش أفراد الأسرة في حياة مشتركة : طعامهم وشرابهم ونومهم .. لكنهم سوف يصبحون في جزر معزولة منفصلة بعضها عن بعض إذا لم يعنوا بالتعليم المستمر والثقافة . وهم يتبادلون الفكرة ويتحاورون ، ويزدادون قرباً ، إذا هم استفادوا من علمهم وسعة إدراكهم ، وإذا هم اشتروا في الاستماع للموسيقى ، أو مشاهدة فيلم أو مسرح أو مطالعة كتاب جديد ظهر في الأسواق -إنهم بذلك يثرون أفكارهم وعقولهم ويصقلون وجدانهم ومشاعرهم ، ويحيون حياة أكثر خصوبة وبراء .. الأمية خطر، ونقص فرع من فروع الثقافة خطأ ،

كنقص الفيتامينات من الطعام .. أما إذا اكتملت مع الأسرة وسائل إطعام المعدة ، والعقل : معاً فإننا سنجد أنفسنا أمام أسرة نامية ، بل متقدمة ومتحضرة . فالعلم والثقافة وحدهما علامة التقدم في عصرنا ، وهما ليسا بمجرد أجهزة حديثة وديكورات مكتبة ، بل يجب أن نفيد من الأجهزة أقصى فائدة ، وأن نقرأ ما في المكتبة ، لا أن نكتفى بمجرد وجودها كظاهرة وكإعلان عن ثقافتنا .

#### ٤

التربية ، تبدأ بالبيت .. مهمة الأسرة الأولى أن تعلم أبناءها كيف يفكرون وأن تدرهم على مواجهة المشكلات وإمعان العقل بحثاً عن أسلوب حلها .. وبعض الآباء يحاول أن يفرس في أبنائه ضروباً من السلوك ، وألواناً من الأخلاقيات ، لا تقل في رثائها وقدمها عن أئاث الأسرة العتيق ، والبعض الآخر يفرض جوانب من المعرفة والمعلومات ، يحشوها دماغ الأبناء ، الأمر الذى يعلق نوافذ الفكر لديهم . إن للطفل - فطرياً - عقلاً متوثباً ، منقباً ، محباً للاستطلاع . وهم يحاولون أن يردوا الأشياء إلى أصولها وأسبابها ، ويحللون نتائجها مستنبطين الكثير من الحقائق . وإذا ما أحسن الأبناء التفكير ، فعلينا بعد ذلك أن ندرّب أيديهم وأصابعهم ، ونعلمهم كيف يتصرفون ، بل وكيف يشكرون ، بطريقتهم هم ، لا بطريقتنا نحن . وقد تبين أنه ما من شيء يعمل ، إلا ولعمله وسيلة أخرى صالحة . مثلاً : الكلب يحك جلده برجليه الخلفيتين ، وحيوان آخر يتمسح في الحائط ، وكل منهما يتقن حك جلده .. لذلك

فلندعهم - أي الأبناء - لكي يمارسوا التصرف والابتكار بأسلوبهم الخاص ، وهذا أمر ضروري ، لكي نساعدهم على غرس أمور ثلاثة هم في ميسر الحاجة إليها : البصيرة . الخيال . الشجاعة .

بالبصيرة : يرون الأمور على حقيقتها ، فلا هي أكبر من حجمها ، ولا هي ضئيلة . ومنذ سن مبكرة نحاول تدريب الأطفال على جلاء بصيرتهم ، ولعب إدخال المكعبات في أماكن محددة وترتيب الكور حسب حجمها ، وأشياء من هذا القبيل هي البداية الخاصة بالتدريب على الإدراك وشحن البصيرة ، إلى أن تصبح شيئاً طبيعياً في تصرفاته حتى بالنسبة للأمور المعنوية .

والخيال : ضرورة . ونضيق بمن قال : لاتبوا القصور في الهواء .. أين نبنها إذن ؟ . إنها لاتبى إلا في الهواء ، بشرط أن تجعل لها أساساً في أعماق الأرض .. وكان الخيال دائماً هو أول خطوة على طريق الاختراع ، بساط الريح ، خيال تحقق لكي يصبح الطائرة ، وهكذا . والخيال الواسع يفتق الذهن ، ويسر لنا أن نضع فيه - فيما بعد - ما نشاء من علم ومعرفة . والشجاعة : سبيلنا لتحقيق كل ما نريد ، فهي التي تدفع بالأبناء إلى أن يحققوا أحلامهم ، ويقتحموا المخاطر ، من أجل جعل حياتهم أفضل ، وأجمل ، وأكثر نراء : مادياً ومعنوياً . والخوف عدو البشر ، وهو يجرهم من الكثير ، فما بالكم بالجبن ، الذي يزرعه البعض في نفوس الأبناء . إنه مرفوض ، ونأبى أن يتصف به الأبناء خاصة وهم أحفاد أشجع الناس . وإذا كانت بيوتنا تحكمها تقاليد قديمة ، لا تسمح لنا بأن نمنح الصغار حريتهم ليتصرفوا ، ويتخللوا ، ويتشجعوا ، فنحن نرتكب جرماً حقيقياً في حقهم . إننا كما قال سيدنا عمر بن الخطاب : « نربيهم لزمان غير زماننا » ..

والزمن القادم يحمل في مجال الاختراع والابتكار ، ما يفوق خيالنا وتصورنا .  
وما من سبيل لكي يلحقوا بهذا العصر إلا بأن نربهم بطريقة عصرية ، لا تعتمد  
على الأساليب القديمة ، التي كانت تستهدف خلق أنماط مقلوبة من الناس . في  
حين لابد لنا الآن أن ننبه الطفل إلى الكثير مما لم يصنع بعد ! أو الذي أسىء  
صنعه ! لكي يعيد النظر. والبعض يكتبني بما هو قائم ، الأمر الذي يجنب الغد  
عن الأبناء .. ونحن نريدهم أن ينهضوا فيه بالكثير ، مستخدمين مواهبهم  
الطبيعية لتغيير مجتمعهم ، وأمتهم ، وبلادهم . هذه زاوية من زوايا الفهم  
الصحيح والعصري للتربية ، بعد أن انقضى عصر ( اغسل يديك قبل الأكل  
وبعد ) ، ونصائح أغلفة الكراسيات . يجب ألا تستغرقنا هذه الأمور ؛ لأن  
أشياء جلية يحتاجها الأطفال في انتظارهم . وليس معنى هذا ألا يغسل يديه قبل  
الأكل وبعده ، ولكن فلندربه على ذلك ، خلال وقت قصير مكثف ، يعرف  
فيه الكثير عن الجراثيم والنظافة ، عن المرض والصحة ، لكي ينطلق منذ نعومة  
أظفاره ، في التفكير في علاج أمراض لم تصل الإنسانية بعد إلى علاج لها ..  
وهكذا نرى أن البداية تكون دائما على يد الأسرة ، التي قد تصور أنها تذلل  
لأطفالها كل شيء ، وتحقق لهم كل ما يرغبون فيه ، فإذا بهم أمام أطفال  
وشباب عاجزين عن التفكير والخلق والابتكار !

## ٥

« التربية » تبدأ في البيت ، والبعض يصل حبه لأبنائه للدرجة التدليل ،  
ويحاول أن يذلل لهم كل شيء ، وذلك حب سطحي ساذج ، فإن الأب يحرم

أبناءه ذلك « النظام » الذى هو أجدى عليهم فى التربية . ومثل هذا الأب ، يذكرنا بأحد ذوى القلوب الرقيقة ، كان مولعا بتربية الفراشات ، وقد بلغ تأثره لمنظر الفراشة ، وهى تجاهد للخروج من الشرنقة أن أخذته الشفقة الكاذبة بها ، فشق الشرنقة بظفر أجهامه ، حتى يستطيع ساكنها الضعيف أن يخرج بلا مشقة ، فكانت العاقبة أن ظلت هذه الفراشة عاجزة عن الطيران . إن المعاناة ضرورة ، فالفراشة خلال معاناتها الخروج من الشرنقة تقوى ، لتصبح قادرة على الانطلاق ، وعندما حرمت المعاناة عاشت عاجزة بقية العمر . فالطفل كلما واجه مشكلة من هذا اللون فقهرها وانتصر عليها ، ازدادت بذلك أجنحته قوة ، وكلما أتيح له أن يفكر ، ويقرر رأيا ، يمضى فى تنفيذه فى جرأة وتصميم ، وكلما أتيح له ذلك تجددت شجاعته وثقته بنفسه .. ولنا هنا وقفة عند « الشجاعة » .. فهناك شجاعة فطرية ، حين تنور الفرائر للملاقاة خطر مفاجئ ، وهناك شجاعة يترنن عليها الطفل ويبدرب ، وهى مواجهة الفشل ، والإخفاق ، والصعاب ، ويقصد بها أن ينهض الذى يسقط وينفض عنه غبار السقوط ، ويعاود المضى قدما . وهذا اللون من الشجاعة هو الذى نحتاجه ، ونود لو نغرسه فى نفوس أبنائنا ، بجانب البصيرة النافذة ، والخيال المنجح .

وعصرنا يضع بين أيدي الأبناء « الأشياء الجاهزة » .. « المبتكرات الرائعة » .. « المخترعات الفذة » . وقلما نتذكر أن نقول شيئا لهم ، عما بذل من أجل إنتاجها والجهود المضيئة التى أدت إلى حصولنا عليها ، بعد عشرات من التجارب التى لم تنجح . وقد حدث أن أجرى « آيدسون » عشرين تجربة ، قبل أن يصل إلى نتيجة سليمة فى التجربة الحادية والعشرين ، فقيل له : إنك إذن أجريت عشرين تجربة فاشلة ؟ أجاب : لا .. بل إن عشرين تجربة فاشلة لن

تعيد الدنيا تجربتها من جديد . فالشيء المؤكد ، أننا لن نستطيع أن نصل إلى نتيجة حاسمة ، مثقفة من أول وهلة ، وأول تجربة ، وأول محاولة .. بل إن الإخفاق - والإخفاق المنكر - هو بوصلة النجاح ، والمرة الوحيدة التي ينجح فيها المرء ، ولا يخفق هي المحاولة الأخيرة ، التي تكفل المساعي بالفوز والنجاح ؛ فالفشل هو سلم النجاح ، والمرء يخفق ماضياً في طريقه إلى التوفيق .. وكثيراً ما تكون هذه الخطوة الموفقة بداية ، لا أكثر ولا أقل ، بداية لكفاح أشد وأقسى ، وعلى هذا يجب أن يدرك الأبناء - بعد العناء - أن النجاح له متاعبه . وإذا أدركوا هذا أصبحوا أكثر شجاعة وجرأة ، وأشد ثباتاً وعزماً عندما يواجهون بالعقبات ، ويلتقون بالمشكلات .

وهناك حقيقة لا بد وأن يعرفها الأبناء تلك هي الهبة التي منحها إياهم الله .. إنها رأسالمهم الذي يجب أن يستثمر : إنه الوقت . إنهم يملكونه ويملكون تبديده وإضاعته ، والتصرف فيه بالشكل الذي يروونه ، وقضية (الثلاث ثمانيات) تشغل البشر منذ وقت طويل .. ثماني ساعات للأكل والراحة والنوم .. ثماني ساعات ثانية للمدرسة والامتدكار أو العمل . ثماني ساعات ، هي التي تبقى لنا لاستثمارها أو تبديدها ، وهي وحدها التي تصنعنا ! ، إن التاريخ يغير مجراه أناس عرفوا كيف يستفيدون من هذه الساعات الثمانية ، المتبقية لهم كوقت فراغ ، وأبناؤنا ، يجب أن يعرفوا أن هذه الساعات وحدها ، هي التي تقرر مصيرهم ومستقبلهم ، ولن يستطيعوا أن يكونوا من رجال الابتكار والتقدم ، ما لم يتعلموا كيف يخصصون جانباً من نشاطهم للاستعداد للمستقبل ، وكيف يستخدمون أوقات فراغهم في أمور عملية . بهذا يكون البيت قد ساهم مساهمة عملية في تربية الأبناء ، بشكل عصرى خاصة والمدرسة

تركز حتى الآن كل جهودها على التعليم ، وعلى حشد الأذهان بالمعرفة ، الأمر الذي لا يدع للأبناء فرصة للتدرب على التفكير الحر الطليق .. وعلى ذلك فسوف يظل البيت هو مهد التربية ، والمدرسة والمجتمع يشاركان بقدر متواضع ، فهي أجهزة غير مباشرة ، أما الأسرة ، فهي أكثر تأثيراً في الأبناء وأقدر على صياغة عقولهم . لذلك فإن خلق بيئة صالحة لنمو الأطفال في البيت ، رسالة أساسية ، يجب أن تهيب الأسرة نفسها لها ، ولا بد أن تكون قادرة عليها ، وذلك بتثقيف نفسها ، والتسلح بالمعرفة والخبرة في مجال التربية ليشب الأبناء ناجحين موفقين .

## ٦

« التعليم المستمر » ليس معناه أن يمضي الطالب إلى مراحل الدراسة العليا ، ليحصل على دكتوراه ، ولكنني أقصد ، أن يواصل الإنسان التعليم والدراسة بعد أن ينقطع ترده على معاهد العلم ، وتنتهي دراسته عند أية مرحلة مدرسية وكل منا مطالب بأن يجيب على سؤال :

- هل طبقنا هذا الشعار « طلب العلم من المهد إلى اللحد » ؟ هل نوالى

تعليم أنفسنا وتثقيف ذاتنا ؟

لا أريد أن ندخل الفرحة على أنفسنا بإجابة سطحية ، فنقول : نعم ، ونفرض أيدينا من الأمر ، كما لا أرغب في تعذيب ذاتنا ، وممارسة القسوة عليها ، بمقارنات ساذجة نعقدها بيننا وبين زميلات ، وزملاء لنا . ربما بدلنا جهدا مضنياً . ومعاناة شديدة ، من أجل الإجابة عن هذا السؤال . وأظنه سيظل

مطروحا ، وسيقا مسلطا على رقابنا ، كلما تطلعتنا ، إلى رفوف المكتبات وهي تمتلئ وتفرغ ، ونراها تناديننا أن نقرأها . وما من سبيل للاستجابة لهذا النداء ، فما في استطاعة بشر أن يلم بما تصدره مطابع الدنيا من موضوعات ، مما بالكم بقراءتها . والقراءة نعمة ، والمداومة عليها نعمة أكبر ، وبقينا هي تأتي بالتدريب . والممارسة من الطفولة والذين يشكون من ضيق الوقت في واقع الأمر يتصلون ، فمن الممكن من حين لآخر ، أن يتسع الوقت لدرجة لانعرف معها كيف نقطعه أو نستغله ونستثمره وليس أفضل ، ولا أرخص ولا أمتع من قضائه ، بين أشرف ما منحنا الله : الكتب . فإنه سبحانه وتعالى - حين أراد أن يهدي البشر ، أرسل إليهم كتابا مقدسة .. على أن القراءة وحدها كيفما اتفق ، ليست هي التعليم الذاتي والمستمر .. فالقراءة ليست المصدر الوحيد للعلم .. فقد تكون المصدر الأساسى والرئيسى ، إلا أن العينين ، والرؤية ، سبيل هام للمعرفة وكذلك الأذنان والسمع وسيلة رائعة للدرس . وتأتى بعد ذلك اليدان ، والحس كأسلوب فذ للتعليم . وهناك الخبرة المكتسبة ، من المشاهدة والسمع والممارسة ، كأوضح طريق للتلقى التلقائى ، كما يفعل أبناء الفلاحين والحرفيين حين يرثون مهن آباؤهم ، وإن توقف بهم العلم ، وسدت سبله بعد ذلك ، بسبب الأمية كل هذه السبل والوسائل والطرق والأساليب كانت وستظل عمد التعليم الذاتى والمستمر ..

والمجموع - مماثلا في أجهزة مسئولة عن الكتاب ، كوزارات التربية والإعلام والثقافة ودور النشر - مسئول عن تقديم غذاء العقل للأبناء ، من سن الحضانة إلى الكهولة ، فند أن يقيع الصغير في عربته ، يجب أن يحيطه بكتاب مصور ملون ، قد يكون من ورق مقوى لا يستطيع تمزيقه ، وقد يكون من

فماش يمكن غسله ، وذلك تدريبا لعين الصغير على « الاطلاع » على الكتاب .  
وتكثر الكتب الملونة حول الصغير ، وتغزوها الكلمات ، بقدر ما تقل منها الصور  
خطوة خطوة حتى يستطيع الفتى أن يقرأ كتابا علميا ليست به رسوم وصور ،  
ولكن قد تكون فيه أعقد الجداول وأصعب المعادلات ، ويجب أن تكون هذه  
الكتب قيمة ومنوعة وفي متناول اليد ، وأن تتحمل الدولة جانبًا من نفقاتها ،  
حتى يمكن أن يسهل على الجميع شراؤها واقتناؤها ووضعها في مكتباتهم  
الخاصة .

ومما تجدر ملاحظته أن المدرسة بداية مازالت تهدف إلى حشو المعرفة في  
الأدمغة وليست بقصد استثارة حب الاستطلاع والاكتشاف ، وهي تقدم  
لأبنائنا كتبًا لا تحببهم في الكتب ، وما إن يمتحنوا فيها حتى يهجرها بقسوة ، بل  
قد يتخلصون منها إلى الأبد . ولابد لنا من أن ندرّب الصغار في هذه الفترة من  
العمر ، على عقد معاهدة صداقة أبدية بينهم وبين الكتاب ، والكتاب لن  
يعطيك نفسه ، إلا إذا أعطيته نفسك . ومن أجل هذا يجب أن نعد مكتباتنا  
المدرسية ، بكل حديث ، ويجب أن نضع أمينًا ، يكون أمينًا على قراءات  
أبنائنا ، يتلقاهم بالبسمة العريضة ، ويكون دليل خير لما يريدون . ومن  
الضروري أن تعود « حصة المكتبة » لتأخذ مكانها بين الحصص الهامة ، ولتتنا  
نضع اعتبارًا للثقافة العامة ، يجعل الأبناء يقبلون على الكتب ؛ ليعتادوا ذلك .  
والحق أن المناهج والمقررات الدراسية ، قد جعلتنا خلال سنوات طويلة نغلق  
على أبنائنا باب الاطلاع ؛ لأننا نضع لهم كتابا معينًا يدرسونه وقد يستظهرونه  
بلافهم ولاوعى ، في حين أن الدنيا كلها كفت عن استخدام (الكتاب المقرر)  
وأعطت الأبناء منهجًا ، يبحثون عن مادته في مراجع عدة ، فيدرّبون على

البحث والاستقصاء ، للعثور على المادة المطلوبة بعد جهد ، لكي يتوسعوا في المعرفة ، ولا يسجنون بين دفتي كتاب واحد ، ومؤلف واحد . ولأن المدرسة تربية ، وليست معرفة فحسب ، فإننا نراها المسئولة والمنوطة بتربية الأبناء على القراءة والاطلاع ، لتظل لديهم هذه العادة الرائعة ؛ عادة تثقيف الذات والتعليم المستمر ، الذي هو من المهد إلى اللحد ، على أن المدرسة ليست المسئول الأوحده عن هذه المهمة الكبيرة . ويتبقى الفرد منا مع كل ما أسلفت - صاحب القضية الأصلية في رفقة الكتاب .. إن كليات كالتدخين يجب ألا يصرف لها أكثر مما يصرف للكتب ، التي هي وسيلتنا للتعليم المستمر ..

## الطفل والمنافسة

١

من مدة سمعت إحدى الزميلات المذيعات تسأل الأطفال مجموعة أسئلة من بينها السؤال التالي : « كنت تلعب بالبلي مع صديق لك . وكان معك ساعة بدء اللعب عدد كذا بلية ، وفي نهاية اللعب أصبح معك كذا بلية .. أى أكثر من صديقك باثنين » هذا السؤال فى حد ذاته لايهمنا إنما يهمنا موضوع السؤال ، لأنه يطرح قضية لعب البلى ، بالكسب والخسارة ، وفى هذا لفت نظر الأطفال لشيء لانود أن ننبههم إليه وهو : القهار .. والحقيقة أنه لايد من لفت الأنظار لأمر أخرى كالمنافسة : مجلة رسمت قطا يجرى خلف فأر وثلاثة أولاد كل واحد منهم يركب عجلته ويجرى بها ، واثنين خلف كرة ، وكلب منطلق خلف شخص يحاول تسلق سور .. وسألت المجلة : مَنْ مِنْ هؤلاء يتسابق ؟ .. ومن يطارده ؟ .. والمنافسة فى السباق مقبولة ، أما القهار فمرفوض ومعروف لماذا هو مرفوض ..

والحياة فيها نصر وهزيمة .. وفيها مكسب وخسارة .. ولكن ليس بالقهار ، وبمجرد الحظ .. وسؤال الطفل : ما الفرق بين جري القط خلف فأر وبين تسابقك وزميلك على الكرة ؟ .. سؤال يكشف الفرق بين المتطاهرة والمنافسة والأسئلة لا بد أن تكون موجّهة .. بمعنى أن نسأل الطفل : هل تعيش الوردة

أكثر إذا ما تركت على عودها ، أو إذا ما قطفناها؟! هذا السؤال ليست الإجابة عنه مطلوبة لمجرد المعرفة والإدراك بأن الوردة تعيش أكثر على عودها .. إنما تستهدف إجابته أن يترك الطفل الوردة ولا يقطفها .. وهذا أروع بكثير .. أن يستتج الأفضل بنفسه ، ويعمله بدلا من الأوامر والنواهي والمحظورات التي نلقبها عليه . وربما لا يكون هناك شعب في العالم يستخدم كلمة ممنوع مثلنا .. ممنوع قطف الزهور .. ممنوع السير على الحشائش .. ممنوع الدخول .. ممنوع كذا .. إلخ ، وقائمة المنوعات طويلة ، ونستمع بمخالفتها ، لأن كل ممنوع مرغوب كما يقال ..

وليس المطلوب منا أن ننشئ أطفالنا دائرة معارف تسير على قدمين ، ولا المطلوب أن نحشورهم وسهم بالمعلومات .. نعلمهم : نعم .. نربهم : نعم أيضا .. مطلوب أن نلهم على مصادر المعرفة أكثر مما نقدم لهم المعرفة ذاتها .. ومصادر المعرفة الممارسة .. الرؤية .. الاستماع .. القراءة .. والمدرسة .. المدرسة تأتي في النهاية . من أجل هذا كان من المستحسن أن نسألهم أسئلة توجيه لا أسئلة معلومات .. وسأقدم لكم مجموعة نماذج من هذه الأسئلة .

- قل لي مَنْ مِنْ هؤلاء حقيق ومن خيالي : الذئب ، الشبح ، عروس البحر ، العفريت ، مصباح علاء الدين ؟ .. هذا سؤال لطرد الخوف من الأشباح والعفاريت .

- قل لي كم مرة تنهك والدتك عن عمل شيء وتمتنع عن عمله ؟ هذا سؤال عن الاستجابة لأوامر الأم .. أيستجيب من أول مرة ، أم أن الأمر يحتاج إلى تكرار ؟

- قل لي أيهما أسهل : أن تؤدي الواجب المدرسي أم تجلس لمشاهدة

التليفزيون .. هذا السؤال يلفت النظر إلى أن السؤالين ممتعان وسهلان .  
- شخص لديه بيغاء إذا أراد شيئاً صرخ وخبط .. ولديه عصفور إذا أراد شيئاً غنى بركة .. هل تحب أن تقلد العصفور أو البيغاء . حيناً تريد شيئاً؟! واضح أن هذا السؤال يستهدف اتباع الطفل أسلوب الرقة في طلب الأشياء بدلا من أسلوب العنف .

- أيها تفضل عصر البرتقال أم اللبن؟ .. كيف تعرف أن الطفل أنانى؟ .. هل تحب الطفلة التي تميل للاستعراض وتباهى بنفسها؟! .. هل إذا وجدت طفلا يضرب طفلة وتبكي ، تنهاها عن البكاء؟! ..

- وأنا أدرك تماماً أن هذه الأسئلة ليست سهلة لكنها تحتاج إلى بذل الجهد لكي نبتكرها .. لأنها تخلق عند الطفل القدرة على التفكير وابتكار الحلول ، وتوجهه توجيهاً أخلاقياً طريفاً وغير مباشر .. وكم يكون ممتعا للطفل والأسرة لو أن لدينا ألف سؤال وسؤال من هذا النوع ، ندرّب أولادنا على التفكير ، حتى لا يكونوا مثل نكتة الشيخ البشرى ، ونكتة صامويل بيكيت في روايته في انتظار جودو .. فتقول نكتة الشيخ البشرى إن الشخص يستطيع القراءة والكتابة إذا لبس العمامة .. ونكتة بيكيت تقول إن البطل يستطيع التفكير إذا لبس القبعة .. وإذا خلعها كف عن التفكير .. وكم أشعر بالخوف لأن أغلبنا الآن لا يلبس شيئاً فوق رأسه .

## ٢

من المهم جداً أن نعلم أولادنا أن يلعبوا من أجل الكسب ، وأن يذاكروا من أجل النجاح ، وأن يناضلوا من أجل الفوز ، وأهم من هذا أن نعلمهم أن

يلعبوا ، ليس فقط من أجل الكسب وأن يذكروا ليس فقط من أجل النجاح ، وأن يناضلوا ليس فقط من أجل الفوز .. فالكسب ، والنجاح ، والفوز ، ليست كل شيء في الحياة .. لأن فيها الخسارة ، والفشل ، والهزيمة ، وفيها أيضا التعادل ، ونحن نحفز أبناءنا باستمرار وندفعهم دفعا لتطلعات كبيرة ، وقليل منا ، قليل جدا الذي يتبته للجانب الآخر من الحياة ، ويتبته له .

إننى أجد أكثر من صديق يركز كل همه وكل جهده وكل وقته من أجل أن يضغط على أبنائه ، حتى يكون ترتيبهم الأوائل .. وإذا جاء ترتيب أحدهم الثاني نجد أنه أسفَ أسفاً شديداً ، كأن الابن قد رسب رسوباً فاحشاً ، كأنه لم يعد هناك أمل .. مثل هؤلاء الآباء في الواقع ينسون أمراً في منتهى الأهمية .. ينسون أنه ليس هناك أول واحد .. وإنما هناك أوائل كثيرون والقمة ليست مربية ولا تتسع إلا لواحد .. أبداً .. إن هناك قمماً كثيرة ، كثيرة جداً ، وقيماً عريضة ، عريضة جداً .. هناك قمم في الرياضة ، وقمم في السياسة ، والفن ، والأدب .. فالقمم كثيرة جداً كما قلت ، ثم إن القمم تحمل الكثيرين ، وتتسع لعدد كبير .. ففي الأدب عشرات القمم وكذا الشعر والمسرح و... الخ وفي القصة عشرات القمم .. وكل قمة لها لونها ، وطعمها ، وجعلها ..

لكن هناك من يشئ أن هناك سفحاً أيضاً .. وفيه أودية وسهول .. وفيه آبار .. آبار عميقة .. بمعنى أن هناك من يموت خسرة لأنه لم يصل للقمة .. وأحياناً ننسى الارتفاع المطلوب منا أن نصل إليه .. أو مطلوب من أولادنا أن يصلوا إليه .. لنفرض أن جهدنا وجهدهم لا يوصلنا إلا إلى نقطة معينة .. إلى درجة محدودة .. هل نضغط ؟ هل نتحايل ؟ هل نغش من أجل أن نصل إلى القمة بأي ثمن .. هنا المأساة : ربما لا نصل وقد نصل ونسقط من على القمة ..

لأن ليس لدينا الصفات الحقيقية لها .. المؤهلات .. الإمكانيات .. ثم هؤلاء .. الأوائل الذين كانوا معنا في الدراسة هل أصبحوا جميعًا من القمم ؟ .. لا أظن . نسبة كبيرة منهم وقّمت في الحياة ولكن ليس جميعهم .. فمن وفقوا ونجحوا كانت عندهم الرغبة والإمكانيات والجهد والعطاء .. أما الباقية فلا .. من أجل هذا قلت إنه كما يعرف أبناؤنا أن هناك مكسبًا ونجاحًا وفوزًا .. لا بد أن يعرفوا أن هناك أيضا خسارة وفشلا وهزيمة .. وأهم من الاثنين أن يلعبوا جيدًا .. ويناضلوا جيدًا ، هذا في ذاته مكسب ، حتى ولو لم يكسبوا ذكروا دائما عبارة هيلين كيلر السيدة الكفيفة الصماء البكّاء ، مؤلفة الـ ١٨ كتابًا تقول : كل نضال في ذاته انتصار .. وهناك حكمة عربية جيدة تقول : ( على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح ) . والذي ينجح له ثوابان : ثواب المحاولة ، وثواب النجاح .. والذي لا ينجح له ثواب وشرف المحاولة .. ثم أننا تعلمنا من الحياة أن الفشل طريق النجاح .. فمن يسقط عليه أن ينهض وينفض عنه الغبار ويواصل السير .

ويجب ألا يهزنا النجاح ، والأبغرينا النصر ، والأبدير رأسنا الفوز .. كما علينا ألا نعتقدنا الخسارة على أن نجرب من جديد ، ولا يصيبنا الفشل واليأس ، وألا نفقدا الهزيمة الأمل في النصر .. وألا ننسى أن صلاح الدين الأيوبي انتصر في حطين بعد هزيمته في ٢٥ معركة على مدى تسع سنوات ، وكنا دائما نقفز عبرها .. وننساها ونقف عند حطين وكفى .. وحطين لم تكن ضربة قط .. إنما كانت مسيرة طويلة فيها عرق ودم ونضال وقتال .. فيها المكسب والنجاح .. والفوز والنصر .. كل هذه لا تأتي بسهولة ولكن بالمعاناة والصبر .

## الطفل والعمل اليدوى

١

أحياناً أنظر إلى يدي بأسف ، وأقلها في حزن ، لأنها من الأيدي غير المدربة .. لا أستطيع أن أخرج منها شيئاً فنياً ، أمسك بها الأشياء ، آكل بها أكتب بها .. فقط .. وأرى أيدي مهرة أيدي مدربة على التركيب والتصليح ، براعة شديدة ، أيدي تشكل فنوناً جالية رائعة ، وترسم ، وتبدع ، أعرفتم لماذا أسف على يدي .. لأنها عاجزة عن أشياء كثيرة .. والسبب تعرفونه .. فحينما كنا صغاراً ، كان يُقال لنا دائماً : لا تمسك القدم .. ابتعد عن المقص .. احذر المفك .. لا داعى للموسى . فإذا ما عمدت أيدينا الصغيرة لأى نوع من الأدوات بدأت التحذيرات .. وإذا توصلنا لأية أداة ، أصبنا باللوم الشديد .. هكذا جرحت نفسك .. جرحت أصبعك .. وبذلك تحجرت أيدينا .

ومما لا شك فيه أن أيدي الإنسان في العصر الحجري كانت أهم بكثير من أيدينا .. ونتيجة لهذا ، فقد نشأ جيل كامل لا يعرف طرق المسار في الجدار .. أو تبييت الأزرار .. أو إصلاح صنوبر .. كل هذا بسبب كلمة عيب .. والمشكلة الحقيقية ليست في أننا لا نستطيع عمل هذه الأشياء ، وإنما المأساة أن هذا لم يجعلنا نحترم العمل اليدوى الاحترام الكافى .. الاحترام الواجب .. الاحترام اللائق .. مع أن العمل اليدوى له أيد كبيرة على الإنسانية ، ولا يقل

دوره مطلقاً عن العمل العقلي ، والعمل الفكري ، لأنه من الممكن بالعقل والفكر أن تخطط ، وتبدع ، لكن يبقى دائماً التنفيذ .. والمعول فيه على الأيدي ، والذي يفكر منا في اليد الإنسانية يشعر أنها وراء آلاف .. بل ملايين الأشياء .. من صناعة آلة الصيد والدفاع عن النفس ، إلى صناعة الصاروخ الذي يصل بنا إلى القمر .. اليد الإنسانية خطيرة .. تمتع حياتنا في أثناء ركوب السيارة ، أو الأتوبيس .. تقدم أروع إنتاج في الزراعة .. وفي الصناعة ، وربما لا نحس جميعاً بأيدينا وما تصنع إلا إذا وضعت في ضمادة لمدة يوم أو اثنين .. ولو أحصينا ما نؤديه في اليوم الواحد لوجدنا أنها تتجاوز الألوف .. حتى وهي غير مدربة ، فها بالكم لو كانت مدربة 14

وقد خسرتنا تربويّاً الكثير من عدم الاستفادة من أيدينا ، لايد من تغيير نظرنا جميعاً للعمل اليدوي .. تغييراً جذرياً ، لايد من أن ندرّب أصابعنا رجالاً ونساء على أعمال الحياكة .. والميكانيكا .. والنجارة .. والطبخ .. حتى تستحق أيدينا أن تكون مفكرة ، وحتى نوجه أبناءنا التوجيه السليم بالنسبة للتعليم الفني .. وكفى ما أهلته أجيال كثيرة .. نحن الآن مهتمون به ومحتاجون إليه . غير أن نظرنا له ليست بالتقدير الكافي .. ولا الاحترام العميق .. وما زالت بنا عقدة الياقات البيضاء التي رسبها الاستعمار في نفوسنا .. متى نعرف أن الأيدي المروقة ، والأصابع الدقيقة المغلفة بالشحم والزيت تستحق التثقيب ؟ لأنها أيد متجة .. لقد أصبحت لعب الأطفال الآن عدد ميكانيكا ، الميكانو .. وأصبحت عدد نجارة .. وحدادة .. وكهرباء .. وأصبحت عدد فك وتركيب حتى تمرن عقولهم وأيديهم ، وتمتعهم بأن تكشف لهم إلى أي مدى تعتبر الأيدي الإنسانية مرنة ، وإلى أي حد تستطيع فعل السحر ، لقد بنينا بأيدينا البسيطة

المهرم .. وصنعنا الغواصة .. والطبارة .. بأيدينا البسيطة ، خلقنا حضارة  
الإنسان في الحياة .. وإذا كانت يداى هما ورثة كل هذه الأيدي فمن حق أن  
أنظر لها نظرة أحسن ، وأحبها أكثر ..

## ٢

أيدينا لا يبد أن ندرجها ، ونمرنها ونعمل بها كل شيء ، نفك ونركب  
ونصلح .. ونكف عن تحذير أولادنا .. أحذر .. لا داعى للقدوم .. وقال لى  
الذين قابلوني لقد أعطيت للأيدى أكثر مما تستحق ، لقد جعلتها وراء كل  
شئ .. لماذا نظلم الفكر .. العقل .. والواقع أنى لم أظلم العقل ولا الفكر .. لأن  
الأيدى منفذة .. منفذة لخطط وأفكار هى ثمرة للعقل .. وتضيف له الكثير  
وهى تعمل .. وتضيف له وهى تقلب صفحات الكتاب .. وتضيف له وهى  
تمارس .. لقد كنت ذات يوم مع صديق لى فى سيارة .. توقفت بنا قريبا من  
محطة بنزين .. وجاء أحد العاملين بالمحطة ومعه مفك .. واستمر حوالى نصف  
ساعة يحاول أن يصلح السيارة ، لكنه لم يستطع وفى أثناء عمله مر ميكانيكى  
خبير ، نظر إليه وقال له : اربط المسار الذى هناك .. وما إن ربط المسار  
بالمفك حتى دارت السيارة .. وتساءل صديقى : كم نعطى له وكم للآخر ؟ ..  
وهذا بالطبع ينبه لقضية فى منتهى الأهمية .. وهى علاقة الفكر بالتنفيذ ..  
علاقة النظرية بالتطبيق .. قد يكون البعض شوق لمعرفة كيف تم حل هذا  
الموضوع ؟ .. إن صاحب الفكرة هنا مهم جدًا .. وبعدها أصبح التنفيذ  
سهلا ..

. وهذا بالتأكيد يذكركم بالزراع الذى دار بين القبائل العربية حين كانت  
 تعيد بناء الكعبة واختلفت حول حمل الحجر الأسود ، وكادت تقوم الحرب  
 بينها لولا أن تدخل سيدنا محمد ﷺ .. يومها خلع ثوبه ، ووضع فوقه الحجر ،  
 وحمل كل منها من طرف . أيضا بيضة كولبس .. من يستطع أن يوقف البيضة  
 على طرفها ؟ .. لم يستطع أحد إلا كولبس ، كسرهما فأصبحت لها قاعدة ..  
 والسؤال : كيف يستطع الإنسان التقاط هذه الأفكار أو كيف يبتكرها ؟!  
 هناك ألوف مثل نيوتن سقطت عليهم تفاحة من فوق الشجرة ، بعضهم أكلها ،  
 والبعض أهملها ، إلا نيوتن فهو الوحيد الذى فكر لماذا سقطت ؟ واكتشف  
 جاذبية الأرض .. لأنه فكر .. والسؤال الذى يطرح نفسه .. كيف نتعلم  
 التفكير ؟ كيف نخلق الأفكار ؟ كيف نبتكر ؟ هل هناك عقول مبتكرة ..  
 مكتشفة .. مخترعة ؟ .. أم من الممكن خلق هذه العقول الخلاقة ؟ .. العقول  
 المبتكرة ؟ .. المكتشفة ؟ .. المخترعة ؟ لا بد أن ندرّب أبناءنا منذ الطفولة على  
 التفكير .. لا أن نقدم لهم كل شيء جاهزاً .. لا بد من بذل مجهود للوصول إلى  
 بعض النتائج .. والمعاناة هنا مطلوبة للصغار .. ومن الممكن أن نجنب أبناءنا  
 الكثير مما عايناه .. فثلاً لم تكن هناك فرصة للكثيرين منا لامتلاك لعبة فى  
 طفولتهم .. ومن الممكن أن نقدم لهم هذا .. ولكن الشيء الذى لا نستطيع أن  
 نقدمه لهم ، هو الراحة من المعاناة والتفكير .. لا بد لهم من معاناته ، وإلا فإن  
 إنجازهم سيصبح صفحة بيضاء .. لا بد من أن يعمقوا التفكير فى قضاياهم وإذا لم  
 يفكروا فيها بأنفسهم فعلى أن نشيرها أمامهم .

هناك مدرسة تقول : لماذا لا نتركهم يعيشون طفولة سعيدة بلا مشاكل ،  
 حتى إذا ما كبروا تذكروا طفولتهم السعيدة وأيامهم الحلوة ، إذ سيواجهون

بالمشاكل حينًا يكبرون ويكفيم هذا ، ولا داعى لأن تضع على أكتافهم الأعباء منذ صغرهم .. ومدرسة ثانية تقول : احذروا .. لاتصنوا لهم العالم بصورة وردية جميلة ، حتى لا يفاجئون حين يكبرون بأننا كنا نكذب عليهم ونخدعهم . ولا يستطيعون وقتها مواجهة مشاكلهم لأنهم شبوا دون سلاح يواجهون به الحياة ، لا بد من تدريبهم وفتح عيونهم على الرؤى والطيب ، والشئء الحسن .. ولا بد أن يصلوا لكثير من النتائج بأنفسهم ، بفكرهم ، بمجهودهم ولاداعى لأن نخلف الأمور ، ومن الجميل أن يسرحوا مع علماء الدين والمصباح العجيب ، لكن لا بد لهم أن يسمعوا ما تعرض له أوليفرتويست من مآسى .. والقدرة على التفكير ترى شيئاً فشيئاً .. وإلا سنجد أنفسنا أمام إنسان غيبي مثل ذلك الذى قال لى ذات يوم .. هل تعلم ماذا أريد أن أكون ؟ ! .. وكان عمره قد تجاوز الثلاثين .. سأته خيراً ماذا تريد أن تكون ؟ قال : مفكراً مثل برتراندرسل !

### ٣

يقول لى صديق إن لديه عقدة اسمها العمل اليدوى لأنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً بيديه .. إن يديه فاقدتا المرونة والقدرة على الفك ، والتركيب ، والتصليح .. ويوده ألا تتكرر مثل هذه الأيدي فى بلدنا .. وفى أجيالنا .. إذ نجد فى أوروبا .. الولد الصغير يستطيع استعمال كل الأدوات .. الفتاحة ، والمفك ، والأزمير .. الخ .. ونحن لانعرف هذه الأدوات .. نعقد مؤتمراً لفتح علبه مأكولات محفوظة ، ويفسد الصنبور ويستمر تساقط الماء منه أسبوعاً إلى أن

يحضر السباك .. وينقطع التيار الكهربائي فنعيش في الظلام إلى يصل  
الكهربائي .. تتوقف السيارة أو تحدث تهوية في إطارها فنظل عاجزين بجانبها إلى  
أن يحضر المتقذ .. ومع ذلك إذا طرحنا على مجموعة طالبات سؤال كهذا :  
- من منكن توافق على أن تتزوج من ميكانيكى ؟!

نجد أن الكثيرات يفضلن موظفًا صغيرًا ذا دخل محدود ، على ميكانيكى  
ماهر ، قد يتجاوز دخله ثلاثة أو أربعة أمثال دخل هذا الموظف .. لأنى كما سبق  
أن قلت : مازالت عقدة الياقات البيضاء ، التى خلقها فينا دنلوب قائمة ،  
وستظل قائمة بطول نظرتنا للتعليم الفنى ، والعمل الحرفى ، نظرة فيها قلة تقدير ..  
ونظرة واحدة لما حولنا تكشف لنا كيف ننظر إلى بعض الأعمال .. كم لدينا من  
حمالين .. ومن ماسحى الأحذية .. هناك الكثير من الأعمال موجودة لأننا لا  
نعمل ما نحتاج إليه بأيدينا ونعتمد فيه على الآخرين .. لماذا لا يحمل كل منا  
حقيته ؟! لماذا لا يسمح كل منا حذاه ؟! لكن بقايا العقلية القديمة مازالت  
متوارثة ، فالبعض يجد أنه لا يليق به أن يخرج من المحطة حاملا حقيته ، ثم  
يسمح حذاه بنفسه إلى هذا الحد ؟! .. ما من شك أن هذا يعود على بلادنا  
بجسارة جملة .. الصنابير التى ينساب منها الماء .. آلاف الأشياء البسيطة التى  
تدمر اقتصادنا .. ثم إن الناس الذين يقومون بهذه الأعمال البسيطة نخسرهم ..  
لأنه ليس لديهم أى كفاءة أو قدرة . ولأنهم .. يكتسبون مهارة عقلية أو  
يدوية .

من مدة أجزت الأمم المتحدة ببحثين مهمين : أحدهما فى سويسرا ، والآخر فى  
البرازيل .. سويسرا ليس بها ثروات طبيعية ، والبرازيل مليئة بها .. ومعتمدة  
عليها .. لكن أهل سويسرا حيث لا يوجد حديد ، القطعة بملفات تتحول فى

أيديهم إلى ساعات تباع بمخيمات .. وأصبح مستوى المعيشة في سويسرا أعلى منه في البرازيل نتيجة لكفاءة الأيدي ، وبراعتها في الصناعات الدقيقة الغالية التي دربت عليها عبر عشرات السنين وبحجت فيها .. والسؤال : كيف نكون مثل سويسرا وليس مثل البرازيل ؟ .. يوم أن نؤمن بالعمل اليدوي .. وقد حدث في أثناء زيارتي لإحدى بلدان الكتلة الشرقية أن تطرقنا لهذا الموضوع ، وقال أحد المفكرين منهم : هل تعلم من هو أكثر شخص ركز على العمل اليدوي ؟ قلت له : أعتقد أن هناك كثيرين أكدوا هذه المسألة بإصرار .. محمد .. صلى الله عليه وسلم .. وسكت محدثي لحظة ليضيف .. قرأت من كلماته وأحاديثه .. عشرات يحض فيها عليه .. ولم تغب هذه الحقيقة عنى لكنها بهرتني !؟ .. ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً مما تصنعه يده ، شيء بهذا المعنى .. وما كان الرسول يأنف من أن يعمل أى شيء بيديه .. وقد قالها سيدنا عمر : أرى الرجل فيعجبني ، وأسأل ما عمله ، فإذا لم أجد له عملاً أسقطته من نظري .. وعمر ابن عبد العزيز حيث قال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر .. قالها حين انظفأ المصباح وقام بنفسه ليشعله ..

لكننا نحن وجدنا الألقاب ، وظل الكثير منا - وحتى الفقراء - بكرات وبشوات ، وإلا ، كم منا عنده عدة نجارة .. عدة عمل في البيت ؟ .. وإذا كانت عنده فكم منا يستخدمها ؟ .. وبالنسبة للأولاد .. المشكلة أطرف .. سمعت طفلة تقول للخادمة .. سأنام وأد أنت الواجب المدرسى لي !! حتى واجب المدرسة تحيله على غيرها ، وبالتالي فإن نظرة واحدة لمستقبل مثل هذه الطفلة تكشف لنا أنها لن تشب معتمدة على نفسها وعلى أيديها مستقبلاً .. ولن يضيقتني أن يقال عنى إني مصاب بعقدة العمل اليدوي ، لأنى دائماً أتذكر مع

كلمة ( اليدوى ) شخصية عظيمة .. هيلين كيلر الكفيفة الصماء البكماء .. التى كانت يدها كل صلتها بالحياة .. بيدها رأت .. بيدها سمعت .. وبيدها عاشت وأضاعت للإنسانية ١٨ شمعة فى صورة ١٨ كتاباً .. واليد ليست خاسة خامسة ، إنما مجموعة حواس وأداة إنتاج .. وحينما تتوفر فى اليد الصفات التى طالب بها سيدنا محمد ، تستحق اليد المصافحة وتستحق أن يرَبَّت عليها فى حب ..

#### ٤

هناك سؤال يطرح .. هل يقف الآباء فى المطبخ ليغسلوا الأطباق ، ويشاركوا فى أعماله وأعمال البيت .. وهل هؤلاء الآباء يشوشون أفكار الأطفال بالنسبة لدور الرجل فى البيت وفى الأسرة ؟ .. منذ وقت قريب سألتنى ابنى الصغير ، وعمره ٧ سنوات قال لى وأنا فى المطبخ .. لماذا أنت هنا ؟ .. لماذا تعمل أعمالاً ليست لك ؟ .. فدهشت وسألته : من قال لك إن الرجل لا يعمل فى المطبخ قال لى : المرية .. أدركت حين سألتها أنها أرادت ذات يوم أن تخرجه من المطبخ فقالت له هذه العبارة ، والواقع أن الآباء الذين يتصورون أن عمل الوالد فى المطبخ يشوش الأولاد ، الأفضل لهم أن يبحثوا عن عذر آخر يبررون به ابتعادهم عن عمل البيت .. عذر أفضل .. لأن هذا العذر لا يتفق مع منطق العصر .. والزمن .. إن عمل الوالد فى المطبخ ليس له تأثير على الأطفال إلا إذا كان الأب خجلاً من هذا العمل .. يعمل وهو يشعر أنه تافه وسخيف ، والواقع أن التشويش الذى يمكن أن يحدث للأطفال متوقف على الطريقة التى

يؤدي بها الأب الأعمال ، وليس على الأعمال نفسها .. على الأسلوب .. على المشاعر . والأحاسيس التي تكشف خلال العمل ذاته .. والآباء الذين يجعلون من هذه الأعمال يورثون خجلهم لأولادهم .. أما الآباء الذين يشاركون في عمل البيت بحب ونشاط وتعاون ، ويقدمون خدماتهم ، وبالذات ما يحتاج منها لفترة معينة أو خبرة بالذات ، فهؤلاء يجعلون أبناءهم يحترمون هذا العمل ، ويورثونهم الفخر بأنهم رجال ، لا يستكفون أى عمل من أى لون لأن البيت بحاجة إليه ، والأسرة أيضًا ..

والواقع أننا لا بد أن نخفف في بلادنا من التأثير السيئ لفهمنا .. جيلًا بعد جيل لموضوع الرجولة ومكانتها في البيت والأسرة .. لا بد من أن نميز بين أننا نمثل دور الرجل وبين أن نبقى رجالًا حقيقية .. ولا بد أن نغير نظرتنا وأولادنا من أنه لا حيلة للرجال (بأعمال البيت) إلى نظرة جيدة «إن الرجل لا بد أن يكون مستعدًا لتقديم خدمته باستمرار ، وبسرور ، وباستمتاع وإذا كان عرش الأب بدأ في الاهتزاز في البيت ، فليس هذا راجع إلى أن الأم تناضل لتأخذ حقوقها ، لكنه راجع إلى تحلّي الأب عن مسؤولياته .. وأعبائه .. وأعماله .. وإذا كان يريد العودة بشكل ديمقراطي إلى مكانته ونفوذه ، فعليه أن يراجع نفسه بالنسبة لموضوع العمل في البيت ، لأن هذا هو الطريق الوحيد الذي يعيده للعرش الذي اهتز من تحته .. وهناك مواقف لا نود أن تحدث ولكنها تحدث ، نتيجة أن الأم تتحمل كل المسؤوليات ، فتأتي لحظات تطالب فيها بكل الحقوق ، وتتخذ قرارات ، وتدب خلافات .. وكان من الممكن تفادي ذلك كله من البداية ، والوضع المثالي للأب في الأسرة أن يكون مثلًا للقوة الجسدية . وهذه ليست مرادفة للضرب والإهانة .. لأن القوة الجسدية هي التي

تتحمل عبئًا لا تقوى عليه الأم ، كأن تفتح شيئًا يحتاج إلى قدرة وقوة معينة ..  
وليست القوة المسيطرة المتمكنة الباطشة التي تفرض نفسها على كل شخص وكل  
شيء في البيت ، بالعنف والقوة ، وهذا مهم جدًا في تنمية شخصية الطفل ،  
سواء كان بنتًا أو ولدًا .. وقد أصبحت الحياة محتاجة منا جميعًا أن نمد أيدينا إلى  
كل عمل .. وانتهى عصر ازدهار الأعمال اليدوية ، انتهى عصر استدعاء  
السباك والكهربائي والنجار وبقية الحرفيين لكي يطرُقوا أبوابنا ليلاً ونهارًا لأننا في  
عصر الأب الفنى .. الذى يقوم في البيت بدور السباك والكهربائي والنجار ..  
ولا بأس من أن يقوم بدور الطباخ ويأكل أبناءه طهيًا من صنع يديه .. فكم  
سيكون هذا الطبق لذيذًا .. ولو لم يكن جيد الطهى .. لأنه سيقدم مع الطعام  
حب وعمل الوالد ..

\*\*\*

وهكذا صحبناكم وأكبادنا في رحلة امتدت طويلاً نرى خلالها أننا حاولنا  
أن نقدم دليل الآباء الأذكياء لبناء الأبناء ، نرجو أن يكون دليل خير لعملكم  
وحياتكم وتربيتكم لهذه الأجيال الجديدة ، التي نود لها حياة أجمل من حياتنا  
وأسعد !

## فهرس

صفحة	
٣	أكبادانا .....
١٠	المدخل إلى الطفل .....
١٥	الحوار مع الطفل .....
٢١	فن إدارة الحوار .....
٢٦	امتداح الطفل .....
٣٢	توجيه النقد للطفل .....
٣٧	الطفل وغضب الآباء .....
٤٢	الطفل بين الترغيب والترهيد .....
٤٨	الطفل والكذب .....
٥٤	التهديب بطريقة مهذبة .....
٥٩	تعلم المسئولية .....
٦٥	كيف تكسب طفلك .....
٧٠	الشعور بالمسئولية .....
٧٦	الواجبات المدرسية .....
٨٠	الاستذكار .....
٨٥	الطفل والموسيقى .....
٨٩	مضروف الجيب .....
٩٤	اختيار الأصدقاء .....

صفحة

٩٨	..... الاعتماد على النفس
١٠٣	..... النظام والانضباط
١٠٨	..... الأطفال والطاعة
١١٣	..... القرارات الحاسمة
١١٩	..... نشاط الأطفال
١٢٤	..... الثقة بالطفل وقدرته
١٢٨	..... موقفنا من معركة ارتداء الملابس
١٣٣	..... اليوم المدرسى
١٣٩	..... غيرة الأطفال
١٤٣	..... مظاهر الغيرة
١٥٠	..... الخوف والتعلق عند الأطفال
١٥٥	..... مصادر خوف الأطفال وقلقهم
١٦٠	..... الدين والتربية
١٦٨	..... الوطن والتربية
١٧٧	..... المجتمع والتربية
١٨٥	..... الأخلاق والتربية
١٩٥	..... الفن والتربية
٢٠٣	..... الرياضة والتربية
٢١١	..... هل دار الحضانه مدرسة ؟
٢١٤	..... الطفل .. ورب الأسرة
٢١٧	..... الطفل والرسم
٢٢٠	..... الطفل والكلمة المهذبة
٢٢٢	..... الطفل والزمن

صفحة

٢٢٤	.....	الطفل والأم العاملة
٢٢٧	.....	الطفل والضمير
٢٣٠	.....	الطفل والتفكير العلمي
٢٣٣	.....	الطفل والتغذية
٢٣٥	.....	الطفل والصحة
٢٣٨	.....	الطفل والشجار
٢٤٢	.....	الطفل ومراحل التعليم
٢٦٠	.....	الطفل والمنافسة
٢٦٥	.....	الطفل والعمل اليدوي



رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٦٥٩٧
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6086-X

١/٢٠٠٠/٩٦  
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)